سلسلة اعلام الفكر العالمي



غرامشي

تأليف : انطونيو بوزوليني

ترجمة : سمير كرم

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

هذا الكتاب

انطونيو غرامشي ·· المفكر والسياسي الايطالـــي ، الذي ولد بعد وفاة كارل ماركس بنحو ثماني سنوات ، ومات بعد ١٣ سنة من وفاة لينين ·· والذي قضى من سنوات عمره الست والاربعين عشرة اعوام في السجن كانت هي سنوات انتاجه الفكري الاكثف والارقى ··

انطونيو غرامشي ولد من جديد ـ ميلادا فكريا كثيفا وعميقا ـ بعد نحو قرن من وفاة ماركس ونحو نصف قرن من وفاة لينين ·· ليعطي الفكر الماركسي ميلادا جديدا لم يستطع ان يعطيه اياه اي من الفلاسفة « الجدد » ·· ماركسيين كانوا ، او يساريين جددا ، او « مراجعين » ··

وفي هذا الكتاب يتيـــح المؤلف بوزوليني لـ
غرامشي ان تقوم بالدور الرئيسي في النطق بفا
ووسط تقديم عميق ـ متعاطف وناقد معـــا ـ
غرامشي الشخصية والنضالية ·· وفكـــره ا
والعملي ·

الثمن :

أو ما يعادلها

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
ص.ب: ٥٤٦٠ - تلفون: ٢٥٦١١٠
بيروت - لبنان

غرامشي

سلسلة اعلام الفكر العالمي

أنطونيو غرامشي

حياته وفكره

تأليف : انطونيو بوزوليني

ترجمة : سمير كرم

الطبعة الاولى

كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٧

مقدمة

« ينبغي ان ندرك ان تقديم
شخص وعمل انطونيو غرامشي
من جانب الحزب الشيوعي
الايطالي قد اتخذ منذ البداية
طابع اسطورة » ٠

(جيورجيو اميندولا ـ في العدد
الثالث من مجلة النقد
الماركسي Critica Marxista) ٠

من الصعب اليوم ان نتحدث وان نكتب عن انطونيو غرامشي ٠ ومن المفارقات انه اصعب اليوم مما كان منذ عشرين سنة مضت عندما لم تكن الدراسات عن غرامشي قد كادت تبدأ ، وعندما لم يكد يكون قد نشر واحد من مؤلفاته ٠

ومن الصعب مناقشة غرامشي من وجهة نظر سياسية لانه من الضروري ان نعرف كيف نبقى بعيدين ـ بالدرجة نفسها ـ عن موقعين على الاقل ، يتعارضان في الغايات

وان لم يكن في الوسائل · (لقد قال تروتسكي ـ وكم كان على حق ـ ان الغاية يمكن ان تبرر الوسيلة طالما كان هنـاك شيء ما يبرر الغاية ·)

هناك ـ أول كل شيء ـ اولئك الذين يقـرأون غرامشي فقط لكي يضعوا كل السياسات الراهنة للحزب الشيوعـي الايطالي موضع التساؤل · فهم يريدون ان « يبرهنوا » على الانشقاق الذي حدث بيـــن الخط السياسي الذي اقترحـه غرامشي من عام ١٩٢٣ الى عام ١٩٢٧ والخط السياسـي الذي تبناه ونفذه توليياتي خلال الفترة الطويلة التي كان فيها الزعيم الفعال للحزب ، وذلك لكي يبرهنوا على أن النزعـة الاصلاحية للحزب الشيوعي الايطالي هي خيانة للخط الثوري الذي اقترحـــه غرامشي ·

ومن ناحية أخرى هناك أولئك العشرون الذين يريدون ـ دون خوف من ان يبدو مثيرين للسخرية ـ ان يظهروا صحة المخططات الغرامشية وقابليتها الحالية للتطبيق ، لا عن طريق تحليل للنصوص ، وانما بواسطة تبريرات بلا تمييز ، او مـا هو أسوأ · انهم يريـــدون ان يفرضوا القراءة الحقـــة « الوحيدة » الممكنة لغرامشي من خـلال وساطـــة مذكرات توليياتي ، في نوع من التقليد « الملهم » الذي يحتفظ بهالحزب الشيوعي الايطالي بطريقة غيورة كميراث مشروع له · (هذا هو النهج الذي استخدمه ـ على سبيل اختيار مثال واحد ـ فرانكو كالامانـدري في مجلة النقد الماركسي Critica Marxista

العدد الثاني ، مارس ـ ابريل (آذار ـ نيسان) ١٩٦٧ ، في مقالته بعنـــوان Jul Convegno gramsciano di Cagliari حيث حاول تفنيد التفسيرات « الخاطئة » التي قدمها نوربيرتو بوبيو وآخرون بواسطة مقتطفات سخية من كتابات تولياتي .

اذن ، من الصعب ايضا مناقشة غرامشي من وجهـــة نظر « علمية » ، لعدة أسباب لا بد ان تتضح للقـــــاريء سريعـــا ٠

ان أعمال غرامشي ـ بعد مضي اكثر من ثلاثين سنـة على وفاته ـ لم تجمع بعد في طبعة نقدية كاملـــــة ٠ وكل المقالات التي كتبها فيما بين عام ١٩٢٢ وعام ١٩٢٦ مفقودة ٠ كما لا توجد طبعة كاملة تشتمل على كل رسائله وليس فقـط رسائله التي كتبها في السجن ٠ ولا توجد بعد طبعة يوثق بها من **دفاتر السجن** ، التي نشرت حتى الآن طبقا لمعايير مثيرة للجدال للغاية (الامر الذي يعترف به حتى فالنتينو غيراتانا ـ في انتظار الطبعة الموثوقة ـ في مقاله الموسع في العـــــدد الثالث من مجلة **النقد الماركسي** ٠)

وبالاضافة الى هذا ، فاننا ـ موضوعيا ـ غالبا مـــا تواجه بصعوبة كبيـرة في نسبـة المقـالات غير الموقعـة ٠ (قام سيرجيو كابريو غليو اخيرا بـ « اكتشاف » مذهل لقرابة ١٢٠ مقال غير منشور لغرامشي ، لم يسبق ان ضمت الـــى طبعة « ايناودو » ، ولا يمكن ان يقوم شك معقول في نسبتها ٠

حقا ان كابرويو غلو ينسى احيانا عناصر يمكن ان تسهم في تقوية نسبته مقالا ما الى غرامشي · فهو ـ مثلا ـ حينما يناقش مقال رهبان باسكال Imonaci di Pascal المنشور بلا توقيع في صحيفة الطليعة Avanti ! يوم ٢٦ فبراير (شباط) عام ١٩١٧ ، لا يذكر العبارة الشهيرة لباسكال التي تظهر من جديد بالشكل نفسه بالضبط في وثائق أخرى لغرامشي ـ التقرير الذي.ارسله غرامشي ـ بينما كان ينتظر المحاكمة ـ الى القاضي لكي يعد دفاعه عن نفسه بنفسه) ·

وبالاضافة الى هذا ، يضع « معهد غرامشي » نسخة مطبوعة على الآلة الكاتبة من أعمال غرامشي ـ بدلا من الاصول ـ تحت تصرف الدارسين ·

ولقد جرى نشر اعمال غرامشي في ظروف سياسية غير عادية ، الامر الذي يمكن ان يفسر ، ان لم يبرر ، « التلاعبات » التي قام بها اولئك الذين اشرفوا على نشرها · وانا اشير هنا بشكل خاص الى المحذوفات التي جرت في نص الرسائل من السجن في طبعة « اينادو » لعام ١٩٤٧ ، وهي محذوفات كانت تتعلق ـ فوق كل شيء ـ بالحياة العائلية لغرامشي وعلاقاته الودية وعلاقات الصداقة التي ربطته مع آماديو بورديغا Amadio Bordiga خلال السنوات التي امضياها معا في السجن · فقد كان بورديغا ـ الذي طرد في الوقت نفسه من الحزب الشيوعي ـ لا يزال يعتبر خطرا ممكنا على وحدة الحزب وحركة الطبقة العاملة ـ في

السنوات بعد الحرب العالمية الثانية · تلك كانت الاعتبارات ـ غير الصحيحة بالتأكيد من وجهة نظر سياسية ايضا ، نظرا لتأثير بورديغا الذي لا ينكر على المناضلين ـ التي حبذت المحذوفات العديدة · ولكن هذه « التفسيرات » لا تلغي الحقيقة المؤكدة ولا تقلل من قيمتها ، وهي تترك ـ على اي حال ـ الشك في انه جرت ـ او كان يمكن ان تجري ـ عمليات حذف اخرى في اتجاهات أخرى لاغراض اخرى ·

واخيرا فأنه من الصعب الحديث عن غرامشي من وجهة نظر منهجية ، نظرا للفترة الزمنية التي استغرقها نشاطه كمفكر وكسياسي · فان عشرين سنة من الحياة السياسية تفرض مراجعة وتحولا وتطورا مستمرا في النشاط النظري والعملي · والظروف الموضوعية المختلفة التي يمارس فيها المرء الصراع تفضي الى تعديلات في آراء وقرارات الماضي ، احيانا ما تكون تعديلات جوهرية · ولهذا فانه ليس من قبيل المشكلة الهينة وضع استمرارية نسق من الفكر والتماسك النظري لمناقشة ايديولوجية وسياسية وفلسفية ذات مستوى عال جدا في مركز الضوء · وبعبارة اخرى فانه ما ان يقرر المرء ان المناقشة حول مفاهيم **الحزب** و**الطبقة** وحول **العلاقة بين الحزب والنقابة** مهمة ، ان لم نقل أساسية ، لغرض فهم فكر غرامشي ، تبقى هناك المشكلة التي يمثلها تطور فكره ، من المقالات المبكرة في الصحف الاشتراكية المختلفة ، الى المقالات الاساسية في صحيفة **النظام الجديد** L'ordine Nuovo الى وثائق الحزب الرسمية بعد تأسيس الحزب الشيوعي

عام ١٩٢١ ، الى ترتيب دفاتر السجن • المشكلة هي فهم فكره سواء كتطور او ككل متماسك •

ويبقى في النهاية ـ بصفة خاصة ـ داخل الاطار الذي رسمناه لانفسنا ـ ما يمكن ان يكون المشكلة الجوهرية ـ أي مشكلة اختيار ينبغي القيام به في خضم المشكلات التي ناقشها غرامشي ، اختيار لا يستبعد أيا من الموضوعات الاساسية ويظل ـ في الوقت نفسه ـ وفيا لمصالح زماننا ويبرز النظرات النبوئية او المحذوفات المفهومة (او غير المفهومة) في اعمال غرامشي •

حين نفعل ذلك ـ حتى بواسطة انتقاءات ، ذاتية وتعسفية ـ فأن غرامشي سينكشف لنا في عظمته وفي حدوده، وراء اي تبرير ،بازغا من المظلة الظالمة التي يحب بعض الناس دفنه تحتها لتهدئة الحوار مع علماء الاجتماع في عصرهم « العلمي » • سيتكشف لنا كانسان كان ابن عصره احتل موقعه داخل عصره ، في علاقة جدلية ، مركبة ومتشابكة لاقصى درجة ، ولكنها مضيئة وخصبة •

الفصل الاول

حياة غرامشي

« فضيحة تناقضاتي ، هي كوني
معك وضدك » ٠

(بيير باولو بازوليني)

ولد انطونيو غرامشي في جزيرة سردينيا ببلدة آليس باقليم كاغلياري يوم الثاني والعشرين من يناير (كانون الثاني) عام ١٨٩١ ، وكان الطفل الرابع بين سبعة اطفال ٠ كان أبوه قد جاء من غاييتا الواقعة على البر الايطالي ، وعمل موظفا في مكتب التوثيق في غيلارزا ٠ أما امه فكانت سردينية ٠ ومن أهم الحكايات في سني غرامشي الاولى في الحياة سقوطه من بين ذراعي امرأة خادمة ، وكانت سقطة سببت له عاهة جسمانية ٠ وقد تذكر غرامشي ، في رسالة من السجن الى أمه ، تاريخها ١٥ يونيو (حزيران) عام ١٩٣١ ، سنوات طفولته التي قضاها في ظلها (فقد كان والده قد اوقف عن عمله وارسل الى السجن بسبب مخالفة ادارية ،

وانتقلت الاسرة الى غيلارزا حيث التحق انطونيو بمدرسـة ابتدائية) :

« هل تعرفين ماذا خطر بذهني ؟ تلك الذكرى ، عندما كنت في الصف الاول أو الثاني من المدرسة الابتدائية . وكنت تصححين لي دروسي ، عادت بوضوح ودقة . أتذكر تماما أنني لم أستطع ان اتذكر ان كلمـة Uccello كانت تكتب بحرفي C ، وقد صححت لي هذا الخطأ ما لا يقل عن ١٠ مرات . وهكذا فانك اذا كنت قد ساعدتنا في تعلم الكتابـة (وقد علمتنا اولا أن نستذكر قصائد عديدة . ولا أزال اتذكر قصيدة Rataplan وتلك القصيدة الاخرى « على طـول المنحدرات الصاعدة للوار ـ ذلك الشريط الفضي ـ تجـري على طول مسافة مائة ميل ـ ارض جميلة مغامرة ») فانه من المناسب ان يكون احدنا بجانبك ليساعدك على الكتابة حين لم تعودي على درجة كافية من القوة . اراهن ان ذكرى قصيدة Rataplan وذكرى اغنية اللوار ستجعلك تبتسمين . ثـم اتذكر كيف كنت أعجب كثيرا (لا بد أنني كنت في الرابعة او الخامسة من عمري) بمقدرتك على تقليد دقات الطبل علـى المائدة وأنت تتلين هذه القصيدة .

حصل غرامشي على شهادة المدرسة الابتدائية ، ولكنه اجبر على ان يقطع دراسته ويذهب للعمل لمدة سنتين في ادارة الاراضي في غيلارزا . ومرة اخرى في رسالة من السجن في يوم الثالث من اكتوبر (تشرين الاول) عام ١٩٣٢ كتبها الى

زوجة شقيقه تاتيانا . فكر غرامشي من جديد بمرارة في تلك الفترة من حياته :

« ينبغي الا تظنني أنني كنت اعتزم قتل نفسي او التخلي عن نفسي ، مثل كلب ميت ، حتى نهاية التيار • لقد تمكنت من تصريف اموري بنفسي لفترة طويلة وكنت أتدبر اموري فعلا وانا لا أزال طفلا • لقد بدأت العمل وانا في الحادية عشرة ، وكنت اكسب تسع ليرات شهريا (الامر الذي كان يعني في النهاية كيلو غراما واحدا من الخبز يوميا) مقابل ١٠ ساعات عمل كل يوم بما في ذلك صباح أيام الآحاد ، وكان على أن احمل اضابير يفوق وزنها وزني ، وكثيرا ما قضيت الليل ابكي سرا لان بدني كله كان يؤلمني • لقد عرفت دائما اشد جوانب الحياة قسوة فحسب ، وتمكنت دائما من تدبير أموري ، سواء للافضل او الاسوأ ، حتى أمي لا تعرف كل حياتي والمحن التي مررت بها : انني اذكر لها أحيانا ذلك الجزء الصغير الذي يبدو الآن ، حين أستعيده ، خاليا من الهموم ومرحا » •

بعد ان درس معتمدا على ذاته ، بدأ مرة اخرى حضور صفوف مدرسة القواعد اللغوية في سانتا لوسورجيو ، حيث ذهب ليعيش في بيت امرأة فلاحة • وربما يمكن الرجوع بأولى قراءاته للصحافة الاشتراكية ، وربما ايضا لصحيفة الطليعة، الى تلك السنوات ، ويمكن ان يكون ذلك بفضل مساعدة وتشجيع شقيقه الأكبر جينارو • وفي عام ١٩٠٨ التحق

بثانوية ديتوري في كاغلياري • وكان جينارو - الذي ذهب للعيش معه - يشغل بالفعل وظيفة امين غرفة العمل المحلية ، وانتخب بعد ذلك امينا لفرع الحزب الاشتراكي • وكان غرامشي يعطي دروسا ليعول نفسه بينما يدرس • وكان يقرأ مجلات وصحف من كل اتجاه ، وتعرف الى مؤلفات ماركس ، واسهم في الكتابة لصحيفة صغيرة في ايدوماجيوري ، غير بعيد عن غيلارزا • وحصل على شهادة المدرسة الثانوية في عام ١٩١١ ، وفكر في المنافسة على واحدة من المنح المقدمة من كلية كارلو البرتوفي تورينو للطلبة الفقراء من اقاليم سردينيا • وكانت المنحة تتكون من ٧٠ ليرة شهريا لمدة عشرة اشهر من السنة • وسافر الى تورينو ، وفي شهر اكتوبر (تشرين الاول) شارك في المسابقة مع عدد آخر من الشبان ، الذين كان واحدا منهم بالميرو توليياتي • وفاز بواحدة من المنح المقدمة، كما فاز توليياتي الذي جاء الثاني في الترتيب • وفي تورينو ذهب للعيش مع انجيلو تاسكا ، وهو من الزعماء الشبان لحركة الشبيبة الاشتراكية ، والتحق بكلية الآداب • ورغم انه كان يعاني من انهيار عصبي حاد ، فانه خاض عدة امتحانات محققا نتائج طيبة ، وحضر مناهج دراسية عدة ، وتابع الحياة السياسية في سردينيا عن كثب ، وخاصة خلال العطلة الصيفية • واقترب اكثر واكثر الى الاشتراكية ، ويحتمل ان يكون قد التحق بفرع تورينو الاشتراكي قرب نهاية عام ١٩١٣ • وفي هذه الفترة كان غرامشي يقرأ صحيفة الحقيقة La Voce ، التي كان يصدرها بريتزوليني ،وصحيفة الوحدة L'Unita ، التي كان يصدرها سالفيميني ، بصفة

مستمرة ، وقد ايد ترشيح سالفيميني لعضوية البرلمان في دائرة تورينو • وقد شرح هو نفسه معنى هذا التأييد في صفحة من مقاله بعض موضوعات حول مسالة الجنوب (الايطالي) :

« عندما بقيت ـ في عام ١٩١٤ ـ الدائرة الرابعة ـ خالية بسبب وفاة بيالدي غاي واثيرت مسألة المرشح الجديد ، اشاعت في الجو مجموعة من الفرع الاشتراكي ، التي كان ينتمي اليها الاشخاص الذين اصبحوا مستقبلا محرري النظام الجديد ، مشروع تقديم غايتانو سالفيميني كمرشح • وكان سالفيميني عندئذ اكثر الناطقين باسم جماهير الفلاحين في ميتزوجيورنو راديكالية • وكان خارج الحزب الاشتراكي، وفي الحقيقة انه شن حملة بالغة الحيوية والخطورة ضد الحزب الاشتراكي في بياناته ، وجعلت اتهاماته جماهير الجنوب تكره ، ليس فقط سكان المدن المحيطة ، بل ايضا البروليتاريا الصناعية ككل • (كان كثير من الاعيرة النارية التي اطلقها الحرس الملكي في ايام ١٩ و ٢٠ و ٢١ و ٢٢ ضد العمال مصنوعة من الرصاص نفسه الذي استخدم في طبع مقالات سالفيميني •) ومع ذلك فان هذه المجموعة في تورينو ارادت ان تصدر بيانا بتأييد سالفيميني • وقد فسر هذا لسالفيميني نفسه الرفيق اوتافيو باستوري ، الذي ذهب الى فلورنسا للحصول على موافقته على الترشيح ••• ان عمال تورينو يريدون انتخاب نائب لفلاحي ابوليا ••• ان عمال تورينو يعرفون انه في الانتخابات العامة لعام ١٩١٣ ايدت

الاغلبية الساحقة من فلاحي منطقتي مولفيتا وبيتونتو سالفيميني ، وقد منع ضغط حكومة جيوليتي الاداري وعنف عصابة « المازييري »(١) والبوليس فلاحي منطقة ابوليا من التعبير عن أنفسهم • ولا يريد عمال تورين ان يطلبوا تعهدات من أي نوع من سالفيميني ، لا بالطاعة الحزبية ، ولا البرنامجية ولا البرلمانية • فما ان يتم انتخاب سالفيميني حتى سيكون مسئولا امام فلاحي ابوليا ، وليس امام عمال تورينو، الذين سينظمون دعاياتهم الانتخابية وفقا لمبادئهم ولن يلتزموا بأي حال بنشاط سالفيميني السياسي ••• ولم يقبل سالفيميني الترشيح مهما يمكن ان يكون قد بلغه مبلغ اهتزازه وتأثره بالاقتراح • »

وفي أكتوبر (تشرين الاول) عام ١٩١٤ تدخل غرامشي في المناقشة التي كانت مثارة داخل الحزب الاشتراكي حول الموقف الواجب اتخاذه فيما يتعلق بالحرب العالمية الاولى • وقد وقع على مقال بعنوان **الحياد الايجابي والفعال** ، ونشر في ٣١ أكتوبر في أعمدة **صحيفة الشعب** Il Gridé del Popolo • وقد تحالف غرامشي ـ في الجدال مع اولئك الذين قدموا اطروحة الحياد المطلق ـ مع الذين

---

(١) العصابات المحلية ومفشلي الاضرابات التي كانت تستخدمها النوائر الحاكمة المحلية ضد التنظيمات الفلاحية ولمنع الفلاحين من التصويت ضد مرشحي الحكومة •

كانوا يأملون في موقف اكثر حسما ونشاطـــــا من جانـب الاشتراكيين الايطاليين ، على اساس مواقف مماثلة للغايـــة لتلك التي كان يعتنقها موسوليني عندئذ (٢) • وكان هـــذا المقال سببا في اعادة ترديد الاتهامات عن نزعة التدخل ، تلك الاتهامات التي تعرض لها غرامشي طوال حياتـــه كلها ، وبصفة خاصة أثناء االمؤتمر الاشتراكي في عام ١٩٢١ فـي ليغورن •

وفي الوقت نفسه كان لا يزال « يتعرض بصفة دوريـــة لنوبات عصبية كانت تمنعه من متابعة دراساته بما تتطلبه من نشاط • » ولكنه لم يتخل عن مناهجه الجامعـــية واستمر ـ بصورة متفرقة ـ في دخول بعض الامتحانات • وكان آخر امتحان دخله في الادب الايطالي في يوم ١٢ أبريل (نيسان) عام ١٩١٥ • وبعد أكثر قليلا من شهر واحد من ذلك تخلت ايطاليا عن حيادها ودخلت الحرب الى جانب الحلفاء • وفي الخريف بدأ غرامشي مرة أخرى يسهم في الكتابة في صحيفة صيحة الشعب او انضم ـ في الوقت نفسه تقريبا ـ الى هيئة تحرير الطليعة في تورينو • وكان نشاطه مذهلا • وتميـــز عموده بين شقي الرحى Sotto la Mole في اسبوعية تورينو

---

(٢) كان موسوليني في ذلك الوقت لا يزال في الحزب الاشتراكي• وقد بدأ ـ في سلسلة مقالات تهاجم موقف الاشتراكيين ـ ينتقل نحو نزعة تدخل نشطة وانشقاق عن الحزب •

الاشتراكية في مجال الصحافة البروليتارية بدقة أحكامه وعنف المجادلة في حججه · وبينما استمر في القاء المحاضرات (حول الثورة الفرنسية وماركس وروماں رولان) حرر ـ وحده تماما ـ **مدينة المستقبل** La Città Futura وهي نشرة خاصة باتحاد الشبيبة الاشتراكية في بييدمونت في فبراير (شباط) عام ١٩١٧ ·

ولقد أحس غرامشي بأهمية شخص لينين في الاحداث الروسية ، وبعد انتفاضة أغسطس (آب) التي قام بها العمال في تورينو ، التي نشأت عن ارتفاع نفقات المعيشة ونقص الخبز واستمرار الحرب ، وبسبب اعتقال كثير من القياديين الاشتراكيين ، أصبح الامين الفعلي لفرع تورينو الاشتراكي ورئيسا لتحرير **صحيفة الشعب** ·

وفي نوفمبر (تشرين الثاني) في فلورنسا شارك غرامشي في اجتماع سري « للجناح الثوري العنيد » حيث كان من الحاضرين ايضا ج·م· سيراتي وأ· بورديغا وآخرون · وعندما عاد الى تورينو انضم بنشاط الى مجموعة من الشباب في تأسيس « نادي الحياة الاخلاقية » ، بغرض تأكيد الحاجة الى الثقافة في النشاط السياسي والثوري · ويرجع اول مقال كتبه غرامشي لينشره سيراتي في الطبعة القومية من **الطليعة** الى يوم ٢٤ ديسمبر (كانون الاول) · وكانت تحمل عنوان **الثورة على « رأس المال »** La Rivoluzione contre il « Capitale » وقد احدثت تأثيرا

قويا لانها اكدت ان الثورة البلشفية قد انتصرت في روسيا رغم كل الخطاطيات الماركسية · وداخل الحزب الاشتراكي واصل الاصلاحيون حربهم عليه · واتهمه كلوديو تريفيس بـ « نزعة ارادية » و « برغسونية » ، ورد غرامشي بمناقشة بالغة الحيوية ·

وقد كتب في وقت لاحق ، خلال السنوات التي قضاها في السجن ، « لقد اتهمت حركة تورين في الوقت نفسها بأنها « عفوية » و « ارادية » او برغسونية (!) · وهذا الاتهام المتناقض ما ان يحلل حتى يكشف عن خصوبة ودقة القيادة التي كانت لهذه الحركة · فلم تكن هذه القيادة « مجردة » · فهي لم تقم على مجرد الترديد الآلي لبعض صيغ علمية او نظرية ، ولم تكن تخلط بين السياسة والعمل الحقيقي وبين القضايا النظرية · كانت تتوجه نحو اناس حقيقيين ، اناس تشكلوا خلال علاقات تاريخية معينة ، ذوي مشاعر خاصة ، وطرق معينة في النظر الى الاشياء واجزاء من تصورات عن العالم ، الخ ، وهي كلها نتيجة ترابطات « عفوية » لبيئة معينة من الانتاج المادي ، مع تكتل «عرضي» فيها من عناصر اجتماعية متفرقة · ولم يكن عنصر « العفوية» هذا مهملا فضلا عن ان يكون محتقرا : انما كان معلما ، كان موجها ، وكان منقى من كل شيء دخيل يمكن ان يلوثه ،ليجعله متجانسا ، وانما بطريقة حية ، كافيا تاريخيا ، مع نظرية حديثة ···» وقد انتهى ببصيرة رائعة الى ان : « هذه الوحدة من « العضوية » و « التوجيه الواعي » ، اي ، « الانضباط »

هي بالتحديد الفعل السياسي الحقيقي للطبقات الخاضعة ،الى حد انها سياسة جماهيرية وليست مجرد مغادرة مجموعات تدعي علاقة بالجماهير » ٠

توقفت صحيفة الشعب عن الصدور في اكتوبر (تشرين الاول) عام ١٩١٨ حتى تفسح المجال امام نشر طبعة لتورينو من الطليعة ٠ وقد أسهم غرامشي نفسه، وتولياتي، والفونسو وليونيتي وغيرهم ، في هذه الطبعة كتـواب رئيس تحرير ، بينما عين اوتافيو باستوري رئيسا للتحرير ٠ وبعد اسابيع قليلة من ذلك اسس اماديو بورديغا صحيفة المجلس المحلي (السوفيات Il Soviet) في نابولي وحولها التف جميع اعضاء « الجناح الممتنع » في الحزب الاشتراكي ، وهم جميع اولئك الذين كانوا يريدون الامتناع ـ على اكمل وجه ـ عن المشاركة في الانتخابات الوطنية والمحلية ٠ وقد تحلق حول المجلس المحلي ، وفي وقت لاحق حول النظام الجديد ، جميع اولئك الذين اسسوا فيما بعد الحزب الشيوعي ٠

لم يكن تأسيس هذه الصحيفة الجديدة ـ النظام الجديد ـ امرا هينا بأي حال ٠ وكان غرامشي وتاسكـا وتولياتي وتيراشيني يتولون امرها ٠ ونجح تاسكا في ايجاد المـال اللازم لبداية النشر (٦ آلاف ليرة) ٠ وظهر العدد الاول من النظام الجديد ـ حاملا عنوانا فرعيا « مجلة اسبوعية للثقافة الاشتراكية » ـ يوم اول مايو (أيار) عام ١٩١٩ ٠ وقد قام غرامشي بعمل سكرتير مجلس التحرير ، وكان ـ عمليـا ـ

مديرا للتحرير . وقد حملت المجلة شعار : « ادرس لاننـــا سنحتاج الى كل ذكائك . حرض لاننا سنحتاج الى حماسك . نظم لاننا سنحتاج الى كل قوتك » . وكان توزيعها مرموقـــا حتى وان كان قاصرا بصورة تكاد تكون شبه كاملة علـــى بييدمونت . وكانت الصحيفة مفتوحة لاسهامات عديدة مـــن الكتاب الاشتراكيين الاجانب ، وقد اشارت بالفعل الى اللجان الداخلية (٣) بوصفها « مؤسسات السلطة البروليتارية » .

وقد نشرت **النظام الجديد** عديدا من المقالات البرنامجية المنقولة من صحيفة بروديغا **المجلس المحلي** ، مثل « برنامـــج الجناح الشيوعي » ، وهو الجناح الذي كان قد تكون لاول‌مرة كحضور مستقل داخل الحزب . واخذت صحيفة **النظام الجديد** توزع على نطاق اكثر واكثر اتساعا، وأصبحت اكثر واكثر نفوذا ، وشكا غرامشي ـ مازحا ـ وهو الذي زادت شعبيته بين عمال تورينو ـ من هذه الشعبية على صفحات الجريدة : « غرامشي ، غرامشي ، غرامشي » من هو هذا ، الخ ، الخ . لقد احاطت بغرامشي اكاليل كثيرة جدا حتى سقط فريســـة

---

(٣) كانت هذه اللجان الداخلية شبيهة بلجان صبيان المحال التي ظهرت في بريطانيا اثناء الحرب العالمية الاولى . ويرجع تاريـــخ النضال من أجل اقامتها والاعتراف بها الى السنوات الاولى من القرن العشرين .

نوبة اكتئاب : انه يخشى ان يتحول الـى معبود ·· كثيرون جدا لا يزالون يمارسون تلك العادة السيئة ·· عادة الواجهة الايديولوجية ، العادة المرهبية ، عادة عدم بذل الجهد الضئيل من التحرر الروحي اللازم لرؤية الافكار منفصلة عن الرجال·· ان غرامشي لا يريد ان يتحول الى معبود ولا هو يريد ان ينصب حبرا : فهو اصغـــر من ان يستسلم لوظيفة البابـا الزخرفية التدجيلية وهو في الحقيقة لا يريـــد ان يصبـــح معبودا » ·

وفي اكتوبر (تشرين الاول) مـــن العام نفسه ناقش مؤتمر الحزب الاشتراكي في مدينة بولونيا الانضمــام الـــى الاممية الشيوعية · واقترع غرامشي الى جانـــب سيراتـي الذي حاز على اغلبية المؤتمر · وفي تلك الفتـــرة كانـت صحيفة **النظام الجديد** تؤيد بقوة مبدأ تكوين مجالس مصانع · وكانت هذه المعركة التي ميزت اكثر من غيرها طابع الصحيفة خلال الشهور التالية · وقد وافق فرع تورينو من اتحـــاد مستخدمي وعمال التعدين على هذا المبدأ ، وعين لجنـــة لدراسة الموضوع ، ودفع غرفة العمل الى الموافقة بدوره على قرار لصالح مجالس المصانع · وقد نوقشت هذه المبادرة على نطاق واسع في الصحافة الاشتراكية مـــن وجهات نظـــر متصارعة · وقد ناضل غرامشي بقوة جدالية لا تكل ، ولكنه ظل جلي التفكير حتى مع عنف حججه : « لقد تعين علينا ان نفعل كل شيء بانفسنا ، بقوتنا ، بصبرنا : ان الجيل الحالي

من الاشتراكيين الايطاليين هو ابن نفسه » ٠

استعدت بروليتاريا تورينو للصراع ٠ وفي نهاية مـارس (آذار) عام ١٩٢٠ فرض رجال الصناعة اغلاق مصانـــع التعدين ٠ وأعلن اضراب عام عن العمل ، ولكن عمال تورينو ظلوا معزولين لان الحركة لم تنتشر على نطاق البلد كلـه ٠ وبعد ١٠ أيام فاز رجال الصناعة واعادوا فتح مصانعهم تحت شروط فرضوها بأنفسهم ٠ ولم يكن اضراب نيسان ـ الـــذي ايدته كل مجموعة **النظام الجديد** ـ يحظى بتأييد قيادة الحزب الاشتراكي ولا تأييد الاتحاد العام للعمــــال ٠ فانتهى الى الهزيمة ٠ ولكن بدا ان صحيفة غرامشي تجد طاقة جديدة ٠ فقد نشرت **النظام الجديد** مقالا افتتاحيا هاما ، نقحه غرامشي بنفسه : **نحو تجديد الحزب الاشتراكي** ٠ وكــــان وثيقـــة أساسية ، كما اعلن لينين نفسه فيما بعد ، ولكن الحـــزب الاشتراكي تجاهله ٠ ومرة اخرى كان غرامشي في اشـــد حالات جلائه الفكري :

كتب في هذه الوثيقة يقول : « ان المرحلة الحالية مـــن الصراع الطبقي في ايطاليا هي المرحلة التي تسبق : اما غزو السلطة السياسية من جانب البروليتاريا الثورية من اجـــل الانتقال الى انماط جديدة من الانتاج وانماط جديدة مـــن التوزيع تسمح بانتعاش الانتاجية ، او رد فعل هائل من جانب الطبقة المالكة والفريق الحاكم ٠ ولن يدخر اي عنف في سبيل

خفض البروليتاريا الصناعية والزراعية الى مستوى العمل العبودي • فلسوف يحاولون ان يحطموا بلا رحمة اجهزة الصراع السياسي لدى الطبقة العاملة (الحزب الاشتراكي) وتفكيك اجهزة مقاومتها الاقتصادية (النقابات والتعاونيات) داخل اطار ميكانيزم الدولة البورجوازية » •

واضاف غرامشي قائلا :

« وقد بقي الحزب الاشتراكي ، حتى بعد مؤتمر بولونيا، مجرد حزب برلماني ، يحتفظ بنفسه في حالة انعدام حركته في اطار الحدود الضيقة للديمقراطية البورجوازية ، وهي التي لا تهتم الا بالبيانات السياسية السطحية للفريق الحاكم ••• ولا بد ان يكتسب الحزب هويته المتميزة والدقيقة • فمن حزب بورجوازي صغير برلماني ينبغي ان يصبح حزب البروليتاريا الثورية الذي يناضل من أجل مجيء مجتمع شيوعي من خلال دولة العمال • ينبغي ان يكون حزبا متماسكا متجانسا بمذهبه الخاص ، وتكتيكاته الخاصة ، وانضباط صارم لا يتزعزع ، أما اولئك الذين ليسوا شيوعيين ثوريين فينبغي استبعادهم من الحزب • وينبغي للقيادة ـ بعد ان تحرر الانشغال بالمحافظة على الوحدة والتوازن بين الاتجاهات المختلفة ، والقادة المتباينين ـ ان توجه كل طاقتها نحو اعادة تنظيم قوى الطبقة العاملة على أساس حربي » •

أثناء هذه الفترة نفسها ذهب غرامشي الى فلورنسا

للمشاركة كمراقب في مؤتمر جناح الشيوعيين الممتنعين من بورديغا • وبينما واصل غرامشي ـ من ناحية اولى ـ نضاله ضد مواقف الامتناع الخالص والبسيط ، فانه من ناحية اخرى مضى الى أقصى حد في اختلافه ، الذي كان يتطور منذ فترة من الوقت ، مع تاسكا حول الوظيفة التي يتعين على مجالس المصانع اداؤها • فقد كان تاسكا يعتقد ان هـــذه المجــالس ليس لها الا دور نقابي فحسب ولا ينبغي ان تصبح مركــزا لتنظيم سياسي ثوري •

وفي المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية ، من التاسع عشر من يوليو (تموز) الى السابع من أغسطس (آب) ـ وهـو المؤتمر الذي حدد الشروط الدقيقة لضم الاحزاب الى عضوية الاممية (فيما يعرف بالنقاط الاحدى والعشرين) طلب لينين من الحزب الشيوعي الايطالي ان يطرد جميع الاصلاحيين من الحزب • وأضاف : « فيما يتعلق بالحزب الاشتراكي الايطالي، يعتبر المؤتمر الثاني للاممية الثالثة صحيحا بصورة جوهرية نقد الحزب والاقتراحات العملية التي نشرت كقرارات للمجلس القومي للحزب الاشتراكي الايطالي ، باسم فرع تورينو مـن الحزب نفسه في صحيفة **النظام الجديد** يوم ٨ مايو (أيـار) ١٩٢٠ • فهي تتطابق تماما مع كل المباديء الاساسية للاممية الثالثة • ومن ثم فان المؤتمر الثاني للاممية الثالثة يطالـب الحزب الاشتراكي الايطالي بعقد مؤتمر طاريء للحزب لفحص هذه المقترحات ، وكذلك جميع قرارات مؤتمري الاممــــيـة

الشيوعية ، لتصحيح خط الحزب ولتطهير الحزب نفسه ، وفوق كل شيء مجموعته البرلمانية وعناصره غير الشيوعية » ٠

في اغسطس (آب) شرع غرامشي في تكوين مجموعة صغيرة لـ « التربية الشيوعية » ، وثيقة الصلة بجناح بورديغا ومعارضة للموقف الذي اتخذه رفيقاه هو ، تولياتي وتيراشيني ، وفي الوقت نفسه طور حججه ضد تاسكا ، فنشر مقالا في **النظام الجديد** كان بمثابة تقييم موسع لعمله هو نفسه (برنامج « **النظام الجديد** ») :

« ماذا كانت **النظام الجديد** في اعدادها الاولى ؟ كانت مختارات ، لا اكثر من مختارات ، كانت مجلة يمكن ان تصدر في نابولي ، في كالتانيسيتا ، في بريينديسي ، كانت مجلة ثقافة مجردة ، معلومات مجردة ، ذات اتجاه لنشر قصص قليلة كريهة وصور ذات معنى واضح ٠ هذا ما كانت **النظام الجديد** في اعدادها الاولى : نتاج غير متماسك لفكرية تافهة ، كانت تخطو بعماء نحو ايديولوجية ونمط عمل » ٠

وهكذا اصبح من الضروري احداث تغيير فوق كل شيء ضد اولئك الذين كانوا يريدون هذا التوجه ويطبقونه ٠

« دبرنا ، تولياتي وأنا ، انقلابا تحريريا ، وطرحتُ بجلاء مشكلة اللجان الداخلية في العدد السابع من المجلة ، وكنت

ـ قبل امسيات قليلة من كتابة المقال ـ قد ناقشت خطة مـــع الرفيق تيراشيني · وقد اعرب عن اتفاقه الكامل مع موقـف المقال النظري والعملي · ونشر المقـــال بموافقة تيراشيني وبالتعاون مع تولياتي ، وما توقعناه حدث : فقد دعونا ـ تولياتي ، تيراشيني ، وأنا ـ الى اجراء مناقشات في الاندية التربوية ، وفي اجتماعات المصنع · ودعونا من جانب اللجان الداخلية للمداولة في اجتماعات محدودة للمتعاطفين مـــع الصحيفة وموزعيها · وواصلنا ، وأصبحت مشكلة تطـــور اللجان الداخلية هي المشكلة الرئيسية ، اصبحت هي «فكرة» **النظام الجديد** ، لقد فرضت باعتبارهــــا المشكلة الرئيسية لثورة الطبقة العاملة ، كانت هي مشكلة « حرية » البروليتاريا وأصبحت **النظام الجديد** ، بالنسبة لنا وبالنسبة لاولئك الذين تبعونا « صحيفة مجالس المصانع » ، أحب العمال **النظـــام الجديد** ··· لانهم وجدوا جزءا مــــــن انفسهم في مقـالات الصحيفة ، الجزء الافضل من أنفسهم » ·

ومرة أخرى كان هناك صراع شامل ـ احتلال المصانع· طوال شهر سبتمبر (أيلول) بأكمله تقريبا خاض عمــــال التعدين المعركة واحتلوا اماكن عملهم بعد ان هدد رجـــال الصناعة باغلاق المصانع او نفذوا هذا الاغـلاق فعـــلا · وانتشر الصراع في جميع انحاء ايطاليا · وقد اتخذت حكومة جيوليتي موقفا محايدا في ظاهره · وثارت آمال كثيرة لدى الطبقة العاملة · وربما كانت تلك هي اللحظة التي طـــال

انتظارها ، لحظة الثورة • وقد حذر غرامشي العمال المحتلين من ان يتوهموا ان احتلال المصانع يمكن بذاته ان يحل جميع المشكلات السياسية التي تفرضها ثورة على الطبقة العاملة •

وعندما انتهت الحركة دون ان تحقق شيئا (بوعد من جيوليتي بتقديم مشروع قانون بمشاركة العمال في الادارة الفنية والادارية للمؤسسات) علق غرامشي قائلا « من المؤكد ان الرجعية الايطالية تزداد قوة وستسعى الى تأكيد ذاتها بعنف في أقرب وقت • الرجعية التي وجدت دائما ، والتي تطيع قوانين تطورها الخاصة ، والتي ستبلغ ذروتها في أبشع ارهاب عرفه التاريخ ابدا •»

ومن المؤكد ان غرامشي قد احس في ذلك الوقت بحدة لم يسبق لها مثيل مأساة البروليتاريا الايطالية • ولكن ذلك القول المأثور لرومان رولان « تفاؤل الارادة وتشاؤم الذكاء »، الذي جعله غرامشي شعارا له ، سانده حتى في تلك الاسابيع المأساوية التي شهدت تجمع العاصفة الفاشية ، «اننا لمقتنعون ، بحماسة تبدو حتى لكثيرين ايمانا اعمى ••• » •

كان هذا هو نوع الحماس الذي به شارك في نهاية شهر نوفمبر (تشرين الثاني) في التأسيس الرسمي للجناح الشيوعي في اجتماع ايمولا • كان الوقت قد حان عندئذ نظرا لاقتراب موعد مؤتمر الحزب الاشتراكي • وفي يوم الرابع والعشرين من ديسمبر (كانون الاول) عام ١٩٢٠ ،

توقفت اسبوعية **النظام الجديد** عن الصدور ، وتحولت ابتداء من أول يناير (كانون الثاني) التالي الى صحيفة يومية للجناح الشيوعي من الحزب • وقد عهد برئاسة تحرير **النظام الجديد** اليومية الى غرامشي ، الذي استخدم هذه المرة كشعار على رأس الصحيفة قولا ماثورا لـ لاسال « ان تقول الحقيقة لهو ثورية » ، وجمع حوله كثيرا من الكتاب القدامى، مثل تولياتي ، وباستوري وليونيتي ، او من العمال الشبان مثل ماريو مونتانيانا • وعهد غرامشي بزاوية النقد المسرحي في الصحيفة اليومية الجديدة الى بييرو جوبيتي ، وهو ليبرالي شاب كان على اتصال وفي مناقشة مع الجيل الصاعد من شيوعيي تورينو ، وبالنسبة لجوبيتي كانت معرفته المشكلات الحقيقية للطبقة العاملة بمثابة الهام وثورة • وقد قال في وقت لاحق عن صحيفة **النظام الجديد** انها كانت «الوثيقة» الوحيدة التي تصدر من ايطاليا للصحافة الماركسية والثورية ، مع بعض الصراحة الايديولوجية :» واضاف ـ في كتابه **الثـورة الليبرالية** La Revoluzione Liberale الذي اعادت نشره دار « ايناودو » (١٩٦٤) :

« كان الخلاف بين **النظام الجديد** وسيراتي في الاساس هو هذا : بالنسبة للصحيفة كان يتعين ان تكون الجبهة المتحدة للعمل البروليتاري في المتاريس الامامية تماما ، اما بالنسبة لسيراتي فكان يتعين ان تكون في المؤخرة • فقد كان سيراتي يعتقد ان الاستيلاء على السلطة هو التتويج لصعود

الجماهير (وهي طوباوية ماتزينية (٤) غير محددة ومجردة)، بينما كان غرامشي يعتقد بصعود الجماهير فقط من خلال غزو السلطة · وقد تبدي التناقض بين هذين التصورين ، احدهما ديمقراطي فحسب ، والثاني ماركسي ، منذ شهر ابريل (نيسان) عام ١٩٢٠ ·»

وفي مقال نشره جوبيتي في ٢٢ أبريل عام ١٩٢٤ وكان يتحدث مباشرة عن غرامشي قال أيضا :

« كان له عقل ثوري ··· اكثر من مناور او مقاتل ، ان غرامشي نبي » ·

وكتب مرة اخرى ، بحدسه الحاذق عن الناس والاشياء ، « انه يملك طيبة المتشائم » ·

في الفترة من الخامس عشر الى الحادي والعشرين من يناير (كانون الثاني) عام ١٩٢١ عقد المؤتمر السابع عشر التاريخي للحزب الاشتراكي الايطالي في ليفورن (٥) ·

---

(٤) نسبة الى الثائر القومي الايطالي جيوسيبي ماتزيني (١٨٠٥ ـ ١٨٧٢) زعيم حركة ايطاليا الفتاة ، وكان جمهوريا على عكس معاصره غاريبالدي الذي كان ملكيا في حركته الوحدوية · «المترجم »

(٥) كان لينين قد دعا منذ وقت طويل الى طرد الاصلاحيين من الحزب الشيوعي الايطالي على أمل كسب اغلبية الحزب لموقف بلشفي· وكان لا يزال يأمل بعد الانشقاق ان يجتذب الحزب الشيوعي الايطالي اغلبية الحزب · وقد اعتبر غرامشي ـ فيما بعد ـ ان الطريقة التي تم بها الانشقاق كانت الانتصار الاكبر للرجعية ·

وقد تحدث في المؤتمر ـ بالاضافة الى ممثلي الاممية الشيوعية الايطاليين ، تحدث تيراشيني وبورديغا وبومباتشي باسم الجناح الشيوعي • وقد ذهبت اغلبية اصوات المؤتمر الى جناح سيراتي الشيوعي الوحدوي (٩٨ر٠٢٨ صوتا) • اما الحركة الشيوعية الخالصة فلم تجمع ـ برغم التأييد الصريح لها من جانب الاممية ـ الا ٥٨ر٧٨٣ صوتا • وذهب ١٤ر٦٩٥ صوتا آخر الى الحركة الاصلاحية • ولم يعتل غرامشي المنصة طوال انعقاد المؤتمر ، ولكن قسما من كلا وفدي الاصلاحيين وسيراتي كان معاديا له ، مذكرا علنا بماضيه التدخلي المزعوم (اشارة الى المقال الذي سبق ذكره « **الحياد الايجابي والفعال** » ، الذي نشر عام ١٩١٤ في **صيحة الشعب** ، وميله المثالي و « الارادي » • وقد ذكر غرامشي ـ في احدى مذكراته من السجن ، المنتشرة الان ضمن مجموعة **الماضي والحاضر** ـ تلك الايام وتلك الاتهامات ، منتهيا فيها الى استنتاجات ذات طبيعة سياسية واخلاقية •

« كان هناك كثير من الغوغائية ضد التدخليين حتى ولو كانوا تدخليين في مرحلة مبكرة جدا ، ولم يكن القرار الذي تقرر به عدم امكان انضمامهم الى الحزب الا وسيلة لابتزاز وترهيب الافراد ، ولم يكن سوى بيان غوغائي • وفي الحقيقة فانه لم يعرقل ضم نيني (وينطبق الشيء نفسه على فرانشيسكو راباتشي) بينما زيف ببساطة الموقف السياسي للحزب الذي ما كان ينبغي ان يجعل نزعة المناهضة للتدخل

ذروة نشاطه ، واستخدم لبث الحقد والاضطهـــاد الشخصي ضد مجموعات بورجوازية صغيرة معينة ··· هذا هو نــوع السياسة التي تتحاشى المشكلة الاساسية ، مشكلة السلطة ، والتي توجه اهتمامـــات وعواطف الجماهير نحو اهـــداف ثانوية · انها تخفي ـ بطريقة تنطوي على نفاق ـ المسؤولية السياسية التاريخية للطبقة الحاكمة ، بينما تحول الغضـــب الشعبي تجاه الادوات الفعلية ـ غير الفطنة غالبا ـ لسياسات الطبقة الحاكمة · لقد واصلت في الاساس سياسة جيوليتي »·

بعد الهزيمة التي تلقاها الشيوعيون في المؤتمر قرروا يوم ٢١ يناير (كانون الثاني) تكوين حزب ايطاليا الشيوعية (الذي اطلق عليه فيما بعد اسم الحزب الشيوعي الايطالي)، فرعا من الاممية الثالثة · ومع ان غرامشي لم يعين عضوا في اللجنة التنفيذية ، الا انه انتخب عضوا في اللجنة المركزية · ولم يدخل اللجنة التنفيذية من مجموعة صحيفة **النظام الجديد** الا تيراشيني : اما اعضاء اللجنة التنفيذية الاخرون فكانــوا كلهم تقريبا ـ بدرجة تزيد او تنقص ـ متفقين على نحـــو وثيق مع بورديغـــا ·

بدأت فترة من المجادلات العنيفة الانقسامية · وكانت هــذه النزعة الانقسامية ممكنة التفسير في المناخ الساخن بعـــد الحرب ، الذي خلقه الانشقاق الاليم في الطبقة العاملة بسبب الانقسام في ليغورن بين القـــوى الاشتراكية والشيوعية ، وبفعل الترهيب العنيف الذي كان ينفذه الفاشيون بمنطـــق

طبقي واضح ، وهي حملة عنف حظوا فيها بالتأييد السافر من الاجهزة الحكومية واجهزة الدولة باسرها · لم تعد الدولة محايدة في الصراع بين الثورة والرجعية : كان جوليتي قد اختار طريقه وكان قد غير مرة اخرى تكتيكاته واطلق يد العصابات الفاشية بحرية ·

وتركزت مقالات غرامشي على موضوعين · من ناحية أولى ، وفي بعض الاحيان بطريقة مشاغبة غير مسامحة وقاسية ، هاجم الاجهزة النقابية للاتحاد العام للعمال وزعماء الحزب الاشتراكي ، لنزعتهم الاصلاحية ، ومماطلتهم ، ومزاعمهم اللفظية عن سياستهم · ومن ناحية ثانية قدم تحليلا صارما للمضمون الطبقي والتوجيه الطبقي للحركة الفاشية وتلك القوى التي اصبحت الفاشية الناطق بلسانها · كان للفاشية مضمون طبقي ملتبس ومركب ، يستدعي تحليلا مفصلا وسياسات شجاعة ·

وبطبيعة الحال لم يكن هناك افتقار الى المجادلات الشخصية ، والشتائم البشعة ، والانتقام ، والتهجمات المتسمة بالصغر · وكان على غرامشي غالبا ان يدافع عن نفسه ، ان يشن هجوما مضادا · وقد كتب في مقالاته ، التي نشرها غالبا بلا توقيع في أعمدة صحيفة **النظام الجديد** على سبيل المثال :

« ليس لدينا ما نأسف عليه من ماضينا : ان لدينا

وعيا دقيقا باننا لم نرتكب ابدا حتى ابسط عمل يمكن ان يسبب أقل ايذاء للطبقة العاملة · ويكفي ان عمال تورينو يعرفون ان الرفيق غرامشي متهم حتى بانه كان قائد فرقة الشجعان (الارديتي) (٦) . بحيث يمكنهم ان يفهموا الى اي درجة من الانحدار والغباء انساق الاصلاحيون وراء غضبهم · ان الحزب الشيوعي ، وهو الحكم القدير الوحيد ، سيقرر ما يتعلق بكرامتنا ومسلكنا ·»

بل غالبا ما اتخذت هذه المقالات لهجة شخصية اكثر حتى من هذا · « لقد بعث مراسل **الطليعة** بهذه القطعة المثيرة من الانباء الى صحيفته · لقد صاحت غالبية جمعية مندوبي المحال ومجموعات المصانع الثورية في وجه الرفيق غرامشي « الخائن » ··· ولو كان مراسل **الطليعة** قد حضر الجمعية لكان قد رأى المشهد التالي بعيني رأسه : وحدة اولئك الحاضرين ، وبينهم كان كثير من الفوضويين · لقد وافقت الجمعية بالاجماع (فيما عدا اثنين او ثلاثة او ربما

---

(٦) Arditi (معناها الحرفي الشجعان) كانت مجموعة خاصة من قوات الصاعقة في الجيش الايطالي · وكانت مجموعة تتمتع بامتيازات ووجدت من المستحيل العودة الى الحياة العادية بعد الحرب · وكانت عقيدة اعضائها تمجيد القوة والموت ، واصبحت هذه العقيدة شريعة فصائل العمل الفاشية · كذلك اخذ الفاشيون عنهم زيهم الموحد الاسود ، القمصان السود ·

اربعة اصوات) على وجهة النظـــر التي دعمها الرفيـــق غرامشي • ويبدو ان شخصا واحدا ، وشخصا واحدا فقـط قد صاح « الخائن » • وحتى لو كانت الاغلبية في الحقيقة ـ وليس شخصا واحدا ـ قد صاحت بها ، فان هذا بالنسبـــة الينا نحن الشيوعيين كان من شأنه ان يكون مهما من الناحية السياسية بالقدر الذي به تكون للصيحة قيمة عرض مـــن اعراض حالة ذهنية • وما كان يمكن ان تهم على اي نحـو آخـــر •••»

وحينما يقرأ هذا المقــال من جديد بعد سنوات عديـــدة فانـــه يشهد على ارادة غرامشي استخراج درس سياسي ، وليس درسا شخصيا من الوقائع ، بمعنى الوصول الى لـــب المسألة ، ورفع ملاحظاته الشخصية والاخلاقية الى مستـوى مناقشة تربوية سياسية • والحقيقة ان الملاحظة المقتضبـــة تمضي على هذا النحو :

« لسنا ديماغوغيين ، مثل دعاة النزعة المتطرفة التائبين ولسنا نتطلع الى شعبية ماسانييللو (٧) ، التي يتطلع اليها كثيرون ، كثيرون جدا من الشيوعيين الوحدويين السابقين • لقد واصل الشيوعيون في جمعية مندوبي المحال تأييد الموقف

---

(٧) Tomasso A. Masaniello (١٦٢٢ ـ١٦٤٧) تـــوري نابوليتاني •

القائل بأنه في الفترة التاريخية الراهنة كل حركة قادرة على ان تتحول الى حركة ثورية • ولهذا فان الشيوعيين على وجه التحديد (وفي الماضي ايضا اصحاب النزعة المتطرفة ، الذين اصبحوا اليوم تائبين متحسرين) هم الذين يقولون ان الفترة الحالية ثورية •

« لم يقل الشيوعيون ابدا ان الثورة مجرد مسألة ارادة : ان تحويل حزب ، وطرد الاصلاحيين ، والبقاء على الولاء للاممية ـ هذه مسائل ارادة، اما الثورة فلا •••»

وسط هذه الهجمات وقعت حادثتان على درجة كبيرة من الاهمية في حياة غرامشي • فأثناء الانتخابات العامة في شهر مايو (ايار) من ذلك العام ، وعلى الرغم من ان غرامشي كان قد اختير مرشحا لاقليم تورينو من جانب الحزب الشيوعي ، فانه لم ينتخب • وفي تلك الاسابيع نفسها يبدو أنه حاول ان ينظم اجتماعا مع غابرييل داتونزيو في غاردوني ، ولكن الاجتماع لم يعقد ابدا ، لاسباب لا تزال غير واضحة • واستمرت الهجمات الشخصية من جانب الاشتراكيين بصورة أشد قسوة ، وكان عليه ان يدافع عن نفسه في أعمدة صحيفته اليومية او صحيفة شيوعية اخرى • والفقرة التالية من مقاله المطرقة والمنجل •

« ردا على كل القصص الصغيرة التي يبثها الاصلاحيون من حوله ، يجيب الرفيق غرامشي بهدوء : لقد

انضممت الى مجلس تحرير **الطليعة** في العاشر من ديسمبر (كانون الاول) عام ١٩١٠ ، وكنت محررا في **الطليعة** بلا انقطاع من ١٠ ديسمبر ١٩١٥ الى ٣١ ديسمبر عام ١٩٢٠ ، اي لخمس سنوات وعشرين يوما ، ومن بين مئات والاف المقالات الافتتاحية والمقالات الجديدة والتعليقات ومقالات النقد المسرحي التي كتبتها لـ **الطليعة** لم يرفض شيء . في الحقيقة كان سيراتي سجينا في تورينو ، وقد غضب من ستورتشي ، الذي كان رئيسا للحزب في ميلانو آنذاك ، لانه لم يضع بعض المقالات التي كنت قد أرسلتها الى قسم الاخبار في تورينو على الصفحة الاولى . لقد انضممت الى **الطليعة** في وقت كان الحزب الاشتراكي يلفظ انفاسه الاخيرة ، وكان كل اولئك القادرين على الكتابة يهربون ويتنصلون من الحزب . انضممت الى **الطليعة** بحرية ، عن اقتناع . وكنت قد عينت في أوائل شهر ديسمبر (كانون الاول) عام ١٩١٥ ناظرا لمدرسة قواعد اللغة في اولكس بمعاش شهري قيمته ٢٥٠٠ ليرة مع ثلاثة اشهر اجازة . وفي العاشر من ديسمبر التحقت ـ بدلا من ذلك ـ بوظيفة في **الطليعة** بمعاش شهري قيمته ٩٠ ليرة شهريا ، اي ١٠٨٠ ليرة سنويا . لقد كان باستطاعتي ان اختار : اذا اخترت **الطليعة** و ٩٠ ليرة شهريا والاخطار التي كانت ترتبط آنئذ بالعمل لصحيفة اشتراكية ، اذا فضلت **الطليعة** على منصب ناظر المدرسة في اوبكس بمعاش ٢٥٠٠ ليرة وإجازتها التي تمتد لثلاثة اشهر وهدوئها ، فانني املك بالتأكيد الحق في ان اقرر انني كنت

اسلك بايمان واقتناع عميقين · لقد اصبحت سكرتيرا للفرع الاشتراكي مباشرة بعد احداث شهر أغسطس (آب) عام ١٩١٧ · وفي الوقت نفسه ، ولان ماريا جيوديشي كانت سجينة ، توليت رئاسة تحرير **صيحة الشعب** دون اجر (كنت احصل من **الطليعة** على ١٥٠ ليرة شهريا بعد ان ظللت احصل على ٩٠ ليرة شهريا لنحو عام) · وفي نوفمبر (تشرين الثاني) عام ١٩١٧ ، بعد كابوريتو ، اوفدني الفرع الى الاجتماع السري للجناح المتطرف الذي عقد في فلورنسا · لكل هذا اعتقد اني املك الحق في ان اقرر ان ماريو غوارنييري ، عندما ينشر قائلا ان احدا خلال الفترة ١٩١٤ ـ ١٩١٥ من السنوات التالية لم يستطع ان يميزني من اعداء الحزب الاشتراكي ، فانني اعتقد انني املك الحق في ان اقرر ان السيد ماريو غوارنييري وغد تماما ، وانه كذاب اشر وبالكامل ··· » ·

في الاشهر الاخيرة من عام ١٩٢١ والاشهر الاولى من السنة التالية كان غرامشي ورفاقه مشغولين بالنشاط السياسي الكثيف والاعداد الايديولوجي · وكان بورديغا قد اتم فرض قبضته بحزم على التنظيم المركزي للحزب وفرض شخصيته المتطرسة والجامدة عليه · وفي ذلك الوقت لم يكن تولياتي وتيراشيني بعيدين جدا عن افكاره ومواقفه · ويبدا أن غرامشي يتفق معهم في جانب كبير ، ولكنه في الواقع كان يتباعد عنهم باطراد ، وكان قلقا فقط على امكانية خلق دعوة جديدة جادة داخل جهاز الحزب · والى جانب هذا لم

يكن الوقت قد حان بعد لـ « تمرد صريح كان من شأنه الا يفهم والا يتبعه اعضاء الحزب او البروليتاريا · ذلك كان المناخ الذي تم فيه الاعداد للمؤتمر الثاني للحزب الشيوعي · وقد كان اول مؤتمر ، اذا استثنينا ذلك الذي عقد في ليغورن ـ يجعل هدفه الاوحد تأسيس الحزب الجديد ومده بلجنة تنفيذية · وقد عقد المؤتمر الثاني في روما من العشرين الى الرابع والعشرين من شهر مارس (آذار) عام ١٩٢٢ · وقد وافقت اغلبية كبيرة على ما أسمي « اطروحات روما » ـ ذات الايعاز البورديغي ـ التي رفضت بصورة قطعية (دوجماطيقية) أي اتفاق او تحالف مع احزاب اليسار الايطالي الاخرى ، فقد حصلت على تأييد اكثر من ٣٠ الف صوت مقابل معارضة ٥ آلاف صوت لها · وقد تحدث غرامشي ـ مع تاسكا ـ عن مسألة النقابات العمالية ، وناضل لجعل الحزب يقبل تكتيك « الجبهة المتحدة » التي كان يمكن ادانتها من زاوية النظر السياسية كاتفاق بين الاحزاب ، ويمكن تنفيذها على صعيد النقابات العمالية · ولم تقبل مقترحاته · ومع ذلك فقد عين غرامشي لتمثيل الحزب في اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية في موسكو · وقد سافر في شهر مايو (ايار) وهو في حالة صحية سيئة ·

خلال هذه الفترة نضجت مفاهيم غرامشي السياسية بدرجة كبيرة · لم تعد رؤيته قومية ، ناهيك عن المحلية والاقليمية ، كما كانت عندما كان يعيش في ساردينيا ·

واصبحت مشكلات الطبقة العاملة الايطالية اوضح لـــه في ضوء الاحداث الدولية والوضع الدولي · وقد برهنت التجربة البلشفية على أنها حاسمة في تكوينه وكذلك في التأييد المباشر وغير المباشر الذي لقيه نشاطه بعد ذلك من اجهزة الاممية الشيوعية بعد عودته الى ايطاليا ، وفي موسكو اصبح عضوا في اللجنة التنفيذية للاممية ، ولكن حالته الصحية تدهورت سريعا الى حد اجبره على ان يدخل احدى المصحات · وهناك قابل جوليا شوخت ،-زوجته مستقبلا · ومع ذلك فانه ظـــل على اتصال بزعماء الاممية وزعماء الحكومة البلشفيـــة ، وحتى فيما يتعلق بمشكلات كانت تبدو ثانوية ، كما حـــدث عندما كتب صفحات قليلة من المذكرات والملاحظـــات عـــن النزعة المستقبلية Futurism لتروتسكي ·

في هذا الوقت كان الموقف في ايطاليا قد بلغ اوج أزمته · فبعد ان زحف الفاشيون على روما في الثامن والعشريـــن من اكتوبر (تشرين الاول) عام ١٩٢٢ ، استولـــوا علـــى السلطة · وفجأة تبدلت المنظورات تبدلا جذريـــا بالنسبـــة لاحزاب الطبقة العاملة · هكذا كان حتى ان ما كان يخشى منه على انه اسوأ الشرور (اتفـــاق بيـــن الشيوعييـــن والاشتراكيين او اندماج مباشر بينهم) بدا عندئـــذ امـــرا مرغوبا فيه · وبدأت اللجنة المشتركة للوحدة ، التي شكلهـــا الشيوعيون والاشتراكيون ، عملها في جو من عـــدم الثقـــة والشك المتبادل ، بسبب العداء الجلي للمشروع من جانـــب غالبية زعماء الحزب الشيوعي ، الذين سلموا في بدايـــة

المفاوضات بروح من الانضباط تجاه الاممية ، الى حد كبير ·
وقد تبخر المشروع ليتحول الى هواء ·

وفي الشهور الاولى من عام ١٩٢٣ القى البوليس القبض على معظم زعماء الحزب · وقد أفلت غرامشي لانه كان في موسكو ، الا انه صدر امر باعتقاله ·

وعهد الى تيراشيني بمهمة اعادة تنظيم الحزب ، ودعي الزعماء الجدد العديدون ليصبحوا اعضاء للاجهزة التنفيذية ·

وفي شهري ابريل (نيسان) ومايو (ايار) التاليين وقعت الحادثة الحاسمة في حياة غرامشي السياسية وواحدة من الاحداث الاساسية في تاريخ الحزب الشيوعي الايطالي · واذا كان باستطاعتنا ان نعيد اليوم تكوين هذه الحادثة بقدر كبير من الثقة والتفصيل فذلك بفضل كتاب ألفه بالميرو تولياتي : **تكوين المجموعة التنفيذية للحزب الشيوعي الايطالي في ١٩٢٣ــ١٩٢٤** · (٨) فقد نجح هذا الكتاب

---

(٨) اعادت نشره مع اضافات هامة دار Editori Riuniti في عام ١٩٦٢ ، بعد الطبعة الاولى غير الكاملة لهذا الكتاب التي كانت قد ظهرت في عام ١٩٦٠ في حوليات معهد جيان غياكومو فيلترينيللي ·

في أن يسجل وثائقيا ، شهرا بشهر ، بل يوما بيوم ، ابتعاد غرامشي المطرد عن هذه الاطروحات التي كان يأخذ بهـا بورديغا • وفي البداية كان تيراشيني وتولياتـي ، وهمـا عضوان سابقان من مجموعة النظام الجديد ، قد ايدا بورديغا ولكنهما تخليا عن هذا الموقف واقتربا مـن جديـد الـى غرامشي • وايداه تأييدا كاملا في خلال المعركة السياسيـة التي خاضها من اجل تحويل قيادة الحزب الشيوعي الايطالي واهداف الحزب السياسية • وقد جاء التحرك الاول في هذا الاتجاه على وجه التحديد خلال هذين الشهرين •

لقد نجح بورديغا ـ من سجنه ـ في توصيل وثيقـة الى القيادة ، وكانت شديدة الانتقاد للاممية ، فيما يتعلق ، فوق كل شيء ـ بموقفهـا ازاء مشكلـة الاندمـاج بيـن الاشتراكيين والشيوعيين • وعلى الرغم من ان تيراشينـي وتولياتي وسكوتشيمارو قبلوا الوثيقة فـي البدايـة دون تحفظات جوهرية : الا انها قوبلت بمعارضة حاسمة مـن جانب غرامشي ، الذي لم يكن ليوافق على التوقيع عليهـا • وأثارت هذه الصراعات الداخلية تدخل اللجنـة التنفيذيـة للاممية ، التي فرضت لجنة تنفيذية جديدة علـى الحـزب الشيوعي الايطالي • واجبر الوضع كلا من بورديغا وجريبيشو على الاستقالة من اللجنة المركزية • وعندئذ كـان غرامشي قد اصبح الزعيم غير المنازع للحزب ، تؤيده الاممية تأييـدا صريحا • ولم يعد غرامشي واقعا تحت وطـأة مجموعـة

بورديغا ، واستعاد ثقة الرفاق القدامى مثل تولياتي وتيراشيني ، ومن ثم وضع (٩) الاساس الجديد للحزب ، مقترحا الحاجة الى تحالف عمال الشمال البروليتاريين مع جماهير الجنوب الزراعية ·

وفي الوقت نفسه القى بوليس الدولة الفاشية الجديدة القبض من جديد على زعماء الحزب الذين كانوا في ايطاليا · واسقطت الاتهامات التي كانت موجهة ضد بورديغا في الاستماع التمهيدي وانتهت محاكمة بورديغا والقادة الآخرين بافراج عام وشامل · وفي نهاية العام غادر غرامشي موسكو وانتقل الى فيينا ، لكي يصبح في موقع افضل لمتابعة الاحداث الايطالية عن كثب · وقد بقي على اتصال وثيق مع كثير من قادة الحزب ، وخاصة من خلال الرسائل · ويوجد الآن قسم كبير من الرسائل التي كتبت في تلك الفترة ، ذات الاهمية لفهم تطور فكر غرامشي والتحولات التي جرت داخل الحزب وفي صراعاته السياسية ، يوجد هذا القسم الآن ضمن كتاب تولياتي المذكور آنفا · وقد عمل غرامشي بكل كد ـ رغم سوء حالته الصحية ـ حتى على الرغم من ان تيراشيني يتحدث في تلك الاسابيع بالتحديد عن « القصور الذاتي التقليدي » لدي

---

(٩) في رسالة بتاريخ ١٢ سبتمبر (ايلول) عام١٩٢٣ ، لم تكتشف الا مؤخرا من جديد في السجلات ·

غرامشي · (وقد اكد تيراشيني هذه النقطة مرة اخرى في رسائل لاحقة) ·

خطط غرامشي لسلسلة جديدة من النظام الجديد ولمجلة فصلية (ربع سنوية) للدراسات الماركسية · وكتب الى تيراشيني في يناير (كانون الثاني) عام ١٩٢٤ يقول : « من المؤكد انك رأيت الاقتراح الذي قدمته الى اللجنة التنفيذية بنشر مجلة فصلية في حجم كبير (٢٥٠ـ٣٠٠ صفحة كل ثلاثة اشهر) تحمل اسم النقد البروليتاري Critica Prolitaria واعتقد ان الاقتراح سيقبل وانه يمكن ان ينفذ في غضون اشهر قليلة · وقد ضعت الخطوط العريضة للعدد الاول على النحو التالي :

١ ـ بيان ببرنامج ـ واستطيع ان اكتبه ·

٢ ـ بورديغا : مشكلات التكتيكات البروليتارية ·

٣ ـ غرازياداي : تراكم رأس المال طبقا لروزا لوكسمبورغ ·

٤ ـ تاسكا : مشكلات المدارس والاصلاح العلماني ·

٥ ـ سوتشيمارو : منظورات من اجل حكومة للعمال والفلاحين في ايطاليا ·

٦ ـ لونغوباردي او باستوري : البنية الصناعية الايطالية ·

٧ ـ تيراشيني : برنامج الاممية الشيوعية ٠

٨ ـ توليياتي : مشكلة الفاتيكان ٠

٩ ـ انباء : اقتصادية ، مالية ، سياسية ، عسكرية ، دولية ، نقابية ، عن حياة الطبقة العاملة ٠

١٠ ـ عرض للمراجع (ببليوغرافيا) ٠

يتعين على كتاب المقالات ان يضمنوا مقالاتهم عرضا نقديا للمراجع في أدبيات الموضوع الذي يتناولونه ٠

١١ ـ يوميات سياسية ٠

١٢ ـ قائمة محتويات للمجلات والصحف ٠

في ذلك الوقت كان غرامشي قد قرر ، رغم كل شيء ، تكوين قيادة شيوعية جديدة، والنضال ضد نزعة التطرف التي تتميز بها المواقف البوريغية ٠ ومن المؤكد ان النضال كان واستمر شاقا ٠ « ماذا كان يمكن ان يحدث لو انني لم اناور على النحو الذي تعين علي ـ لسوء الطالع ـ ان افعله ؟ » ٠

في الثاني عشر من فبراير (شباط) ظهر العدد الاول من صحيفة الحزب اليومية بالعنوان الذي اراده غرامشي ، **الوحدة** L'Unità وقد عهد برئاسة التحرير الى الفونسو ليونيتي ٠ وفي الوقت نفسه اعد غرامشي ـ وحده كلية تقريبا ـ العدد الاول من **النظام الجديد** النصف الشهرية

التي صدرت في روما في أول مارس (آذار) التالي • وقد حملت هذا البيان الهام عن أهدافها : « ان النظام الجديد ترمي الى الهام طليعة ثورية بين جماهير العمال والفلاحين ، قادرة على اقامة الشروط لخلق واستقرار مجتمع شيوعي » •
وبعد اسابيع قليلة في رسالة موجهة الى توليياتي ، وجد غرامشي الفرصة لكي يوضح لنفسه ولرفاقه نطاق العمل واهداف الصراع •

« انني اود ان اعرف حكمكما على العددين الاوليين (من النظام الجديد) • لقد أدت العزلة التي وجدت نفسي فيها من اجل الصحيفة لمدة طويلة ، ولا ازال ،الى تبليد حس النقد الذاتي لدي كثيرا جدا ، اذ يبدو احيانا انني افعل اشياء مصطنعة تماما ، منفصلة عن الحياة • وبالاضافة الى هذا يتعين علينا ان نحاول بجدية ان ننظم الاسهامات ، والا فان النظام الجديد ستنحدر حتما • علينا ان نضع في اعتبارنا ان المجلة هي اليوم نصف شهرية وليست اسبوعية ، وانها لا تنتمي لحركة معينة مثل حركة مجالس المصانع في ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ • وهذا يثبت طابعها الراهن ، الذي ينبغي تنظيمه • ولا بد ايضا ان ينعكس طابعها الجديد على ما ينشر • واعتقد ان علينا ان نتبع مقالا افتتاحيا بعرض سياسي مدعم للاسبوعين السابقين ، وهو ما يمكن ان يملأ الصفحة الثالثة، وفيها يمكن التعليق على جميع جوانب الاحداث الايطالية طبقا لبرنامجنا المباشر لحكومة عمال وفلاحين وطبقا لنظريتنا

العامة · واعتقد انه يتعين عليكما ان تحملا عبء هذا العمود الذي ينبغي ان يكون مسايرا لآخر التطورات حتى لحظة طبع المجلة · باستطاعتكما كتابته بصورة جيدة جدا ، اذا اردتما واذا كان لديكما الوقت لذلك ·

« أما الاهداف المحددة للمجلة - في رايي - فينبغي أن تظل هي المصنع وتنظيم المصنع · وباستطاعتكما - اذا قبلتما - ان تنفذا ايديولوجيا وعمليا البرنامج الذي اشرت في رسالتي الاخيرة اليكما اليه · انني اشعر دائما كانني احلق بين السحب · واخشى دائما من ان اكون منفصلا عن الواقع الفعال وانني انما ابني قلاعا في الهواء · لهذا فانني اكون سعيدا لو انكما اطلعتماني باستمرار على حكمكما التحليلي لمقترحاتي وآرائي التي ابلغكما بها ، لا كأوامر وانما كاقتراحات · حقا انني اعول دائما على تأكيداتكما التفصيلية قبل ان آخذها فعلا مأخذ الجد وان اطور كل نتيجة وجانب لها · علينا ان نسعى لان نعيد بين انفسنا بناء بيئة كتلك التي كانت سائدة في فترة ١٩١٩-١٩٢٠ بوسائل نملكها تحت تصرفنا · وقتئذ لم تكن اية مبادرة تتخذ الا اذا كانت قد اختبرت في مواجهة الواقع ، اذا لم نكن - اولا - قد اختبرنا راي العمال بشأنها بعدة سبل · ولهذا فان مبادراتنا كانت تحقق دائما نجاحا واسعا وفوريا ، وكانت تبدو كترجمة لحاجة منتشرة ومحسوسة على نطاق واسع ، وليس ابدا كتطبيق بارد لخطاطة فكرية · انني معتاد على العمل بهذه

الطريقة . وقد منعني غيابي عن ايطاليا كل هذا الوقت الطويل من ان اعتمد على البيئة الجديدة والسبل الجديـــدة فـــي العمل • لقد منعني من ان اخلق لنفسي وسائـــل جديـــدة للاتصال بالجماهير والاحساس بنبضهم الذي استطعتما ان تكتسباه • انني اشعر بضعفي هذا بدرجة من القـوة تهـدم معنوياتي احيانا • »

في النهاية تمكن غرامشي من العودة الى ايطاليا فـــي مايو (ايار) بعد ان انتخب عضوا في مجلس النواب عـــن دائرة تقع في منطقة فينيتو • كان قد ابتعد عن ايطاليا لمدة عامين • وقد تغير الوضع تغيرا عميقا • وخلال تلك الفتـرة عقد المؤتمر القومي الاول للحزب في « كومو » • وقد تمكن غرامشي من المشاركة فيه جنبا الى جنب مع ممثلي اللجنـة المركزية الآخرين وكذلك ممثلي الاتحادات الاقليمية • ولاول مرة ـ صراحة و « رسميا » ـ هاجم خط بورديغا السياسي في مواجهة زعماء التنظيم الشيوعي • وكانت المشكلة مشكلة كبرى وطويلة الامد • لم يكن الصراع قـــد نشب لاسبـــاب شخصية ، عن طموح الى السلطة • ولم يكن سطحيا • وقـد كتب غرامشي في الرسالة التي نقلنا فقرة منهـــا لتونـــا قائلا :

« اما مع اماديو (بورديغا) فان المسألة مختلفة تماما ، واشد وعورة بكثير • وانني لمقتنع بانه عنيد ، بل انني مقتنع

بانه لا يتردد في ان ينشق على الحزب وعن الاممية ولا يعمل جديا ضد معتقداته • ولو لم يكن الامر كذلك ، لو لم اكـــن قد اضمرت هذا الاعتقاد العميق دائما ، لكنت اتخذت موقفـا مختلفا منذ وقت بعيد ، منذ عام ٢١ ••• ان مواقفي ••• لم تنشأ عن فراغ ، وانما استمدت دائما من القلق مما يمكن ان يفعله اماديو لو انني اصبحت ذا نزعة معارضة • اذن لكـان انسحب ، ولسبب هذا ازمة ، ولما ترك نفسه للتوصل الـــى حل وسط • وقد برهنت محاولة شياريني ـ التي ناقشتهـــا في موضوع آخر ـ انه لو انني كنت عارضته لايدتني الاممية• ولكن اية نتائج كانت ستحدث عندئذ ، بينما كان الحـــزب يعاد تنظيمه بصعوبة ، اثناء الحرب الاهلية ، وبينمـا كـــان يتعرض للهجوم باستمرار من جانب **الطليعة** ، التي استغلـت كل شاردة من خلاف بيننا حتى تدمرنا ؟ واليوم فان الموقف لم يتغير فيما يتعلق بمواقفي تجاه موقع أماديو • كذلك فانني اعتقد ان الحزب لا يستطيع المضي دون تعاونه ، ولكن مـــا العمل ؟

ومن الواضح ان الحزب كان يعرف ما ينبغي عمله ، ذلك أن الاغلبية الساحقة من الاتحادات الاقليمية ظلت موالية لخط بورديغا حتى في مؤتمر « كومو » • وكان العمل الـــذي تعين القيام به هائلا • لقد اصبح غرامشي عضوا في اللجنـة التنفيذية للحزب وانتقل الى روما • وفي يوم العاشر مـــن يونيو (حزيران) اختطف جياكومو ماتيوتي واغتيل علـــى

ايدي مجرمين استأجرهم الفاشيون لهذا الغرض • واشترك غرامشي في اجتماع المعارضة في آفنتيني . (١٠) واقترح اضرابا عاما ذا طابع سياسي ، ولكن الاقتراح رفض للتشكك فيه بسبب مجرد حقيقة كونه مقدما من شيوعي • وفي تلك الاثناء غير غرامشي تغييرا جذريا تنظيم الحزب بادخال بنية « الخلية » • ووجه كل سياسة الحزب ، وواصل المناقشة ضد بورديغا بدرجة اشد صرامة • وفي موسكو ـ خلال تلك الفترة ـ وضعت جوليا ابن غرامشي الاول ، وكان صبيا اسموه ديليو •

لم تكن علاقات الشيوعيين مع نواب آفنتيني على احسن ما يرام • فقد رفض ايضا الاقتراح بتكوين معارضة برلمانية (وبعبارة اخرى اعلانه ان البرلمان الوحيد الذي يمثل الامة شرعيا هو برلمان نواب آفنتيني • وقد افاد موسوليني بمهارة من الانقسامات بين اعدائه والمأزق الذي وجدوا انفسهم فيه ، مطوقين على النحو الذي كانوا فيه في نفق مظلم ما كانوا يعرفون كيف يهربون منه •

ذهب غرامشي الى ساردينيا لايام قليلة للمشاركة في

---

(١٠) تجمع معاد للفاشية تألف من النواب الديمقراطيين والاشتراكيين والشيوعيين الذين انسحبوا من البرلمان الايطالي احتجاجا ، ويستمد الاسم من حادثة في التاريخ الروماني •

الدعاية والتنظيمالسياسي وليمضي بعض الوقت مع اسرته ، ومن ثم ذهب الى موسكو • ولكن الاحداث بلغت ذروة اخرى • لقد قرر الشيوعيون التخلي عن المعارضة البرلمانية والعودة الى مجلس النواب • وكان موسوليني قد اثار الرعود في وجه نواب آفنتيني واعلن بداية السيطرة الفاشية الكاملة • وعاد غرامشي الى روما في مايو (ايار) والقى خطابا في مجلس النواب ضد مشروع القرار الخاص بالجمعيات السرية الذي كان قد قدمه موسوليني والفريدو روكو • وقد لقيت خطبته آذانا صاغية تماما ، حتى وان كان الفاشيون ، وموسوليني نفسه ، دأبوا على مقاطعتها باستمرار • وصحت نبوءة غوبيتي : « اذا ما تحدث غرامشي في مونتيسيتريو (١١) فمن المرجح انه سيرى الفاشيين صامتين منهمكين في تدوين الملاحظات لينصتوا الى صوته الرفيع الواهن » •

وكان الصيف مفعما بالاحداث • بلغ الانشقاق مع بورديغا ذروته ، بعد المبادرة التي تقدم بها أنصار بورديغا لخلق جناح يساري داخل الحزب • وبعد مناقشة صريحة مع بورديغا في نابولي في حضور المتصلبين ، وبعد الحصول على موافقة يوليس هوبرت ـ دروز ، ممثل الاممية ، على العملية ، قرر غرامشي حل هذا الجناح • ثم التحقت جوليا

---

(١١) اسم المبنى الذي يجتمع فيه مجلس النواب •

به في روما مع ابنها . وكانت سنة ١٩٢٥ بالنسبة لغرامشي سنة فاصلة بين حياة الاسرة والحزب ، لقد فتش البوليس منزله . وكان عليه ان يعد للمعركة الكبرى للمؤتمر الثالث للحزب . وقد وضع اطروحات المؤتمر التي كان يتعين عليه تقديمها بالتعاون مع تولياتي . وعقد المؤتمر في ليون ـ طلبا للامان ـ في شهر يناير (كانون الثاني)عام ١٩٢٦ . وفي هذه المرة كان الوضع قد انعكس تماما بالمقارنة بالاجتماع السابق ـ السري ـ في كومو . اذ بلغت نسبة الاصوات التي ايدت غرامشي ٨٠ر٩٠٪ بينما اقترعت نسبة ٢٠ر٩٪ تأييدا ليسار بورديغا . كان الحزب الآن قد اصبح في يديه . واستطاع غرامشي في النهاية ان يطلق شعار التحالف بين العمال والفلاحين على اساس احدث وثائق الاممية . وغادرت جوليا الى موسكو مرة اخرى ، انتظارا لطفل آخر .

وفي موسكو كان الصراع على خلافة لينين على اشده . فكان ستالين وتروتسكي يواجه كل منهما الآخر . وكانت آثار الصراع عند قمة الحزب البلشفي خطيرة على الاحزاب الشيوعية للبلدان الاوروبية . وفي الرابع من اكتوبر (تشرين الاول) بعث غرامشي برسالة الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي لكي يؤكد الخطر الهائل الذي تشكله هذه المعارك الداخلية بالنسبة لجبهة العمال . وبالنسبة لايمان الجماهير بقياداتها . اما تولياتي ـ الذي كان في موسكو كممثل للحزب الشيوعي الايطالي ـ فلم يوافق على

الرسالة التي كانت ، فوق كل شيء ، ناقدة وستالين والاغلبية البلشفية (حتى وان لم يكن بأي حال مؤيدا لاطروحـــات [illegible]) وحجز تولياتي الرسالة ولم يسمح بوصولها الى مقصدها • وقد شرح سبب موقفه هذا لغرامشي ، وابلغـــه ايضا بأنه قرأه على بوخارين • ورد غرامشي عليه بجفاء موضحا عدم موافقته • وبينما توجد نسخة من الرسالـــة المرسلة الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتـي ، فان الرد على تولياتي قد فقد (١٢) • وخلال شهر اكتوبـر نفسه كتب غرامشي مقالا ، بقـــي ناقصا ، بعنـــوان **بعض موضوعات حول مسألة الجنوب** •

في تلك الاثناء كان البوليس الفاشي يطارد كل نـواب المعارضة • وطلبت قيادة الحزب من غرامشي ان ينتقـــل الى سويسرا طلبا للامان ، ولكنه فضل ان يبقى فـــي ايطاليا • وفي بداية نوفمبر (تشرين الثاني) عجز عن الوصول الـــى موعد لاجتماع سري ، كان من المقـــرر ان يشرح اثنـــاءه هومبرت ــ دروز نوعية وخطورة التناقضات بين مجموعـــة ستالين ومجموعة المعارضة • فقد اوقـــف البوليس غرامشي واجبره على العودة الى روما • وبعد ايام قليلة ــ في الثامن من نوفمبر ــ بعد « الاجراءات الاستثنائية » التـــي كانــت

---

(١٢) اعيد اكتشاف هذه الرسالة مؤخرا ونشرت في مجلـــة Rinascita في ٢٤ ابريل (نيسان) عام ١٩٧٠ •

الحكومة الفاشية قد قررت اتخاذها ، القى البوليس القبض عليه ، وكذلك على النواب الشيوعيين الآخرين ، على الرغم من انه كان يتمتع بالحصانة البرلمانية • ولكن لم يكن مجلس النواب قد تحرك اليوم التالي للموافقة على ابطال عضوية نواب آفنتيني ، وكان بينهم الشيوعيون ، رغم انسحابهم من آفنتيني وعودتهم الى البرلمان •

لم يستغرق الحكم « السياسي » بالنسبة لغرامشي طويلا • فقد حكم عليه بالاعتقال لمدة خمس سنوات • ولم يعلم الا في وقت متأخر عن الوجهة التي سيرسل اليها : جزيرة اوستيكا الصغيرة ، وقد بلغها في اوائل شهر ديسمبر (كانون الاول) • وقد شارك في حياة المعتقل معتقلون سياسيون آخرون ، كان من بينهم بورديغا • وقد جدد الاثنان صداقتهما الطويلة واسسا معا مدرسة بين المعتقلين ، وكان غرامشي معنيا بالقسم الادبي التاريخي بينما كان بورديغا معنيا بالقسم العلمي •

وفي اوائل شهر يناير (كانون الاول) عام ١٩٢٧ بدأت « المحكمة الخاصة للدفاع عن الدولة » نشاطها • وصدر أمر اعتقال ضد غرامشي • واخذ الى ميلانو ، واودع سجن سان فيتوريو • وكان باستطاعته ان يقرأ المجلات والكتب وان يكتب الرسائل الداخلية • وكان قرب تاتيانا العزيزة ، شقيقة زوجته ، مصدر راحة كبيرة له • وكانت هي التي ابلغها ـ في

رسالة بتاريخ ٩ مارس (آذار) ـ عزمه على ان يكرس نفسه لخطة متعددة الجوانب من الدراسات اثناء سنواتــه فــي السجن ٠

« انني ماخوذ (وهذه ظاهرة خاصة بالسجناء فيمـا اعتقد) بهذه الفكرة : انه يتعين علي ا ن اعمل شيئا للخلود + طبقا لتصور مركب لغوته ، وهو تصور اتذكر انه كان معذبا لصديقنا باسكولي كثيرا ٠ وبايجاز انني اود ان اشغــل نفسي بصورة كثيفة وعلى نحو منظمبموضوع ما يستغرقنــي ويعطي حياتي الروحية محورا ٠ ولقد فكرت فــي اربعـة موضوعات حتى الآن ، وهذه بالفعل علامة علــى انني لا استطيع ان اجمع شتات نفسي ٠ وهذه الموضوعــات هــي ـ أولا ـ بحث في تكوين الروح المدنية خلال القرن الاخير ، وبعبارة اخرى بحث في المثقفين الايطاليين ، اصولهـم ، تجمعاتهم طبقا للتيارات الثقافية ، سبل تفكيرهم المختلفـة ، الخ ٠ الخ ٠ انه موضوع على درجة عالية مـن الاهميــة والتركيب ولا استطيع ـ بالطبــع ـ الا ان ارسم خطوطــه العريضة ، نظرا للاستحالة المطلقة للحصول على القدر الهائل من المعلومات الضرورية ٠ هل تذكرين مقالتي الموجزة جـدا والسطحية جدا عن الجنــوب الايطالـي وعــن اهميــة

+ استخدم غرامشي هنا تعبير غوته الالماني بلغته الاصلية Für ewig « المترجم»

كروتشه + ؟ حسنا ، انني اود ان اطور هذه الاطروحة التي وضعت عندئذ خطوطها العريضة ، تطويرا كاملا . من وجهة نظر « غير متحيزة » وللخلود ·

« ثانيا » دراسة علم اللغة المقارن ! لا شيء ـ اقل · ولكن ما يمكن ان يكون « غير متحيز » وللخلود اكثر من هذا ؟ من الطبيعي انها ستكون مسألة معالجة الجانب المنهجي والنظري المحض فحسب من الموضوع ، وهو الجانب الذي لم يعالج ابدا بصورة منتظمة وكاملة من وجهة النظر الجديدة لعلماء اللغة الجدد ضد علماء قواعد اللغة الجدد · (سأثير فزعك ايتها العزيزة تاتيانا بهذه الرسالة !) ان واحدة من اعظم « لحظات الاسف » الفكرية في حياتي هي الالم العميق الذي سببته لاستاذي الطيب بارتولي الاستاذ بجامعة تورينو · لقد كان مقتنعا بانني الملاك العلوي الذي قيض لازالة « علماء قواعد اللغة الجدد » نهائيا · ذلك انه ـ وهو الذي ينتمي الى الجيل نفسه وتربطه ملايين الخيوط الاكاديمية التي هذه

+ Benedetto Croce (١٨٦٦ ـ ١٩٥٤) من فلاسفة الهيغلية الجديدة وكان استاذا بجامعة نابولي · تصدى بالنقد للنظريات الفلسفية والاقتصادية الماركسية · لقي اهتماما نظريا كبيرا من غرامشي الذي اعتبره « قائد هيئة الاركان الفكرية للبورجوازية الليبرالية ·· قائد الحزب الايديولوجي للطبقة البورجوازية » · « المترجم »

العصبية من الرجال سيئي السمعة ، الا انه لم يرد ان يتجاوز حدا معينا حدده العرف والاذعان للنصب الجنائزية القديمة للمعرفة الكتبية ·

« ثالثا ، دراسة لاعمال بيرانديللو وتحول الذوق الدرامي الايطالي الذي يمثله بيرانديللو والذي يساعد على تقديره · هل تعرفين انني اكتشفت ـ قبل وقت طويل من ادريانو تيلغر ـ اعمال بيرانديللو وساعدت على اشاعتها بين الجماهير ؟ لقد كتبت عن بيرانديللو خلال الفترة من عام ١٩١٥ الى ١٩٢٠ ما يكفي لصنع مجلد صغير من مائتي صفحة · في ذلك الوقت كانت كتاباتي اصلية ولا سابق لها ، لان بيرانديللو وقتذاك كان يقابل بتسامح ودي او بسخرية سافرة ·

« رابعا ، مقال عن الروايات الشعبية وذوق الجماهير في الادب · وقد جاءتني هذه الفكرة بينما كنت اقرأ نبأ وفاة سيرافينو رينزي ، الممثل الرئيسي في فرقة كانت تؤدي الميلودراما ، وهي انعكاس مسرحي للروايات الشعبية ، وتذكرت الى اي حد كنت استمتع في المناسبات التي اذهب فيها للاستماع اليه ، لان الاداء كان مزدوجا · القلق ، العواطف المنطلقة ، تدخل الجمهور ، لم تكن هذه بالتاكيد الاجزاء الاقل اثارة في العرض ·

« كيف يبدو هذا كله لك ؟ على كل ، لو ان شخصا

امعن النظر ، فانه يوجد تجانس بين هـــذه الموضوعـات الاربعة • الروح الابداعية الشعبية في مراحل تطورها المختلفة هي في الجذور منها جميعا بمقياس متساو •••• » •

لم يشرع غرامشي في تنفيذ مشروعه لعدة اشهر • كانت اشهرا شاقة ، صعبة • لقد انتقلت شقيقة زوجته من ميلانـو الى روما لمساعدته واراحته بوجودها • تحقيق وراء تحقيق • وكان لا يزال مسموحا لبعض افراد اسرتـــه او اصدقائـــه بزيارته ، ولكن اتصالاته بالعالم الخارجي انعدمت تماما • ولا بد ان اغراء التخلي عن ابحاثه الثقافية والسياسية كــان كبيرا • ولا بد بالمثل ان كانت كبيرة رغبته في ان يستسلــم لاغراء كتابة سيرة ذاتية ، تقدم مسيرة حياتـــه « كمثـــال مشع » ؟ وهو خطر لا بد أنه نجا منه بالتحديد بفعل ايمانـــه السياسي واستعداده الثقافي • ان احدى مذكراته من دفاتـر السجن شهادة على عذابه الداخلي •

« تبرير للسيرة الذاتية • لا بد ان يكون احد التبريرات هو هذا : مساعدة الآخرين على ان ينموا بسبل معينة وفـي اتجاهات معينة • غالبا ما تكون السير الذاتية فعلا من افعال الزهو • فالمرء يعتقد ان حياته هو تستحق ان تحكى لانهـا « اصيلة » ، لانها تختلف عن حياة الآخرين ، الخ • كذلـك يمكن تصور السيرة الذاتية تصورا « سياسيا » • ان المـرء يعرف ان حياته تماثل حياة آلاف آخرين ، ولكن « بالمصادفة » ذات « اتجاه » تستطيع ان تملكه الالاف الاخـرى او هـــي

تملكه في الحقيقة · وحين يحكيها المرء فانه يخلق هذه الامكانية ، انه يقترح العملية ، انه يشير الى الاتجاه » ·

كانت فترة عصبية ، لم يبد ابدا انها ستمر ، في انتظار المحاكمة · وكان لدى غرامشي احساس بالتغير ، بأنه لم يعد مستعدا للغاية للنضال كما كان في الماضي · « انني انام اكثر ويبدو انني في طريقي فعلا لان اصبح محافظا تماما ، الامر الذي يقلقني كثيرا جدا » · هكذا كتب الى تاتيانا مرة اخرى في نوفمبر ·

امضى الشهور الاولى من عام ١٩٢٨ في انتظار معذب وعصبية (ويبدو وسط استفزازات من جانب البوليس) · فقط في نهاية شهر ابريل (نيسان) علم ان المحاكمة ستبدأ يوم ٢٨ مايو (ايار) · واحس بأنه ملزم بالكتابة الى امه ·

« امي الاعز · لا اريد ان اكرر ما كتبته اليك غالبا لكي اطمئنك عن حالتي المعنوية والبدنية · ولكي تطمئني حقا اود منك ان لا تفرطي في الخوف او تفرطي في القلق ، مهما كان الحكم الذي سيصدرونه علي · اريدك ان تفهمي بوضوح ، وكذلك بقلبك ، انني سجين سياسي وانني سأدان لاسباب سياسية ، وانه ليس لدي الآن ولن يكون لدي ابدا ما اخجل منه بسبب هذا الوضع · وبعد كل شيء فانني ـ انا نفسي ـ اردت هذا السجن وهذا الحكم ، بمعنى ما ، لانني لم ارد ابدا ان اغير آرائي ، التي من اجلها سأكون مستعدا ليس فقط

للبقاء في السجن ، بل لان اقدم حياتي • ولهذا فانني لا املك الا ان اكون هادئا وسعيدا مع نفسي •

امي العزيزة ، اود حقا ان اعانقك بقوة جدا جدا ، حتى يمكنك ان تشعري كم احبك وكم اود ان اعزيك عن هذا الحزن الذي سببته لك • ولكن لم يكن في امكاني ان افعل خلافا لما فعلت • الحياة هي هكذا ، شاقة جدا واحيانا ما يسبب الابناء ألما عظيما لامهاتهم ، اذا كانوا يريدون الحفاظ على شرفهم وكرامتهم كرجال » •

في مايو (ايار) نقل الى سجن ريجينا كولي في روما ، وفي ٢٨ مايو اقتيد ـ ومعه شيوعيون آخرون (تيراشيني ، سكوتشيارو ، الخ) الى المحكمة الخاصة حيث بدأت ما اسمي « المحاكمة الكبرى » ضد قيادة الحزب الشيوعي • وحكم عليه بالسجن مدة عشرين عاما واربعة اشهر وخمسة ايام • وكان المدعي العام ، ميشيل ايسغرو ، قد قال عنه : « ينبغي ان نوقف هذا الدماغ عن العمل لمدة عشرين عاما » • ولما كان غرامشي يعاني من التهاب كلوي مزمن فقد اودع مركز الاعتقال في توري باقليم باري ، الذي وصل اليه يوم ١٩ يوليو (تموز) • وقد الحق بأحد العنابر ولكنه نجح سريعا في الحصول على زنزانة خاصة به • وقد استطاع ان يكتب الى اسرته وأن يستقبل بعض الزوار ، مثل زيارة من شقيقه كاريو ، وزيارة من شقيقة زوجته ، تاتيانا ، التي امضت عدة ايام في توري •

وكانت سنة ١٩٢٩ هي السنة التي بدأ فيها كتابة **دفاتر السجن** • عندئذ كانت قد انقضت نحو سنتين منذ ان كتب لتاتيانا عن رغبته في ان يشغل نفسه ببعض موضوعات الخلود • وقد ابلغ في شهر يناير (كانون الثاني) بأنه سمح له بالكتابة داخل زنزانته وباقتناء الكتب • وكانت اولى هذه المذكرات (التي يبلغ عددها ٣٣ وليس ٣٢ كما يعتقد بصورة شائعة ، وكانت ٢١ في وقت نقله الى سجن سيفيتا فتشيا في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٣٣) وهي التي دون عليها غرامشي **رقم واحد** ، تلك التي تحمل تاريخ ٨ فبراير (شباط) ١٩٢٩ • وكان ذلك قبل ثلاثة ايام فقط من توقيع معاهدات لاتيران ، التي اهتم بها غرامشي فيما بعد بصورة حارة ، سواء بشكل مباشر او غير مباشر • (١٣) وكتب في مارس (اذار) الى تاتيانا عن نواياه الجديدة • « لقد قررت ان اشغل نفسي بصورة شاملة بهذه الموضوعات الثلاثة وان اسجل بها ملاحظات • اولا : التاريخ الايطالي في القرن التاسع عشر ، مع اشارات خاصة الى تكوين وتطور المجموعات الفكرية • ثانيا : نظرية التاريخ وعلم التاريخ • ثالثا : النزعة الاميركية Americanism والنزعة الفوردية Fordism » وطلب قائمة طويلة من الكتب لتكون مراجع له •

---

(١٣) تلك كانت الاتفاقات التي وقعت بين موسوليني والكنيسة الكاثوليكية ، وهي ترسم حدود مجالات الاختصاص التشريعي بين الكنيسة والدولة في ايطاليا وتنشىء علاقات دبلوماسية بين الفاتيكان والدولة الايطالية التي لم تكن حظيت ابدا من قبل باعتراف الكنيسة •

تعددت زيارات تاتيانا ، وكان اهتمام غرامشي بالعالم الخارجي وبالحياة السياسية حارا للغاية • وبطبيعة الحال فان هذا الاهتمام لم يكن يمتد الى ما يهمه شخصيا ، مثل نتيجة الالتماس المقدم الى المحكمة العليا باسم السجناء الشيوعيين بعد حكم المحكمة الخاصة • انما كان يتعلق ايضا بأكثر التطورات علاقة بالسياسة الفاشية ، مثل القوانين البرلمانية ومحضر المناقشة حول الكونكوردا • كذلك كان غرامشي معنيا بمشروعات ذات طبيعة ادبية كان قد تناولها من جديد بعد اهمال طويل ، مثل دراسة عن الفصل العاشر من الجحيم+ ، او عمله المرموق لدراسة عدة لغات مثل الالمانية والروسية ، التي ترجم عنها عدة مؤلفات • كان عمله هائلا ، سواء في القراءة او في تدوين الملاحظات •

ولقد اراحه حقا وجود شقيقة زوجته ، التي انتقلت الى تورينو لعدة اشهر لتكون قريبة منه • وكانت زيارات افراد اسرته ، مثل زيارة شقيقه كارلو ، او شقيقه الآخر جينارو ، ذات اثر عظيم في مساعدته ، بل كانت اكثر راحة له الانباء التي افادت بأنه افاد من عفو عن مدة سنة واربعة اشهر وخمسة ايام ، حتى وان كان قد ظن خطأ في البداية ان هناك فرصة لعفو شامل ، وهذا امل سريعا ما خاب •

+ الجحيم Inferno القسم الاول من « الكوميديا الالهية » لشاعر ايطاليا العظيم دانتي • « المترجم »

وفي شهر يوليو (تموز) عـام ١٩٣٠ علـم بصـورة نهائية ـ في قدر من التفصيل ـ عـن حالـة زوجته جوليـا الصحية ، وكانت قد ادخلت احدى المصحات بسـبب مرض عقلـي ٠

ساءت حالته الصحية اكثر واكثر ٠ كان يعـاني مـن الارق بسبب ضجيج السجن نظرا لان زنزانته كانت قريبة جدا من غرفة الحرس ٠ ولم يكن يسمح له دائمـا بقـراءة كتـب معينة ٠ فقد حرمت عليه ـ مثلا ـ كتب تروتسكي ، التي كان يأمل في الحصول على تصريح بقراءتها بعد طـرد الزعيـم البلشفي من الاتحاد السوفياتي ٠ وكانت دراساته ـ مع ذلك ـ تتميز بدقة اكبر ٠ وقد كتب الى تاتيانا في نوفمبر ١٩٣٠ :

« استقر تفكيري عـلى ثلاثـة او اربعـة موضوعـات رئيسية، احدها موضوع الوظيفة العالمية (الكوسموبوليتانية) التي كانت للمفكرين الايطاليين حتى القرن الثامن عشر ، وهو موضوع ينقسم الى عدة اقسام ، عصر النهضة وميكيافيللي ، الخ ٠ ولو كانت لدي الامكانية للرجوع الى المراجع الضرورية لامكنني ، فيما اعتقد ، ان اكتب كتابا مثيرا للاهتمام حقا ، كتابا لا وجود له بعد ٠ اقول : كتابا » بمعنى المقدمة الى عدد معين من كتب الدراسات ، لان المسـألة تطـرح ذاتها بطـرق مختلفة ، في فترات مختلفة ، وسيكون من الضروري فـي رأيي ، الرجوع الى زمـن الامبراطورية الرومـانية ، وفـي الوقت نفسه فانني اسجل بعض الذكرات ٠٠٠ »

حفز غرامشي وصول عدد من رفاق الحزب القدامى الى السجن في توري على ان ينظم ، بعد مناقشات طويلة ارست الاسس للمبادرة . سلسلة منتظمة مــــن المناقشات حــول موضوعات عديدة مثل الحزب والمفكرين ، الحزب والسلطة العسكرية ، مشكلة الجمعيــة التأسيســية ، الخ • وكانــت المناقشات تتحول فورا الى مناقشات حامية بشكل خاص ، من ناحية بسبب الانباء التي كانت ترد من الخارج عن التغييرات السياسية والتكتيكية في الاممية الشيوعية • اذ كانت الاممية قد تخلت عن تكتيك الجبهة المتحدة ، وخلقت اساسا لهجــوم على الديمقراطية الاجتماعية ، التي كانوا يصفونها بأنهـــا « فاشية اجتماعية » وبأنها اشد الاخطار على الطبقة العاملة• واعلنت الاممية ان ازمة النظام الرأسمالي ازمة حادة ووشيكة بوجه خاص • وكان قبول الحزب الشيوعي الايطالي للسياسة الجديدة للاممية شاملا • وطبقا لما اعلنه الحزب الشــيوعي الايطالي كان من شأن الوضع الايطالي ان يفضي الى ازمــة مؤكدة للفاشية او الى استئناف الصراع الطبقي في غضون فترة قصيرة جدا • اما غرامشي فكان لا يزال يتنبأ كما كان يفعل منذ سنوات ـ وذلك جزئيا لانه كان قد اصبح بعيدا عن المشكلات التكتيكية والسياسية للحزب وعن التطورات الدولية للصراع ـ بأنه ستكون هناك فترة « ديمقراطية » نسبية ، فترة انتقالية عازلة بين الدكتاتورية الفاشية والثورة البروليتارية • ولهذا كان يرى عودة تكتيكية ومؤقتة ضرورية الــى شــعار الجمعية التأسيسية ، الذي يمكن ان يجمــع حولــه التأييــد الاجماعي للاحزاب المعادية للفاشية • ولكن هذه المواقف بدت

غامضة للغاية او غير مقبولة فعــلا لبعــض الرفــاق الذيــن شاركوا في المناقشات والندوات التي كان ينظمها غرامشي ، حتى ان غرامشي نفسه اضطر الى وقف نشاطه نظرا لحيوية المعارضة ٠

ومع ذلك فانه لم ير من الضروري تغيير آرائه في الموقف السياسي بسبب هذا ٠ حتى عندما عقد المؤتمر الرابع للحزب الشيوعي الايطالي في مدينة المانية ، وابلغ به غرامشي بفضل عدة صفحات مكتوبة بالحبر السري (غير المرئي) وضعــت داخل مجلة انجليزية تلقاها في السجن ، حتى عندئذ فانــــه استمر ـ كما نعرف من عديد من رفاقه في السجن ـ فـــي الاقتناع بالحاجة الى مرحلة انتقالية ذات طابع « ديمقراطي »٠ فقد كان يرى هذه كمرحلة يمكن ان تشارك فيها جميع الاحزاب المعادية للفاشية ، ويمكن فيها للمؤسسات والبنى التقليديـة للدولة الليبرالية الالبرتينية (١٤) ان توضع موضع التساؤل، وربما ان تحطم الى الابد ٠

في ذلك الوقت كانت رقابة السجن اقل ارهاقا ، وكان باستطاعة غرامشي ان يتلقى حتى بعض مؤلفات ماركـس ٠

---

(١٤) نسبة الى شارل البرت ، حاكم بييمونت من ١٨٣٠ الى ١٨٤٨ ، الذي وضع مجموعة قوانين تقدمية اصبحت الاساس للدستور الليبرالي للدولة الايطالية ٠

واستطاع ايضا ان يكتب مرات اكثر الى اسرته · ولكن صحته كانت تسوء اكثر واكثر · وفي شهر اغسطس (آب) عـــام ١٩٣١ داهمته اول نوبة بالغة الخطورة · ومرة اخرى فاننا نعلم بها من رسالة الى شقيقة زوجته :

« في الواحدة من صباح يوم الثالث من اغسطس ، منذ ١٥ يوما بالضبط ، بصقت فجأة بعض الدم · لم تكن مسألة نزيف دموي منتظم ومستمر ، لم تكن مسألة تدفق لا يقاوم على النحو الذي كنت اسمع الآخريـن يصفونـه · واحسسـت حشرجة في تنفسي كالتي تحدث عندما يصاب المرء بنزلـة شعبية · وتبعت ذلك نوبة سعال ، وامتلأ فمي بالدم · لم يكن السعال عنيفا ، بل لم يكن حادا ، انما السعال الذي يحـدث عندما يدخل جسم غريب في الحلق ، نوبات متقطعـة ، دون قذفات او تشنجات مستمرة ···»

ومع ذلك فان علاقاته بالعـالم الخارجـي واهتماماتـه استمرت بقوة ارادة تبدو مما لا يمكن تصديقه · وجاءته زيارة من شقيقه كارلو ، ولكن لم يسمح له برؤية صديقه بييرسرافا الذي كان قد حضر الى توري على وجه السـرعة ليـراه · وطلب غرامشي من تاتيانا ان ترسل مقاله عن الفصل العاشر من الجحيم الى استاذه البروفيسور كوسمو ، معلمه القديـم للادب الايطالي في جامعة تورينو (الذي كان قد قطع كل صلة به بصورة فظة ، مهاجما اياه بعنف على صفحات جرائـد عـدة) ·

ولكن الجهد الذي كان يقوم به كـان هائـلا لا يمكـن احتماله • وعندما انتهت الى الاخفاق ـ في خلال الشـهور الاولى من عام ١٩٣٢ ـ امكانيـة القيـام بتبـادل سـياسي للسجناء بين الحكومة السوفياتية والحكومة الايطالية (وهو مشروع كان غرامشي قد وافق عليه وايده) ، اصبح توتره العصبي غير محتمل • ونقرأ له في رسالة الى زوجته فـي اغسطس (آب) :

« كما كتبت الى تاتيانا ايضا يبدو من رسالتك ، وكذلك من الرسائل السابقة انك تكونين او كونت فعلا ـ بناء عـلى معلومات غير دقيقة ـ تصورا عن حياتي عاجزا وسلبيا اكثر مما ينبغي ، تصورا خاليا بشكل فظيع ومفرغ من اي محتوى مهم ، من كل حافز عقلي ، من كل اشـباع يجعـل الحيـاة تستحق ان تعاش • انني بالكاد ـ وبصورة سيئة ـ احافـظ على وجود حيواني ونباتي • لا اريد ان اثير فيك الحـزن ، ولكنني ايضا لا اريـد ان تكـون لديـك افكـار مشـوهة او رومانسية عن الطريقة التي امضي بها وقتي • وبالاضافة الى هذا فانني معتاد عليها • وانا باق على قيد الحياة • وانـا صبور ، على الرغم من انني لست بالتاكيد مستسلما • ولكن الشك في ان الآخرين يعتقدون ان الواقع يختلف حقيقة عما هو ، وانهم يتخيلونني مستغرقا في اي كان من النشاط المهم والمفيد ، يثير غضبي الى اقصى حد ويقلقني قليلا • ان هذا يجعلني اشعر بصورة اشد فظاظة بمدى عزلتي وانفصالي عن الحياة » •

وكتب ـ مرة اخرى ـ الى شقيقة زوجته بعد ايام قليلة من ذلك :

« لقد بلغت نقطة توشك عندها قوى مقاومتي على الانهيار كلية . ولست اعرف ماذا ستكون النتائج • ففي هذه الايام احس انني في حالة اسوأ مما كنت في اي وقت مضى • لأكثر من ثمانية ايام لم انم فترة تزيد على ثلاثة ارباع الساعة كل ليلة ، وفي بعض الليالي فانني حتى لا اغمض عيني • ومن المؤكد تماما انه حتى لو كان الارق المزمن لا يسبب بذاته اية امراض محددة ، فانه يزيد من خطر الامراض كثيرا ، وهو يضيف اليها منغصات مصاحبة حتى ليصبح وجود المرء كله غير محتمل ، ويصبح اي طريق للهروب ـ حتى اشدها خطورة ووعورة ـ افضل من استمرار الحالة الراهنة » •

وقد حاولت شقيقة زوجته بكل السبل ، بما في ذلك تقديم التماس الى رئيس الحكومة (موسوليني) ، حتى يمكن اجراء فحص لغرامشي في السجن على يد طبيب شخصي • وفي الوقت نفسه ادت احتفالات مرور عشر سنوات على الحكم الفاشي الى الموافقة على عفو وسماح استفاد منهما ايضا مسجونون سياسيون • ورأى غرامشي الحكم عليه يخفض الى ١٢ سنة و ٤ اشهر • وعلى الرغم من ان هذا لم يكن يعني ـ مع ذلك ـ الحرية ، فانه قد اراحه الى حد كبير ، لانه ـ كما كتب في مقال **الماضي والحاضر** : « السجن سجل دقيق

الى حد انه يبلي الفكر ، او فانه يفعل كما يفعل الصانع الماهر الذي سلمت اليه قطعةجميلة من خشب الزيتون ليصنع تمثالا للقديس بطرس ، فهو يقطع هنا ، ويقطع هناك ، يشذبها ويرسمها وينتهي بالحصول منها على مخراز خشبي » ٠

وطالب اصدقاء غرامشي بمنحه حرية مشروطة ، ولكن النظام الفاشي كان قد حدد لنفسه هدفا دقيقا : كان يريد من هذا السجين ان يقدم التماسا بالرحمة ، وجعل من المفهوم انه في هذه الحالة سيقبل ٠

في نهاية العام ماتت ام غرامشي في غيلاررزا ٠ ولم يبلغ ابنها بالنبأ (علم بعد وقت طويل لاحق) لانه كان يخشى ان يسبب له اذى عميقا ٠ وقد واصل غرامشي كتابة الرسائل الى امه من وقت لآخر ، غير عارف بموتها ٠ وانتقلت شقيقة زوجته الى مكان قريب منه ، وحصلت على تصريح بأن يفحصه طبيب شخصي ٠ وكان الاوان قد فات بالفعل ٠ ففي السابع من مارس (آذار) داهمت غرامشي نوبة رهيبة ثانية ٠ ونقرأ له في رسالة الى شقيقة زوجته في الاسبوع التالي : « اكتب اليك كلمات قليلة فقط ٠ يوم الثلاثاء الماضي تماما ، في الصباح الباكر ، بينما كنت انهض من الفراش ، سقطت على الارض ، فلم اعد قادراً على ان احمل نفسي ٠ ولقد ظللت في الفراش طوال الوقت منذئذ ، في حالة ضعف شديد ٠ في اليوم الاول كنت في حالة من الهذيان ـ اذا جاز ان تسميها كذلك ـ حتى انني كنت عاجزا عن ان اربط فكرة

واحدة بفكرة اخرى بالكلمات المناسبة · ولا ازال ضعيفا ، ولكن بدرجة اقل مما كنت في ذلك اليوم ·· يبدو انني اتذكر انه في ذلك اليوم شخص دكتور كيستر نينو النوبة التي اصابتني بأنها انيميا لحائية وضعفا لحائيا » · كان يمرضه يوما بعد يوم رفيق من بولونيا وعامل من غروسيتو · وبعد خمسة عشر يوما من تلك النوبة سمح له بأن يفحصه بروفيسور اومبرتو آركانجيلي ، الذي اصر بالحاح شديد على ان يقدم غرامشي التماسا بالرحمة · ولكن امام اصرار السجين العنيد على الرفض ، اضطر لان يزيل من شهادته الطبية اي اشارة الى مثل هذا الاقتراح (حيث اعلن ، بين اشياء اخرى اعلنها : « ان غرامشي لن يستطيع البقاء على قيد الحياة في حالته الراهنة · واعتبر انه من الضروري نقله الى مستشفى مدني او الى عيادة مدنية ، اذا لم يكن من الممكن منحه حرية مشروطة ») ·

وصل بيان بروفيسور آركانجيلي الى اعمدة صحيفة « لومانيتيه »+ وبعض الصحف الاخرى · وفجأة استيقظ الرأي العام الاوروبي · وفي باريس ــ بمبادرة من رومان رولان وهنري باربوس وغيرهما ــ شكلت لجنة من اجل تحرير غرامشي وغيره من المناهضين للفاشية ، بينما ظهرت مقالات

+ L'Humanité الصحيفة الناطقة بلسان الحزب الشيوعي الفرنسي · « المترجم »

عديدة عن غرامشي في كثير من الصحف المعادية للفاشية ٠ وفي تلك الاثناء كتب غرامشي مازحا الى شقيقة زوجته : « لقد تلقيت قطع الملابس الداخلية + التي ارسلتها الـي ، ولكنني لم اكد اعدها وانا اوقع بامضائي على استلامها ٠ هل تعتقدين فعلا انني شديد الاهتمام بالجوارب والكلسات ؟ »

في الاسابيع التالية عنيت شقيقة زوجته وشقيقه كارلو بكل نشاط بمتابعة اجراءات نقله من توري ٠ وفي تلك الاثنـــاء حصلوا على تصريح للسجين بأن ينقل الى زنزانـــة اخرى ، بعيدة عن الضجيج المرهق الذي كان يسببه قربه من حراس السجن ٠ واخيرا تمت الموافقة على طلب نقله ٠ وفي التاسع عشر من نوفمبر (تشرين الثاني) عام ١٩٣٣ غادر غرامشي مركز الاعتقال في توري ، ونقل فجأة الى مصحة السجن في سيفيتا فتشيا قبل ان يتمكن من الذهاب الى عيادة كوسومانو في فورميا ، التي كان البوليس قد اختارها بعد الموافقة على طلب النقل ٠ وفي العيادة ابقي في حالة الاعتقال ٠ ولكنـه على اي حال تمكن من استقبال بعض الزوار ، وباشر الدراسة من جديد ، يسجل المذكرات ويرجع الى الكتب ، التي كان قد اجبر على تركها عندما الغي مؤقتـا التصريـح له بالقـراءة

+ كلمة articles هي المستخدمة في نص الرسالة ، وهـي تعني ايضا مقالات ٠ ومن الواضح انه اراد ان يرمز الى المقـالات المطالبة بحريته ٠ « المترجم »

والكتابة في شهر مارس السابق من قبل ادارة مركز الاعتقال في توري ٠

وامضى غرامشي عام ١٩٣٤ بأكمله مشغولا باجراءات مرهقة للاعصاب ، يقدم الطلبات لنقله الى عيادة اخرى ، ويقدم الالتماسات للسماح له بأن يفحص في السجن بواسطة مستشارين او اخصائيين خصوصيين ٠ (حصل على تصريح بأن يفحصه في شهر يوليو ـ تموز ـ بروفيسور فيتوريو بوتشينيللي من روما) وكانت الحملة التي نظمتها في الخارج اللجنة برئاسة رومان رولان نشطة جداً ٠ وفي النهاية حصل غرامشي على حرية مشروطة يوم ٢٥ اكتوبر (تشرين الاول) ٠ ولكن حالته الصحية كانت سيئة جداً ٠ لقد غادر غرفته في عيادة كوسامونو لاول مرة مع شقيقة زوجته ٠ وتميزت الشهور الاولى من عام ١٩٣٥ بتدهور مطرد في مرضه ، وفي شهر يونيو (حزيران) ألمت به نوبة خطيرة جدا ٠ وسمح له ـ بفضل تدخل بروفيسور بوتشينيللي الى حد ما ـ بمغادرة عيادة كوسامونو ودخول عيادة كويزيسانا في روما ٠ وقد وصل اليها في نهاية شهر اغسطس (آب) حيث تمكن من استقبال زيارات عديدة من شقيقه كارلو ، ومن شقيقة زوجته ، ومن صديقه بييرو سرافا ٠ وما نعرفه قليل جدا عن اقامته في المستشفى وعن الاشهر الاخيرة من حياته ، من عامي ١٩٣٦ و ١٩٣٧ ٠ فقد انخفض عدد رسائله كثيرا ، ولكن تلك التي كتبها الى زوجته والى طفليه الصغيرين زادا عددا ٠ وقد كتب الى ابنه ديليو ، الذي كان قد اصبح

عندئذ في الثانية عشرة :

« ديليو العزيز ، ان ملاحظاتك تصبح مكررة اكثر واكثر . واعتقد ان لديك الآن من الوقت ما يمكنك من ان تكتب بافاضة اكثر وبطريقة اكثر اثارة للاهتمام · لا حاجة بك لان تكتب في اللحظة الاخيرة ، بسرعة رهيبة قبل الذهاب الى نزهة سير على الاقدام · الا توافقني ؟ كما لا اعتقد انه يمكن ان يسرك ان يعتقد ابوك من ملاحظاتك الصغيرة انك احمق صغير لا يهتم الا بمصير ببغائه ، ويبدو انه يقرأ فقط اي كتاب قديم · اعتقد ان واحدا من اصعب الاشياء في عمرك ان تجلس الى مائدة صغيرة لكي تضع افكارك مرتبة (او ان تفكر على الاطلاق) وان تكتبها برشاقة معينة · هذه تلمذة اصعب بكثير من تلمذة عامل يريد ان يكتسب مؤهلا مهنيا ولا بد ان تبدأ في سنك هذا بالتحديد » ·

وكتب الى زوجته : « صحيح انني دائما مستاء ومستثار · ولا بد لرسالتك ان تهدئني جزئيا على الاقل · لا تستثاري انت نفسك · انني لا اريد ان اؤذيك بأي حال » ·

وكتب بعد ذلك الى جوليا : « العزيزة جوليا ، ان وسائلك تمدني دائما بعاطفة كبيرة ولكنها ··· (هذه اللواكن الملعونة ··) تتركني في حالة من الالتباس نوعا وتسلمني لافكار لا تنتهي الى شيء · تعرفين ان لدي جنونا بالدقة الحسية ، التي اعجب بها كثيرا ··· التقارير عندما تكون

مصاغة جيدا ، والبيانات كتلك التي لا تزال تعلمنا شيئا من قساوسة الجزويت المبجلين عن الصين رغم مضي عدة قرون عليها • عزيزتي ، لقد اصبحت متحذلقا بدرجة مفزعة • اكتبي كما تشائين لانك دائما تكتبين جيدا ، بتلقائية كبيرة ، وتضعين كل ذاتك فيما تكتبين » •

وفي ابريل (نيسان) عام ١٩٣٧ ، في نهاية فترة الحرية المشروطة اطلق سراح غرامشي • ولكن تلك كانت آخر ايام حياته • ففي امسية الخامس والعشرين من ابريل داهمه نزيف في المخ • وبعد يومين اثنين ، في السابع والعشرين من نيسان ، مات • ونحن نعرف التفاصيل الاخيرة من رسالة كتبتها تاتيانا الى شقيقتها جوليا :

« لقد احرقنا جثمانه • كانت هناك صعوبات في الحصول على اذن بذلك ، ولكننا في النهاية فعلنا ذلك • وكنت قد حصلت على صورة للجثمان ، وقمنا بعمل قناع • والآن لدي هذا القناع وقد صب في البرونز ، وكذلك لليد اليمنى •• في ذلك اليوم لا اظن ان نينو كان يحس اسوأ حالا عن المعتاد • والحقيقة ان بامكاني ان اقول انه كان اهدأ من المعتاد ••• تحادثنا حتى وقت العشاء ••• تناول بعض الحساء ، وقطعة من الفاكهة المسلوقة وقطعة صغيرة من الكعك ، وخرج • ثم اعيد على كرسي يحمله عدد من الناس • كان جانبه الايسر مشلولا باكمله • ولكنه كان يتحدث جيدا جدا • وقد كرر عدة مرات كيف انه صار في حالة ضعف

وسقط على الارض دون ان يصيب رأسه ، جر نفسه حتى وصل الى الباب وطلب النجدة ••• ومضت الليلة كلها دون ان يحدث اقل تغير في حالته ••• ظللت ارقبه طوال الوقت واعمل ما وسعني ، ابلل شفتيه ، احاول ان اعيد تنفسه صناعيا عندما يبدو انه قد توقف • ولكن اخيرا جاءت زفرة عالية اخيرة ، وعندئذ ران صمت لا مفر منه • واستدعيت الطبيب الذي اكد مخاوفي • كانت الساعة الرابعة وعشر دقائق من صباح يوم ٢٧ ابريل » •

لقد كتب غرامشي في مذكراته الماضي والحاضر :

« لقد طورت حكمة قبائل الزولو هذا القول المأثور قبل ان تنشره مجلة انجليزية : « الافضل ان تتقدم وتموت من ان تتوقف وتموت » •

وبعد يومين من وفاته نشرت الصحف هذه الملاحظة المقتضبة ، التي اذيعت ايضا من الراديو : « توفي النائب الشيوعي السابق غرامشي في عيادة كويزيسانا بروما حيث كان يتلقى علاجا منذ وقت طويل » •

لقد مات الرجل الذي كتب منذ وقت بعيد في عام ١٩٢١ في مقال بدون توقيع في صحيفة النظام الجديد :

« ان الطبقة العاملة لا يمكن ان تقهر • انها تجسد في

التاريخ الحديث روح الحرية وروح الاستقلال الذاتي التـي هي جوهر التقدم نفسه · الرجال يأتون ويمضون ، تسحقهم العواصف ، والطبقة ككل تبقى · ولا بد ان يعرف الرجـال الافراد كيف يضحون بأنفسهم من اجل مصائرها ومستقبلها ، وينبغي ان يعرفوا ايضا كيف يموتون » ·

الفصل الثاني

البورجوازية والبروليتاريا الاشتراكية والحرية

« ان ننتظر حتى يكون الواحد قد نما الى حجم نصف عدد المقترعين زائد واحد هو برنامج الارواح الجبانة التي تنتظر صدور الاشتراكية بمرسوم ملكي ، وعليه توقيعان متقابلان لاثنين من الوزراء » ٠

(غرامشي في مدينة المستقبل ، ١١ فبراير - شباط ١٩١٧)

اكد غرامشي بوضوح - حتى في ابكر كتاباته - ان البورجوازية والبروليتاريا هما بطلا التاريخ المعاصر ٠ وقال ان المسألة ليست مجرد مسألة طبقتين اجتماعيتين ، وانما

طريقتان مختلفتان في تصور الحياة وتنظيمها ، مسألة « حضارتين » مختلفتين ٠

وكتب في صحيفة صيحة الشعب يوم ١٤ اكتوبر (تشرين الاول) عام ١٩١٦ :

« المسألة لا تنطوي على ما هو اكثر ولا ما هو اقل من اعادة بناء حضارتنا ٠ وحضارتنا ، التي عشناها حتى سنة مولانا ، سنة ١٩١٤ ، والتي انحدرت الينا مباشرة من الثورة الفرنسية ، قد حكم عليها مصيريا الحريق الاوروبي الكبير ، وهو حدث له ضخامة تقارن بضخامة حدث عام ١٧٨٩ ٠ عندئذ كان اساس النظام البورجوازي قد وضع ٠ واليوم يجري تحطيمه ٠٠٠ لقد انقلبت كل القيم الانسانية ، وليس اقل منها انقلابا المؤسسات الاخلاقية والقانونية للعالم القديم ، وانتزعت وتفككت بصورة لم يعد من الممكن معها اصلاحها ٠ واليوم من الملح ان نعلن وان ننفذ نظاما جديدا ، اساسا جديدا للحياة المدنية » ٠

وطوال فترة الحرب العالمية الاولى كان غرامشي يؤكد بكل قوة أن الحروب هي « نتيجة نظم امتيازات » ٠ « فالبورجوأزية هي الطبقة المميزة والرأسمالية هي الشكل الاقتصادي الذي يتخذه الامتياز ٠ ومن ثم فان الحرب « قدر بورجوازي » ، حتى وان لم يكن المقصود بهذا المصطلح ان ينطوي على معنى قانون مطلق ٠ ان البورجوازية تمسك بالسلطة ـ وهي تملك

روافع الدولة وروافع صنع القرار الجماعي بيـن يديهـا . وطالما بقي هذا الوضع ، فانه سيؤدي ـ ولا بد حقا ان يؤدي ـ الى سياسة طبقية » .

« وسوف تتمكن البروليتاريا ـ قبل المرحلة الثورية ـ من النضال ضد هذه السياسات ، فقط عـن طريـق محاولـة تدمير القوانين ، وليس باعلان قوانيَن جديدة . حقاً انه يتعين على البروليتاريا احيانا ان تقبل الاسلحة نفسها التي تضعها البورجوازية تحت تصرفها حتى تغزو مواضع القوة وحتـى تتوسع ، بفضل البنى الليبرالية للحكم البورجوازي نفسه . فالليبرالية « نضال من اجل العدالة » و « لصالح المقهورين » . والليبرالية تتعارض مع القيود عـلى الفكـر . فهي تؤمـن بالسماح للافكار والآراء بأن تتصارَع فيما بينها ـ طبعا دون امتياز ـ ولديها ايمان بدرب الانسانية وبتطورها ، كما ان لديها ايمانا بأن الازمـات الاقتصـادية ليسـت الا مخرجـا ضروريا من التخبطات والاخطاء التي تنشـأ اثنـاء فتـرات الرخاء . وتعرف الليبرالية ان الشر لن يسـود ابدا عـلى الخير وان افضل السبل لاخراج كل طاقات الانسان هي اتاحة حرية عمل ومسؤولية كاملة له » .

« وفي التنظيـم البورجـوازي للمجتمـع فـان بعـض المؤسسات ـ وان تكن هي نفسها بورجوازية ـ لا تـؤدي وظيفتها كما تستطيع وكما ينبغي ان تؤديها ، حتى في اطار المعنى الرأسمالي الذي اعطي لها . ومهمة البروليتاريا هـي

الضغط باستمرار على النظام الراهن لتجديده وجعله اكثر مواتاة باطراد للانتاج ولزيادة عامة في الثروة · يتعين عليها ان تشدد الضغط حتى تنجح فقط تلك المجموعات البورجوازية واولئك الافراد البورجوازيون الذين ـ بنشاطهم النزيه داخل الاطار الرأسمالي ـ يجعلون الشروط الميكانيكية والطبيعية للحياة الاجتماعية اكثر ملاءمة لنقل السلطة من طبقة الى اخرى » ·

من البداية تماما كان تحليل غرامشي متماسكا تماسكا كليا · فعند غرامشي ان الدولة هي « التنظيم الاقتصادي والسياسي للطبقة البورجوازية » · حقا ان الدولة هي الطبقة البورجوازية · ولا يمكن ابدا اخذ التكافل الطبقي والحل الشكلي المحض للصراعات في الاعتبار لان هذا كله لا يؤدي الا الى تقوية آلة الدولة وتكوين قشرة صلبة لها · فاذا كان حزب ما يتطلع لان يكون الجهاز التنفيذي للبروليتاريا ، فان عليه ان يمارس اعتى اشكال الصلابة ، حيث ان « الصلابة ليست هي القصور الذاتي » ، وان يجبر الآخرين على ان يهتزوا وان ينفعلوا · ينبغي الا تعترف البروليتاريا بالسلطة التنفيذية للحكومة النابعة من البرلمان ، ولكن بتنظيماتها الطبقية فحسب ، طالما كانت هذه التنظيمات ـ وهذه التنظيمات وحدها ـ قادرة على تمثيل مصالحها وامانيها · وينبغي ان يتسع هذا المفهوم ، ان يرتفع الى اعلى ، وان يتجاوز الحدود القومية حتى يطابق هوية القانون العام للمجتمع ، لكل مجتمع انساني · وينبغي الا يتجاهل المرء الضرورة التاريخية التي

تتولد – في ظل حكم رأسمالي – « بصورة لا تقاوم عن القوة الآلية ، عن كمية السلع ، عن الامتداد الجغرافي والكثافة السكانية للدولة » · ان رجال الدولة البورجوازيين يعولون على هذه القواسم المشتركة ، وخاصة بمجرد ان يقتنعوا بأن البروليتاريا تستعد فعلا لغزو السلطة الاجتماعية ، ولمصادرة الصناعة الكبرى وملكية الارض ·

بدأ غرامشي المناقشة السياسية الاساسية في حياته اثناء سنوات الحرب ، ورسم خطوط التعارض التاريخي بين البورجوازية والبروليتاريا ، ولكنه عندما واصل تحليله بقدر اكبر من السلاسة والوضوح كان ذلك خلال فترة ما بعد الحرب على صفحات جريدة **الطليعة** ، وبصفة اخص على صفحات جريدة **النظام الجديد** · وقد ذهب غرامشي الى ان البورجوازية الايطالية – بتطويرها لذاتها – قد حققت الوحدة القومية ، ولكنها كانت ايضا مسؤولة عن اطلاق عنان الحرب الاهلية التي استنكرتها كثيرا ، لفظيا على الاقل ·

« لان الحرب الاهلية تعني بالتحديد صداما بين قوتين مسلحتين تتنازعان حكم الدولة ، فانها صدام يتم ، لا في ميدان مفتوح بين جيشين منفصلين انفصالا واضحا ومحددين تحديدا منتظما ، وانما في قلب المجتمع نفسه » ·

قبل عام ١٨٥٩ كانت البورجوازية هي التي تملك مصلحة في الوحدة القومية من وجهة النظر السياسية

والاقتصادية · وبعد ستين عاما كانت ايطاليا لا تزال في الحالة السيكولوجية التي كانت سائدة قبل عام ١٨٥٩ · ولكن البورجوازية لم تكن هي التي قيض لها ان تتقدم وان تقود الصراع من أجل الوحدة ·

« اليوم الطبقة « القومية » هي البروليتاريا ، مجموع العمال والفلاحين ، مجموع الشعب العامل ، الذي لا يمكن ان يسمح بأن تتفكك الامة ، لان وحدة الدولة هي شكل تنظيم الانتاج والتبادل الذي بناه العمال الايطاليون · انه تراث الثروة الاجتماعية التي تريد البروليتاريا ضمها الى الاممية الشيوعية · واليوم باستطاعة الدولة البروليتارية ـ دكتاتورية البروليتاريا ـ وحدها ان توقف عملية تحلل الوحدة القومية لانها القوة الوحيدة الحقيقية التي تستطيع ان تحول بين البورجوازية المنقسمة على نفسها وبين قلقلة النظام العام ، وان تجعل البورجوازيين يعملون اذا كانوا يريدون ان يأكلوا » ·

في هذه الحالة تصبح كل تفرقة بين الديمقراطية والدكتاتورية مجرد تفرقة نظرية خالصة · فكل حكم بورجوازي يتميز بتوازن بين القوتين السياسيتين الكبريين ، او بالاحرى بين الاحزاب البورجوازية التي تمثلهما ـ الحزب المحافظ يمثل ملاك الاراضي ، والحزب الديمقراطي يمثل رأس المال الصناعي · ومع ذلك فان الفرق دقيق لانه سواء كانت الدولة الايطالية دولة بوليسية او عكس ذلك ، دولة ديمقراطية ،

جمهورية ليبرالية ، « فان الطبقة العاملة ستكون لها مهمة واحدة ، ولها فعلا مهمة واحدة ، هي الاطاحة بها » • وقد حذر غرامشي البروليتاريا من خطر واحد ، هو وجود البورجوازية الصغيرة بين ظهرانيها • فان الغرور والطموح العالمي ، وعدم معرفة كيفية فهم ما هي بالضبط القوى التاريخية التي تسود حياة العالم ، وعدم معرفة كيفية رؤية مكانهم الخاص وما ينبغي ان تكون وظيفتهم ـ هذه كلها عوامل تسببت في ان يصبح عمال كثيرون بورجوازيين صغارا ، وان يضعفوا موضوعيا البروليتاريا في نضالها • وكانوا يضعفونها في اللحظة بالذات التي كان النضال فيها عند ذروته بعد الحرب ، حيث البورجوازية « اصبحت اكثر شراسة ووطنية الآن اذ انقذت جلدها واموالها » •

وتوجد في **دفاتر السجن** تلميحات عابرة كثيرة الى البورجوازية والى صراع البروليتاريا • (مثلا ، في المجلد الذي يحمل عنوان **المفكرون وتنظيم الثقافة** كتب غرامشي ، « بعد تكوين بورجوازية قومية ، وبعد ادخال الرأسمالية ، بدأت هجرة الشعب العامل ، الذي ذهب لزيادة فائض القيمة للرأسمالية الاجنبية • وهكذا فان الضعف القومي للطبقة العاملة يعمل دائما على نحو سلبي » • وفي **ملاحظات عن ماكيافيللي** ، « من نقد ، هو نقد أقلوي Oligarchic وليس نخبويا في الاصل ، للحكم البرلماني (فهو لا ينقد على اساس ان العقلانية التاريخية للاجماعات العديدة في الرأي يتم تزييفها بانتظام تحت تأثير الثروة) ، جرى مد نطاق هذه

البيانات التافهة لتشمل كل نظام تمثيلي ، حتى تلك التي ليست برلمانية والتي لم يجر تنميطها طبقا لقواعد الديمقراطية الشكلية » · وفي ملاحظة تضمنتها مقالته **الادب والحياة القومية** اشار الى « فولتير ، رمز التبعية الفكرية لرؤوس العائلات البورجوازية الذين يتذكرون ازمنة ليبرالية المقاهي البطولية » · وفي **الماضي والحاضر** يقول غرامشي « تقول انك قادر على بناء الكاتدرائيات ، ولكنك لست قادرا الا على بناء العليات · إختلاف (هكذا) عن **البيان** (١) الذي يمجد عظمة الطبقة المحتضرة · »)

ولكن أقيم الاشارات الى الصراعات الطبقية هي بالتأكيد تلك التي تتضمنها المقالات المثيرة للجدال التي كتبها قبل سجنه ، وهي مقالات نشأت عن النضال السياسي اليومي ، والتي ظهرت في اعمدة الصحف ، كتلك التي كتبت في عام ١٩٢٦ ونشرت في صحيفة الوحدة Unita

« طبقتان تواجه كل منهما الاخرى اليوم : البروليتاريا والبورجوازية · والوضع الراهن يحدد الصراع الاساسي بين هاتين الطبقتين · ولكن أيا من هاتين الطبقتين ليست معزولة ، فلكل منهما حلفاؤها الفعليون والمكنون · والبورجوازية تملك اليد العليا لانها تتلقى مساعدة حلفائها ،

---

(١) بيان الحزب الشيوعي لماركس وانجلز ·

ولانها تملك تحت تصرفها نسقا من القوى التي تسيطر عليها وتقودها هي نفسها · والبروليتاريا ايضا تناضل من اجل انتزاع هؤلاء الحلفاء من البورجوازية وجعلهم قواها هي المساعدة · والتجمع الجمهوري (٢) هو التعبير السياسي عن هذا التذبذب للقوى الوسطى ، عن هذا الاختلال الكامن في القوى التي ستقرر مصير التناحر التاريخي بين الطبقتين الاساسيتين · فاذا تحركت هذه القوى في مجموعها ، واذا تم الانهيار الاجتماعي للشرائح المتوسطة نحو التجمع الجمهوري ، فان البورجوازية « كطبقة » سوف تنتقل فورا على الاساس ذاته · ستصبح جمهورية في غضون ٢٤ ساعة، لانها لا تريد ان تبقى معزولة ، لانها ستفهم انها فقط بانتقالها هذا ستكون قادرة على ان تحافظ على مواقعها الاساسية ·· لانه ، (وهنا تكمن المسألة) ، تحت اية ظروف يمكن ان يتم انهيار الشرائح المتوسطة هذا ؟ انه لا يمكن ان يحدث الا في حالة التهديد باحياء الطاقات الثورية للبروليتاريا ، الا اذا برهنت الرأسمالية على انها غير قادرة على اشباع اية حاجات جوهرية اخرى للحياة القومية · ولكننا نعتقد انه عند هذه اللحظة على وجه الدقة يكون من الضروري للبروليتاريا ان تكون قوة متحدة ، سياسيا وايديولوجيا ، كطبقة ، حتى تكون قادرة على حل مشكلاتها الاساسية ، والتنسيق بينها ، طبعا ،

---

(٢) كان هذا تكتلا عريض القاعدة من المجموعات المعادية للفاشية ·

وبين حل المشكلات القومية الاخرى التي ترتبط بالطبقات والجماعات الاجتماعية التي ستناضل الى جانبها • يعني اننا نعمل لاقامة حكم البروليتاريا في مجتمع ايطالي متحول » •

في الوقت نفسه الذي كان فيه غرامشي يقدم تحليله للمضمون الطبقي للمجتمع البورجوازي ، كان يقوم ببحث مواز في العلاقة الضرورية بين الاشتراكية والحرية ، وهنا تصبح المناقشة مركبة • ولقد كانت مهمة نزع الاقنعة عن المثل الاعلى البورجوازي للحرية ، مهمة كشف كيف ان هذا المثل الاعلى ليس صحيحا على اطلاقه ، وانما هو صحيح تاريخيا وبمعنى طبقي ، لان جوهره يرتبط بحقبة تاريخية ويتعلق بطبقة ـ كانت مهمة شاقة وبالغة الصعوبة • وقد احس غرامشي في هذه المناقشة بالحاجة الى « الاستفزاز » ، الى مهاجمة المذاهب والقوالب المبتذلة (الكليشيهات) ، لان يخرج الاصدقاء والاعداء على السواء عن المألوف •

« ان الاسراع بصنع المستقبل يعني شيئين • القدرة على جعل هذه الرغبة تمتد لتشمل اكبر عدد ممكن من الناس يكون من المفترض انه ضروري لجعل الرغبة نفسها تؤتي ثمارها ، ويكون هذا بمثابة تقدم كمي • او ـ خلافا لذلك ـ النجاح في جعل هذه الرغبة تصبح حادة بين الاقلية الراهنة ، حتى تكون المعادلة ١ : مليون ممكنة • ويكون هذا بمثابة تقدم كيفي • جعل روح الفرد متأججة وجعلها تشع من

الشرر ما لا يحصى • ان من الضروري ••• (٣) ان الانتظار حتى يكون الواحد قد نما الى حجم نصف المقترعين زائد واحد هو برنامج الارواح الجبانة التي تنتظر صدور الاشتراكيـة بمرسوم ملكي وعليه توقيعان متقابلان لاثنين من الوزراء » •

كانت هذه « الاستفزازات » المستمرة في نثره ومقالاته موجهة الى الرفاق بالمثل ، الذين اذهلهم ، لا كغاية في ذاتها ، وانما لان الحس الجدلي (الديالكتيكي) بتعقد الواقع وتعقد العملية التاريخية كان عميق الجذور لديه • ومن الامثلة على هذا المقال الشهير **الثورة ضد « رأس المال »** ، الذي نشر في بداية عام ١٩١٨ في صحيفة **صيحة الشعب** • فقد ذهب فـي هذا المقال الى ان الثورة البلشفية انتصرت على كل نظريـة ماركسية في واحدة من اكثر البلدان تخلفا من الناحيتيـــن الاقتصادية والصناعية •

« لقد غلبت الحقائق الايديولوجيات • فالحقائق فجرت الخطاطات النقدية التي كان يتعين ان يتطور التاريخ الروسي في اطارها طبقا لمبادىء المادية التاريخيـة • ان البلاشـــفة يخطئون كارل ماركس وبشهادة العمل الصريح ، والفزوات التي تمت ، فهم يقررون ان مبادىء المادية التاريخية ليسـت مصبوبة من حديد كما ينبغي ان تكون وكما يظن » •

---

(٣) سطر حذفته الرقابة • وكان هذا نتيجة الرقابة التي كانت مفروضة وقت الحرب •

وعلى النقيض من مفهوم شكلي تماما في الحرية ، فانه كان يمجد الصلابة والقوة « التي هي الحكم الاعلى في الصراعات » . يريد الاشتراكيون اقامة مجتمع جديد ، وعليهم ان يخضعوا كل جهودهم وكل افكارهم لهذه الغاية . وقال ان عليهم ان يكونوا اقوى لكي يفوزوا . وبهذا المعنى فان الانضباط الحزبي ، والقوة الطبقية ، وبعبارة اخرى الصلابة ، تصبح الاسلحة الضرورية ، تصبح حقا « ضرورة ديمقراطية » .

لكي نفهم على وجه الدقة ما كان ينبغي ان تكونه العلاقة بين الاشتراكية والحرية ، من الضروري ان نبدأ المناقشة مرة اخرى من البداية ، وان نناقش بنية الدولة ، وان نفهم البورجوازية ، وان نفهم الصراع الطبقي . ان كل دستور سياسي يعتمد بالضرورة على البنية الاقتصادية ، على اشكال الانتاج والتبادل . ولكن ينبغي الا يقع المرء في خطأ الاعتقاد بأن هناك علاقة مقررة بين المقدمة (البنية الاقتصادية) والنتيجة (الوضع السياسي) . فالتاريخ « تطور حر » وليس « هندسة ذات اشكال مسبقة » ولا « خططا موضوعة من قبل » . ينبغي الا نؤمن بالسلطة ، بل بالعفوية والحرية ، التي يتعين علينا ان نفهمها بوصفها « المطمح الاساسي » ، حيث ان « النضال الانساني كله هو كد وعمل من اجل خلق مؤسسات اجتماعية تضمن الحرية القصوى » . ومن الواضح ، من الناحية الاخرى ، ان الحرية ينبغي ، ويمكن ، ان تضمنها دكتاتورية ضد « هجمات الاقليات الساعية الى الانقسام » . ولكن هذه الدكتاتورية ستزول بمجرد ان نجعل

في الإمكان خلق وتقوية المؤسسات القادرة على صـــــون الحرية · حقا ـ وهذا ما قرره غرامشي بكـل تأكيـد ـ ان الاشتراكية حرية ، لانها « تطور لانهائي في حكم حرية تنظمه وتسيطر عليه غالبية المواطنين ، او البروليتاريا » · وبدون الحرية من المستحيل توحيد الوعي ، من المستحيل « ان تتجمع صيحات الالم الفردي الصغيرة معا في تناغم كلي » · وكان غرامشي الشاب قد كتب فعـلا في ملاحظـة عـام ١٩١٦ ان البروليتاريا لا تتأثر بالاحكام المبتسرة · انها تجمع الحقيقة من اي بلد ومن اية طبقة تأتي · ولكن الخصوم ايضا يناضلون من اجل ما يعلنون انه مطالبهم العادلة ، واسبابهم الاخلاقية ومثلهم العليا · وفي هذه الحالة فان القوة وحدها تستطيع ان تحسم بينهم · وهذا هو السبب في ان البروليتاريا بقواها الخاصة ، وبعد النصر فان مطالبها العادلة ستنال اعتراف الجميع ، حتى خصومها ·

وبطبيعة الحال هناك مشكلة السلطة ، وهي مشكلة مركزية للغاية · فالعمال والفلاحون يشيرون الى الحزب الاشتراكي بوصفه قيادتهم السياسية الطبيعية ، ويظهرون للحزب بعملهم السياسي السبيل الى السلطة ، الطريق الى حكومة « تقوم دستوريا لا على اساس برلمان منتخب بطريقة الاقتراع العام ، من جانب المستغلين والمستغلين ، وانما عـلى اسـاس نظـام مجالس عمال وفلاحين ، تجسـد حـكم السلطـة الصناعية والسياسية على السواء » ·

وقد اعتبر غرامشي ان المشكلة الاساسيــة للحزب هي مشكلة بناء « جهاز دولة يؤدي وظيفته الداخلية ديمقراطيا ، أي جهاز يضمن لجميع الاتجاهات المناهضة للرأسمالية حرية وامكانية ان تصبح أحزاب حكومة بروليتاريــة ، وان يكــون خارجيا بمثابة آلة لا تهدأ تسحق اجهزة السلطة السياسية والصناعية للرأسمالية » • ولهذا بدا ان غرامشي كان يعتقد على نحو راسخ بالتــطور الحــر للمجتمع الاشتراكــي والبروليتاريا ، بينما بدأ – في الوقت نفسه – انه ينكر ايــة مشروعية للمؤسسات التمثيلية وما يسمى بالديمقراطيــة البورجوازية • وقد كتب في مقال بصحيفة النظـام الجديـد عام ١٩٢٠ :

« ان الجبهة الوطنية هي شكل الرابطة التي تتطابق مــع الدولة المبنية على أساس نطاق اقليمي ، فهي تواصل تنظيم السكان المتوحشين الذين يعبرون عن سيادتهم بالقاء نفاياتهم على الارض واطلاق الصراخ • ان سيكولوجية الجمعيـات السياسية التي تعبر عن سيادة الحكومات الديمقراطية هي « سيكولوجية الحشد » ، اي سيطرة الغرائز الحيوانيــة وسيطــرة انعدام المسؤولية الاجماليــة على العقلانيــة والروحانية » •

والشيوعية هي « انسانية متكاملة » ، ذلك لانها تــدرس قوى تاريخية ذات طابع اقتصادي وروحي ، وتدرس العملية الجدلية التي توحد بينهما وتطورهما • ولكننا « مقتنعون في

اعماقنا بأن الطبقة العاملة سوف تحقق تحررها فقط بالمرور عبر فترة « دكتاتورية » ، فترة قهر ، فترة دولة عمال » . وعلى الرغم من هذا فان الطبقة العاملة هي القوة الوحيدة التي تستطيع ان تسحق الرأسمالية وان توطدضمانات الحرية وضمانات التطور الانساني . فهي بتحررها سوف تحرر في الوقت ذاته كل الطبقات الاجتماعية الاخرى من طغيان الرأسمالية .

من الواضح انه كان يتعين على غرامشي ان يكرس حيزا اكبر لمشكلة العلاقة بين الاشتراكية والحرية في مقالاته كمناضل سياسي صلب ، ولكن هناك ايضا ملاحظتين لهما اهمية اساسية في **دفاتر السجن** ، ومن المفيد معرفتها والتمعن فيها . ففي صفحة من **الماضي والحاضر** بعنوان **المركزية العضوية ، المركزية الديمقراطية ، الانضباط** ، بدأ غرامشي بأن سأل نفسه كيف ينبغي ان يفهم الانضباط، معرفا الاصطلاح بأنه « علاقة مستمرة ودائمة بين القادة والمقودين تخلق ارادة الاشتراكية » . واجاب :

« بالتأكيد ليس كقبول سلبي منبطح للاوامر ، ولا كتنفيذ آلي لمهمة (الامر الذي سيكون ــ مع هذا ــ ضروريا في مناسبات خاصة ، كما هو الحال مثلا في خضم عمل كان قد تقرر فعلا وبدء فيه) ، وانما باعتباره (الانضباط) المتمثل الواعي والجلي للتوجيه الواجب انجازه . ومن ثم فان الانضباط لا يلغي الشخصية بمعنى عضوي ، وانما هو يحد من الانحراف ومن التهور اللامسؤول ، فضلا عن الغرور

الاحمق الذي يتمثل في محاولة التقدم على الاخرين ...
ولهذا فان الانضباط لا يسلب الشخصية ولا الحرية ، ان مسألة « الشخصية والحرية » لا تنبع من حقيقة الانضباط نفسه ، وانما من أصل السلطة التي تفرض الانضباط . فاذا كان هذا الاصل « ديمقراطيا » ، اذا كانت السلطة وظيفة تقنية متخصصة وليست « تعسفا » او فرضا خارجيا وغريبا . فان الانضباط يكون عنصرا ضروريا لنظام ديمقراطي ، اي الحرية » .

بين غرامشي ان الاشتراكية حرية ، حرية مطلقة ضد كل جمود عقائدي ، ضد كل حقيقة موحى بها ، وضد كل مخطط متصور تصورا مسبقا . في صفحة غير عادية من صفحات المادية التاريخية وفلسفة بنيتو كروتشه ★ . فيها قرر غرامشي ان الماركسية تبين كيف ان كل نظرية مستمدة من وضع اجتماعي واقتصادي خاص . ولكن اذا صحت هذه العبارة ، ينبغي ايضا ان نطبق المقياس نفسه على الماركسية ذاتها ، وان نؤمن بانها حتى هي لن تكون النظرية « الاخيرة » طالما انها ترتبط ـ ،وهي ترتبط فعلا ـ ببنية اشتراكية او شيوعية للمجتمع .

« اذا كانت فلسفة العمل (٤) تقرر نظريا ان كل « حقيقة »

★ احد اجزاء دفاتر السجن . « المترجم » .

(٤) يستخدم غرامشي اصطلاح « فلسفة العمل » للاشارة على الماركسية ، وهذا الابدال كان ضرورة فرضتها رقابة السجن .

يعتقد انها ابدية ومطلقة كانت لها اصول عملية وتمثل قيمة « انتقالية » (تاريخية كل تصور للعالم وللحياة) ، فانه من العسير للغاية ـ مع ذلك ـ ان نجعل من المفهوم « عمليا » ان مثل هذا التفسير مشروع ايضا بالنسبة لفلسفة العمل ذاتها ، دون زعزعة تلك القناعات التي هي ضرورية للعمل »·

حقا ان باستطاعة المرء ان يمد نطاق هذا التفسير بعيدا الى حد الاعتقاد بأنه في مجتمع شيوعي في المستقبل ، قد تتلاشى الماركسية وتفسح المجال لتصورات دينية او مثالية ، وهي تصورات ستجد في ذلك العالم والمجتمع نفسه تحررها وحريتها الحقيقية في ان تتحقق بكل وجوهها · « كذلك ينبغي القول أن الانتقال من الضرورة الى الحرية يتم بالنسبة لمجتمع البشر وليس بالنسبة للطبيعة (على الرغم من انه قد تكون لهذا الانتقال آثاره على ادراكنا للطبيعة ، وعلى الاراء العلمية ، الخ) · بل قد يذهب المرء الى حد التأكيد بأنه بينما يمكن ان يصبح مذهب فلسفة العمل بأسره انتقالية في عالم موحد ، فان تصورات مثالية كثيرة ، او على الاقل بعض جوانب منها ، وهي تصورات طوباوية تحت حكم الضرورة ، قد تصبح « حقائق » بعد الانتقال » ·

الفصل الثالث

مفهوم الطبقة
والصراع الطبقي

« في الصراع الطبقي ، المشكلة
« الاخلاقية » الوحيدة هي انتصار
الطبقة » ٠

(غرامشي ، في صحيفة النظام
الجديد ، ٧ اغسطس ، آب ١٩٢١)

لا يوجد في كتابات غرامشي تعريف حاد وواضح للطبقة يمكن لعلماء الاجتماع التصويت عليه ٠ ولكنه مفهوم اساسي في جميع اجزاء مؤلفاته ، يكمن وراء كل تلك الاعتبارات السياسية التكتيكية او الاستراتيجية ، التي تدخل مفهوم الطبقة في واقع الصراع بين الطبقات ٠ ومن الامثلة على ذلك هذه الفقرة من مقال بصحيفة صيحة الشعب نشر في عام ١٩١٨ :

« توجد الاشتراكية في الواقع لا لان توراتي او او آخرين

يرغبونها ، وانما لان هنـاك بروليتاريـا تطمـح الى اقامـة دكتاتوريتها » ·

ان هذه الجملة ترسم بوضوح كاف القيمة الذاتية لمفهوم الطبقة التي تتجاوز الافراد · كذلك فان هذه الفقرة الاخـرى المستمدة من المقال السابق ذكره بعنوان **الثورة على « رأس المال »** :

« اذا كان البلاشفة ينفون قليلا من عبارات **رأس المال** ، فانهم لا ينكرون انه فكـر محايث حـي · انمـا هـم ليسوا « ماركسيين » ، هذا كل ما في الامر · فهم لم يبنوا عقيدة سطحية ذات بيانات لا تقبـل المنازعـة وقطعية دجماطيقية) على مؤلفات **الاستاذ** · انما هم يعيشون الفكر المـاركسي ، النوع من الفكر الذي لا يموت ابدا ، والذي هو استمـرار للفكر المثالي الالماني والايطالي ، والذي اصبح ملوثا بتلبيسات ذات نزعة طبيعية Naturalistic ووضعية Positivistic ادخلت على ماركس· الا ينظر هذا الفكر ابدا الى الحقائق الاقتصادية الفجة على انها العامل الحاسم في التاريـخ ، وانما الاحرى انه الانسان ومجتمع البشر ، المكون من اناس يقتربون الى بعضهم بعضا، ويخلقون عن طريق هذه الاتصالات حضارة وارادة اجتماعية جماعية · انهـم يفهمون الحقائق الاقتصادية ، ويحكمون عليها ، ويخضعونها لارادتهم ، حتى تصبح هذه الارادة هي القوة الدافعة للاقتصاد ، والصاهـرة للواقع الموضوعي الذي يعيش ويتحرك ويكتسب طبيعة المادة

المنصهرة التي يمكن توجيهها في قنوات حيث ترغب الارادة ، ووفقا لما ترغب الارادة » ·

ان الجانب الارادي Voluntaristic (او المثـــالي او البرغسوني) في هذه القطعة من فكر غرامشي بديهي . ولكنه يكون من الخطأ الجسيم الحكم عليها خارج السياق التاريخي المحدد الذي ظهرت فيه ، تماما كما انه يكون من الخطأ المبالغة في أهميتها ·

وبطبيعة الحال فانه من خلال الصراع الطبقي يخلق التاريخ ولكن في حقب استثنائية معينة تتغير العلاقة بين طبقات العالم الرأسمالي وتصبح مشوهة · فيتسارع ايقـــاع التطور · وتستيقظ وتتحد ارادات منفصلة ، على نحو آلي اولا ، ثـم « ايجابيا وروحيا » · ومن ناحية اخرى فانه حق ان الصراع الطبقي ليس فعلا عسفيا ، فعل ارادة · « انه ضرورة صميمية للحكم » · ولا يستطيع المرء ان يعارض او يعرقل التطـور غير المعوق للصراع الطبقي بانحرافات صبيانية ولا هــو يستطيع ان يؤثر على مساره · « خذ من البروليتاريا وعيها الطبقي : (فلا يبقى الا) ★ دمى ، يا لها من حركة ! »

بالنسبة للاشتراكية ، ماذا تمثل الدولة ان لم تكن تمثـل

★ الكلمات بين الاقواس أضفتها لتوضيح الجملة · « المترجم » ·

التنظيم السياسي والاقتصادي للبورجوازية ؟ انها تدعي حل « الصراعات الداخلية والانقسامات بين المصالح المتعارضة ، بطريقة شرعية » ولكن الطبقة المتوسطة ليست شيئا خارج الدولة • فحكومة الدولة هي الجائزة التي تنتمي اليها « بحكم الحق » ، بسبب القوة التي تحوزها • ومن خلال الصراع الطبقي ، ،او الصراع الدولي بين دولة واخرى ، يتعلم الناس ويصبحون متعلمين • ومفهوم الطبقة مفهوم متحرك (دينامي) • وقد يكون الافراد الذين يدخلون الصراع الطبقي باستمرار « غير مهيأين » ، فلا بد من تعليمهم حقيقة الصراع من داخله • ولا يمكن ـ او لا ينبغي ـ للغة التي تستخدم لهذا الغرض ان تكون دائما لغة ابتدائية ، حيث ان الاشتراكيين لا يستطيعون دائما ان يبدأوا ثانية من البداية •

« البروليتاريا بنيان عملي • في الواقع يوجد عمال افراد هم على درجة او اخرى من التعلم ، اعدهم الصراع الطبقي ـ بدرجة او بأخرى ـ لفهم ادق المفاهيم الاشتراكية • وتكيف الاسبوعيات الاشتراكية نفسها على المستوى المتوسط للجماعات الاقليمية التي تخاطبها • ومع ذلك ينبغي ان تكون لهجة الكتابات والدعايات دائما اعلى مستوى بقليل من هذا المتوسط حتى يترك عدد معين من العمال ـ على الاقل ـ وراءهم التبسيطات الغامضة غير المتمايزة التي تعمد اليها الكتيبات الرديئة ، وان يدعموا فهمهم برؤية نقدية أعلى للتاريخ والعالم الذين فيه يعيشون ويناضلون » •

ويزداد ضرورة فوق كل شيء استعداد فكري ووعي ثقافي ، لا تشكله « الكتيبات الرديئة » ، كلما استخدم الاعداء كل وسائل الدعاية لنشر انباء بهدف اخفاء الحقيقة او تحريفها • وقد اكد غرامشي في ملاحظة هامة في مجلة « بين شقي الرحى » في فبراير (شباط) عام ١٩١٦ « ان الحقيقة ينبغي دائما ان تحترم مهما كانت النتائج التي تترتب عليها ، ومعتقدات المرء الخاصة ـ اذا كانت ايمانا حيا ـ لا بد ان تجد في داخل المرء ، في منطقه الخاص ، تبريرا للافعال التي يحس المرء انها لا بد ان تتخذ » • ولكن من الضروري الاحتراس من « ديمقراطية مفرطة التبسيط قائمة على اللغو الاجوف » ، وهي ديمقراطية من شأنها لجم الصراع الطبقي بوضع قوالب نمطية (كليشيهات) او مثل عليا ديماغوجية في التداول من جديد • « لكثير من هذه الاسباب فان الديمقراطية هي ألد اعدائنا • وعلينا ان نكون مستعدين دائما لمحاربتها ، لانها تشوش الفصل الواضح بين الطبقات • بل ان من شأنها على الارجح ان تلعب دور نوابض العربة التي تقوم بتخفيف حمولة المسافرين على العجلات ولمنع الاهتزازات التي يمكن أن تجعلها تنقلب » •

من الواضح ان غرامشي على وعي بمشكلة اساسية تتعلق بالصراع الطبقي ، مشكلة المحاولات المتكررة التي تقوم بها الطبقة المتوسطة ربط ارستقراطية عمالية بها وبمصيرها حتى تثلم القوى الثورية للبروليتاريا للابد او لفترة طويلة جدا • « المسألة ليست ان الانجازات الديمقراطية غير مرغوب

فيها ، وانما فقط كوسيلة وكسبيل نحو تطور اسرع ، وليس كغاية قصوى للتاريخ • فهي ينبغي ـ باختصار ـ ان تصبح وسائل للصراع الطبقي لا معاذير للتهدئة واشاعة التآخي العام » • وبعبارة اخرى فان الصراع الطبقي صريح ثوري ، ولا يمكن التوفيق بينه وبين اصلاحات عامة ذات طابع « ديمقراطي » عام الا ان يكون ذلك بطريقة انتقالية • لقد قال غرامشي ان الصراع الطبقي اتخذ طابعا ثوريا ، ليس فقط في ايطاليا ، وانما في كل بلدان اوروبا والعالم • « والتصور الذي تتميز به الاممية الثالثة ، والذي ينبغي طبقا له ان يوجه الصراع الطبقي نحو اقامة دكتاتورية البروليتاريا قد تخطى الايديولوجية الديمقراطية وينتشر بين الجماهير » • ان للصراع الطبقي هدفا واحدا ـ هو اقامة نظام جديد لعلاقات الانتاج والتوزيع في المجال الاقتصادي، « على اساسه يصبح من المستحيل وجود المجتمع المنقسم طبقيا » • وفي الحقيقة يعمل الصراع الطبقي في اتجاه الازاحة المطردة لسلطة الدولة ومن أجل « الزوال المنظم للتنظيم السياسي الدفاعي لطبقة الربوليتاريا ، التي تختفي كطبقة لتصبح الانسانية » •

الطبقة وحدة افراد فقدوا فرديتهم واكتسبوا وعيا طبقيا تحت ضغط احداث خارجية هائلة • وعند غرامشي ان الطبقة العاملة شيء يختلف كثيرا عن الـ « Plede ★ الاسبانية ،

★ الكلمة الاسبانية Plede معناها القاموسي الجموع او الغوغاء • «المترجم » •

وهي فردية شأن كل تجمعات بشرية لم تكابد التجربة الاليمة ، تجربة الاستغلال الحاد من جانب النزعـــة الصناعية » ·

وطبقا للظروف السياسية يمكن للصراع الطبقي ان يمضي بطرق بسيطة او مركبة ، او حتى بطرق لا يمكن التنبؤ بها · وتعقد الطبقة المتوسطة اغرب التحالفات من أجل ان تحفـظ تفوق الدولة ، الذي تعتقد دائما انه يؤول اليها بحكم الحق · « وكما في روسيا وفي المانيا ، كذلك في ايطاليا ، يعـــرف الصراع الطبقي بأنه صراع يأخـــذ البوليس البورجوازي والقتلـــة الايديولوجيون المأجورون لرأسمـــال المال صف الديمقراطية الاشتراكية ليحاولوا ابقاءهم على رأس التنظيمات النقابية والسياسية » · ولكن ـ يمضي غرامشي قائلا ـ من اللحظة التي انتصرت فيها الثورة البلشفية في روسيـــا عدلت علاقات القوى بين دولة واخرى ايضا ـ بدرجـــة كبيرة ـ علاقة القوى الداخلية بين طبقة واخرى ، فاتحـــة آفاقا جديدة للنضال البروليتاري ·

« ومن المحتمل ان ينتهي الصراع الطبقي في بعض البلدان بتدخل قوة جديدة في المنافسة ـ روسيا ـ تحدد ، بجذبهـا لاقدر العمال ، المرحلة الاخيرة من الانهيار الراسمالي ، حيث انها تضع الصناعة الغربية في ظروف نقص تقني غير قابل للاصـــلاح » ·

· يفرض الصراع الطبقي على الطبقة العاملة بالمثل مشكلات هائلة · وقد قال غرامشي ان لدى العمال اليوم « تصورا

للعالم يقوم على التطور التاريخي للصراع الطبقـي · ولكن هذا الصراع لا بد ان ينتهي بتحقيق مجتمع لا يعود منقسما ، ستختفي فيه الطبقة العاملة لكي تصبح الانسانية ، والعمال واعون بهذا ··· فاذا ما ازيلت الطبقات وقمع الصـراع الطبقي ، فهل لن يعود وجود للتطور التاريخي ، هل ستقف آلة التقدم ؟ ان الاجابة بالغة الصعوبة ، وهذه المشكلة هي التي يبدو انها تقلق كثيرين من العمال وتخلق لهم من جديد « مشكلات ميتافيزيقية » · وبالاضافة الى هذا فان باستطاعة المرء ان يقول ان هذه « المشكلات الميتافيزيقية » تنتمي الى البروليتاريا وحدهـا ، مـا دامت البورجوازية لا تطرح ولا تستطيع ان تطرح السؤال : ماذا يأتي بعد الغاء الطبقات ؟ ومع ذلك فان تقديم اجابة امر ممكن ، حتى في ظروف التطور التاريخية والاجتماعية الحاضرة· ما ان يلغى الصراع الطبقي سيبقى « الصراع ضد قوى الطبيعة الغاشمة » ، وهو الصراع الذي سيتطور على نطاق لم يشاهد من قبل ، وسيحول تحويلا كاملا خصائصه واولئك الناس الذين يشاركون فيه ، حيث انه لن يكون بعد ذلك صراع« كائنات حية ضد كائنات حية اخرى»·

ان الصراع الطبقي يوجد بالفعل ، حتى على الرغم من ان البورجوازية واولئك المفكرين ، الـذين يشكلون « قتلتهـا المأجورين » يحبون ان ينكروه ، ولهذا السبب فانهم يضعـون انفسهم خارج التاريخ ويعجزون عن ادراك ماهية العمليـة التاريخية وجوهرها الخاص · « لهذا فانه محكوم عليهـم بالا يفهموا اي شيء عن تطور تاريخ العالم وعن التاريـخ

القومي الذي هو مندمج في النظام العالمي ويطيـــع ضغوط الاحداث الدولية » • لماذا تنكر البورجوازية وقتلتها المأجورون الصراع الطبقي ، وجود الصراع بين الطبقات ؟ لانه يبـــدو – لسوء الطالع – ان التاريخ الماضي يبرر هذا الانكار في عدد من المناسبات ، بسبب خوف الطبقة العاملة واحجامها وجهلها وتفككها • فقد كانت هناك لحظات تشتتت فيهـا وجهة الطبقة العاملة ، اثناءها « لم تكن الطبقة العاملة قادرة على ان تتبدى كأي شيء الا كبورجوازية صغيرة جديدة ، كانت عاجزة ودون غاية « تاريخية حقيقية » •

والصراع الطبقي الذي كان ينبغي ان يضع الاسس لدولة بروليتارية « تتأثر في عديد من الافعال المجزأة والافعـال التدميرية » ، الامر الذي مكن البورجوازية الصغيرة ، التـي هي نفسها مبعثرة ومتفرقة ، من ان تستفيق وتنظم من جديد• والان فان البورجوازية « وقد رأت ان الصراع الطبقي لـم يستطع ان يتطور ويؤتي ثماره ، تنكر مرة اخرى وجوده ، وتنشر من جديد الرأي القائل بأنه مجرد مسألة جنوح ، مسألة وحشية ، مسألة شهوة دموية » • ليس هذا فحسب ، وانما هذا الحكم السريع من جانب البورجوازية جلب معه الرجعية ، اي الدفاع المسلح عن البورجوازية ، التي كانت في الحقيقة – في فعل انكار وجود الصراع الطبقي ذاتـه – تشن هـذا الدفاع ردا على المشكلات التي لم تكن قـد حلت على يـد البروليتاريا • « والرجعية – كسيكولوجية منتشرة – هـي نتيجة هذا الافتقار الى الفهم • وعناصر هذه السيكولوجيـة

هي خوف مجنون وفسوق بالغ الانحطاط » • ان البورجوازية تجعل البروليتاريا تدفع ثمنا باهظا عن الاخطار التي ترتكبها والضعف الذي تبديه ، وعن خوفها وترددها ، وجبنها الصغير والكبير • البورجوازية لا تنقسم ابدا ، ولا تبدي ابدا خوفا من توجيه الضربات ، ومن الرد على الصفعات التي توجه اليها • وباستطاعة البروليتاريا ايضا ان تتعلم استخدام الاسلحة نفسها ، او ان تكون حاسمة وموحدة بالقدر نفسه • « نعم ، ان شعارنا تجاه هؤلاء الناس ، هذه النظم ، هذا الجبن الخلقي ، هذا الفيض المقيء من الوضاعة والمذلة ، هذا المشهد من الحماقة العاجزة البائسة ، عناصر الانهيار والتفكك هذه ، نعم شعارنا تجاهها هو : « دمروا » •

الثورة او الرجعية ، وليس هناك مفر من هذه المحنة التاريخية المأساوية • لقد ذهب غرامشي الى ان البورجوازية كان لديها من القوة ما يكفي لكي تفرض حلا على الطبقة العاملة ، التي لم تكن لتعرف كيف تفوز بالسلطة وتسقط خصومها ، او لم تكن لتتحمل العواقب المأساوية لترددها ، لضعفها • وكتب غرامشي بروح تنبؤية في صحيفة **النظام الجديد** يوم ٨ مايو (أيار) ١٩٢٠ : « ان المرحلة الحالية من الصراع الطبقي في ايطاليا هي المرحلة التي تسبق ، اما غزو السلطة من جانب البروليتاريا الثورية من أجل الانتقال الى انماط جديدة للانتاج والتوزيع تسمح باستعادة قوة الانتاجية ، او رجعية هائلة من جانب الطبقة المالكة والفريق الحاكم » •

ولكن منذ ذلك الوقت تحلل الصراع السياسي في ايطاليا ، وانتشرت الفاشية ، يؤيدها ملاك الاراضي و «الفريق الحاكم» وقوى النظام ، ومن « وادي بو » ، وقليلا قليلا اخذت تغزو كل ايطاليا • وكانت سنة ١٩٢١ سنة حاسمة • ومع ذلك فبعد احتلال المصانع في سبتمبر (ايلول) من السنة السابقة لم تكن البروليتاريا تعرف كيف تتصرف ، كيف تنظم نفسها ، كيف ترد على الضعف ، كانت النقابات والزعماء السياسيون للطبقة العاملة ، قد قرروا بالفعل التسليم وعدم مواصلة النضال • وهذا ما جعل انقسام الحزب الاشتراكي الايطالي في لوغورن في يناير (كانون الثاني) عام ١٩٢١ ، وتكوين حزب ايطاليا الشيوعي امرين ضروريين • وبعد الانقسام كان الزعماء السياسيون الاشتراكيون وزعماء النقابات لا يزالون يشعرون بانهم منساقون اكثر واكثر نحو الانزلاق في اتجاه اليمين ، « دفاعا عن انفسهم » من اعدائهم على اليسار ، ونحو مهاجمة رفاق الامس في اعمدة صحفهم • «فبالديزي (١) يفكر في « المشكلات الاخلاقية » • والفاشية عند ستنتريللو مشكلة اخلاقية • وقد يعطيه ج•م• سيراتي (٢) كتيبا زهيدا في الدعاية الابتدائية ، حتى يستطيع ان يتعلم منه انه في الصراع الطبقي المشكلة « الاخلاقية » وحدها هي انتصار الطبقة » •

---

(١) واحد من زعماء الصف الاول لنقابات العمال •

(٢) امين الحزب الاشتراكي •

جاءت الفاشية الى السلطة ، وبعد اشهر قليلة الغت كل ظل لحياة سياسية واسست دكتاتورية · وكان الصراع السياسي في عامي ١٩٢١ و ١٩٢٢ قد اجبر غرامشي والشيوعيين على ان يقفوا بصراحة ضد الحزب الاشتراكي ، ولكن الازمنة تغيرت ·واصبحت اختيارات جديدة وتحالفات جديدة امرا محتوما · وكان من السبل التي لا بد من سلوكها (على النحو الذي نجده في رسالة من غرامشي الى سكوتشيمارو والى توللياتي عام ١٩٢٤) « النضال ضد الارستقراطية العمالية اي ضد النزعة الاصلاحية » ·

وتحليل الطبقات والصراع الطبقي في **دفاتر السجن** اقل جلاء في تحديده ، بشكل واضح ، حتى في اختيار الكلمات ، كما في الحالات التي يستعاض بها بتعبير المجموعة **الاجتماعية** Social group عن كلمة **طبقة** · ولكن هذا امر واضح بالقدر نفسه ــ كتابات غرامشي في **دفاتر السجن** اكثر توسعا ، واكثر « عمومية » ، ولهذا فانها تفضي الى افكار هامة للغاية · فمثلا في الـ « **ريزور جيمنتو** » نجد مفاهيم أساسية عديدة ·

« ان تفوق مجموعة اجتماعية يظهر على نحوين ، اما في شكل « سيطرة » او « قيادة اخلاقية وفكرية » · تسيطر مجموعة اجتماعية على خصومها الذين تنحو نحو «تصفيتهم» او اخضاعهم بوسائل تتضمن استخدام القوة المسلحة ، وكذلك فانها تقود المجموعات الحليفة والمرتبطة بها ·

وباستطاعة مجموعة اجتماعية ، وينبغي بالفعل ، ان تقود قبل ان تفوز بسلطة الحكم · (وهذا حقا واحد من الشروط المسبقة الجوهرية لكل غزو للسلطة) · وبعد ذلك ، عندما تمارس السلطة ، وحتى اذا كانت تمسك الاعنة بحزم ، فانها تسيطر ، ولكن لا بد ايضا ان تستمر في ان تقود · لقد استمر المعتدلون في قيادة حزب العمل حتى بعد عام ١٩٧٠ » ·

ومن ثم فلا بد لطبقة ان تؤدي وظيفة هيمنة حتى قبل غزوها للسلطة ، لان « من الضروري الا تعول فحسب على القوة المادية التي تعطيها السلطة من أجل ان تمارس قيادة فعالة » · وبينما تحترم الطبقات « الحاكمة » في الدولة ، فان الطبقات « الخاضعة » لا تكون متحدة ولا تستطيع ان تحقق وحدة اذا لم تقهر الدولة وتحقق السلطة · حتى ذلك الوقت ستكون دائما خاضعة لمبادرة المجموعات المسيطرة ، حتى في لحظات التحرر ، والانتفاض ، والعصيان · « انما انتصار « دائم » هو وحده الذي يسحق خضوعها ، وحتى هذا لا يحدث بصورة فورية » ·

كذلك كان غرامشي مشغولا بدرجة كبيرة بمشكلة الهيمنة في الماضي والحاضر · وقد قال ان الطبقات الخاضعة لا بد ان تكتسب وعيا بوجودها الخاص وبقوتها الخاصة · ومع ذلك فانها لا تنجح في تحقيق هذا الا الى الحد الذي توفق فيه الى تبين وتقييم وجود وقوة الطبقة المسيطرة · « ان الطبقات الادنى ، كما كانت في موقع الدفاع تاريخيا تستطيع ان تصبح واعية بذاتها فقط عن طريق السلب ، عن طريق معرفة

شخصية العدو وحدوده الطبقية • ولكن هذه العملية نفسها لا تزال في بداياتها ، على الاقل على نطاق قومي » • كذلك فان مفهوم الطبقة يرتبط دائما ـ بدرجة او بأخرى ـ بمفهوم الدولة ، تماما كما ان مفهوم الصراع بين الطبقات مربوط بمفهوم غزو السلطة •

« ان مفهومي الثورة والاممية ، بالمعنى الحديث لهاتين الكلمتين ، يتطابق مع التصورات الدقيقة عن الدولة والطبقة • والفهم غير السليم للدولة يعني وعيا طبقيا غير سليم ، وفهم ما هي الدولة يتم ، ليس فقط بمجرد ان يدافع المرء عنها ، وانما ايضا حينما يهاجمها لاسقاطها » •

ومرة اخرى ، في **ملاحظات حول ماكيافيللي** ، نجد تحليلا حادا ودراماتيكيا للصراع الطبقي ، كما تطور في ايطاليا خلال السنوات التي كانت الفاشية فيها قد تمكنت من المجيء الى السلطة • لقد شرح غرامشي ان الطبقة العاملة تملك طرقها الخاصة في الصراع ، وهي لا تستطيع ان تقلد طرق الطبقة المتوسطة باسلوب تافه • ولقد كان خطأ جسيما لاقصى حد ان نعتقد انه كان من الممكن استخدام واحد من اشكال اللاشرعية لمحاربة شكل اخر ، وان ننخدع بأن الدولة يمكن ان تبقى داخل اطار الشرعية لاطول وقت ممكن ، حتى بهذه الطريقة للحفاظ على وظيفة مسيطرة للطبقة التي تمسك بالسلطة ، « وثمة عنصر اخر ينبغي ان يؤخذ في الاعتبار : في الصراع السياسي من المستحيل تقليد طرق صراع الطبقات

المسيطرة ، دون السقوط بسهولة في كمائن • وكثيرا مـــا تحدث هذه الظاهرة في الصراعات الحاضرة • ان تنظيمـا لدولة اعتراه الضعف هو مثـــل جيش اعتراه الضعف • فالارديتي ــ اي التنظيمات المسلحة الخاصة ــ تدخل الحلبة لتحقيق مهمتين : استخدام اللاشرعية على حين تظهر الدولة انها باقية داخل اطر **الشرعية** ، واستخدامها لاعادة تنظيـم الدولة نفسها • ومن الغباء الاعتقاد بان باستطاعة المـرء ان يعارض نشاطا خاصا غير شرعي بنشاط اخر مماثل اي محاربة الارهاب بالارهاب ، انه يعني الاعتقاد بـأن الدولـة تظل قاصرة دائما ، وهو ما لا يحدث ابدا ، بعيدا تماما عن كل اختلافات اساسية ، ان طبيعة الطبقات تفضي الى اختلاف جوهري : ان طبقة يتعين عليها ان تعمل ساعات منتظمة كل يوم لا تستطيع ان تمتلك تنظيمات هجومية دائمة ومتخصصة كما تستطيعه طبقة لديها اصول مالية وافرة ، واعضاؤهـا ليسوا مربوطين بوظيفة منتظمة » • (٣)•

وفي مؤلفات غرامشي توجد فقرات لا تحصى تتعلـق بالطبقات والصراع الطبقي • وكثير منها لا يمكن فهمه فهما كاملا الا في علاقته بموضوعات ومشكلات اخرى سيتـــم تناولها فيما بعد • لقد فتن الموضوع غرامشي خــــلال فترة

---

(٣) اشارة الى استخدام اصحاب القمصان السود المأجورين الذين كانوا ينتقلون من مدينة الى مدينة لمهاجمة تنظيمات العمال والفلاحين •

حاول فيها اللبس الايديولوجي والاضاليل السياسية ، او نجح فعلا في ، ان يوجه الطبقة العاملة الى طريق زائف ، ليقودها بعيدا عن النضال الثوري ، لينهك قواها وطاقاتها ، ليقسمها ويحطم تماسكها ، ليحطم وعيها بكونها طبقة هي سيدة المستقبل . ولم يفقد غرامشي ابدا وعيه بهذا ، سواء في مقالاته الاولى ، او في رسائله ، أو في مذكرات السجن ، او في النضال اليومي . ويمكن ان نرى هذا ـ مثلا ـ في التقرير عن تدخله في مجلس النواب عام ١٩٢٥ . « اننا واثقون من اننا نمثل غالبية السكان ، اننا نمثل المصالح الجوهرية للشعب الايطالي . ولهذا فان العنف البروليتاري تقدمي ولا يمكن ان يكون منظما . اما عنفكم فهو منظم وتعسفي بطريقة منظمة ، لانكم تمثلون اقلية محكوما عليها بالاختفاء » . والمخاطب هنا هو ـ بطبيعة الحال ـ النواب البورجوازيون والفاشيون الحاضرون في المجلس .

الفصل الرابع

الصراع السياسي : الحزب ، وحدة حركة الطبقة العاملة ، وغزو السلطة

« حزبنا ليس حزبا ديمقراطيا ، على الاقل بالمعنى التقليدي ، الذي يعطى عادة لهذه الكلمة » ·
(غرامشي ، مايو (ايار) ١٩٢٥)

« يختلف الحزب الاشتراكي اختلافا اساسيا عن الاحزاب السياسية الاخرى · بل انه ليس حتى حزبا بالمعنى العضوي والكلاسيكي للكلمة · فالاحزاب السياسية بمثابة متحدثين باسم جماعات اجتماعية ، لا باسم طبقات · انها لا تمثل برمتها طبقة تملك جهازها التنفيذي في الدولة · اما الحزب الاشتراكي فهو مضاد الدولة * ، وليس حزبا · تريد

---

* او الدولة المضادة · « المترجم »

الجماعات البورجوازية ان تغير الدولة تغييرا هامشيا عن طريق احزابها ، بمجرد اعطائها اتجاها واحدا معينا بدلا من اتجاه اخر · اما الحزب الاشتراكي فيريد ان يعيد صياغة الدولة ، لا ان يحسنها ، يريد ان يغير كل قيمها · يريد أن يعد تنظيمها ، مؤسسا اياها على قوى اجتماعية ومبادىء اخلاقية مختلفة اختلافا كليا عن القوى والمبادىء الراهنة » ·

كتب غرامشي هذا في صحيفة صيحة الشعب يوم الثاني من مارس (آذار) ١٩١٨ ، قبل اشهر قليلة من نهاية الحرب ★★ وكان قد اصبح بالفعل صحفيا منذ عدة سنوات وصار لديه من الوقت لكي يطور ويتأمل الموضوعات الاساسية لعمله الخاص · ومن البداية الاولى كان قد بدا له ان واحدا من هذه الموضوعات هو موضوع ديمقراطية العمال الحزبية، والبيروقراطية ، والمركزية ، وعبادة الشخصية ·· وهو موضوع فاتن ادركه غرامشي بكل اهميته · وقد لاحظ انه في الصراع من اجل غزو السلطة تتمثل قوة طبقة اجتماعية ما بواسطة الحزب ، الذي هو « المطور للاشكال والوسائل التي تحقق الطبقة بواسطتها النصر » · فاذا كان الحزب يريد فعلا ان يكون ما ينبغي ان يكونه حتى يغزو السلطة ، تعين عليه ان يكون « هو والطبقة الاقتصادية شيئا واحدا » ، ولكي

★★ المقصود الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) «المترجم» ·

يصون نفسه ـ في الوقت ذاته ـ من الفوضى والتحول المتصل ، يتعين ان يعرف كيف يبقى مستقلا ذاتيا ومتميزا • يتعين ان يعرف كيف « يؤكد شخصيته الفريدة » •

الحزب هو الجماهير • ومن الخطأ الاعتقاد بأن الحزب شيء والشعب شيء اخر ، والاعتقاد بذلك معناه ان من غير الضروري تربية الجماهير سياسيا لمجرد ان السيطرة البورجوازية تعرقل ذلك • وبالمثل فان من الخطأ الظن بانه من الضروري الانتقال فورا الى المرحلة الثورية والفوز بالسلطة . اعتقادا بانه عندئذ فقط ـ وبعد غزو السلطة ـ يكون من الممكن انجاز عمل واسع وعميق من التربية السياسية • ولهذا يتحدث ليونيتي (١) Leonetti عن « نحن » وعن « الشعب » ككيانين منفصلين : عنا نحن (من يكون هؤلاء ؟) بوصفنا حزب العمل : وعن الشعب كقطيع من العميان والجهلة • وهو يعني حزب عمل لا كما هو اليوم، حيث يتشكل بواسطة الصراع السياسي الحديث الذي يتكون من الدعايات الذي تشارك فيه اعداد لا حصر لها ، وانما

---

(١) واحد من اهم زعماء الحزب الشيوعي الايطالي في سنواته الاولى •

كما كان يفهمه اعضـــــاء جماعـــــات الكاربوناري ★
[illegible] عام ١٨٤٨ ـ الصدام التحريضي بين اربعـة
من المتامرين واربعة من رجال البوليس بالملابس المدنية ٠ »
ويخلق تنظيم هذه الجماهير مشكلات اخرى :

« لا يمكن لاحد ان يشك في ان التنظيم يكون عقبـــة امام المستقبل السياسي حينما يصبح غاية في ذاته ، وبقدر ما يفتت الطبقة بروح نزعة الدمج وما هـــو اسوأ ، روح الانقسامات النقابية ٠ وهناك امثلة وفيرة يمكن ذكرها كمـا يعرف كل واحد » ٠

وتبقى المهمة الهائلة لزعماء حزب ما هي مهمة تأميـن الا يصبح التنظيم غاية في ذاته ، وفوق كل شيء الا يخمد او يحرف التيار الثوري للطبقة المنظمة ٠ وينبغـي الا يهمـل اي من الاهداف السياسية ، او ان يتغير اي مـــن المهـام الجماعية :

« لا يستطيع الحزب الاشتراكي ان يوجد اذا لم ينفذ كـل

★ جماعات ثورية سرية انتشرت في اوروبا في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، ولكن الاسم يطلق دون حصر المعنى على اي متآمر ايطالي في ذلك الوقت ٠ والمعنى الحرفي للكلمة الايطاليـة هو « حارقو الفحم » ٠ (المترجم)

مهامه تنفيذا شاملا . اذا لم يثبت ذاته بالكامل بكل تركيبها وبكل نشاطاتها المتنوعة » .

ان الحزب الاشتراكي يشكل أداة الديمقراطية البروليتارية . وبهذا المعنى يمكن تعريفه بأنه « قدوة » . انه حقا نموذج لمجتمع يتخذ لنفسه بحرية مذهبا ما ، وهو يؤدي هذا العمل مدركا تماما لقيمته . ولن يقام المجتمع الشيوعي الا بحركة عملاقة للجماهير من خلال اجهزة نضالها، وفوقها جميعا الحزب .

« ان الحزب الاشتراكي هو بغير شك « الوسيط » الاهم في هذه العملية ، عملية التفكيك واعادة التشييد ، بوصفه شكلا مرنا وطيعا في يد الزعماء » .

وهدف الحزب ان ينهي الحكم الاقتصادي التنافسي ، وان ينتزع من البورجوازية قاعدتها الطبيعية المؤلفة من الاجماع الديمقراطي للرأي . وان يجعل الجماهير تفهم ان استيلاءها ليس بغير شرعية اجتماعية ، وانما هو « ضرورة موضوعية» « هو اللحظة المحتومة لعملية جدلية لا بد ان تفضي الى تمزيق عنيف ، الى توليد جديد لمجتمع » . والعمل المطلوب ضخم والمهمة التاريخية ماثلة ، ولكن بهذه الطريقة وحدها يستطيع الحزب ان يطمح في ان تتوحد هويته مع الوعي التاريخي للبروليتاريا وان يقود الحركة .

ومع ذلك فانه تبقى لهذا كله وظيفة سلبية • فمن هذه اللحظة فقط تبدأ ادق مراحل العمل ، المرحلة الايجابية :

« تفعل التصورات التي ينشرها الحزب ، بطريقة مستقلة ذاتيا . فعلها في الوعي الفردي والاشكال الاجتماعية الجديدة على أساس هذه التصورات • وهي تؤدي الى نشوء مؤسسات تعمل بواسطة القوانين الداخلية، الى أدوات جنينية للسلطة تنفذ بها الجماهير حكمها ، وتصبح الجماهير فيها واعية بمسؤولياتها التاريخية او برسالتها المحددة ، رسالة خلق الشروط لشيوعية خلاقة » •

ان الحركة هي بواسطة الجماهر ولا يمكن ان تنتمي الا الى الجماهير ، ودون مشاركة الجماهير لا يكون – ولا يمكن ان يكون – للصراع السياسي للحزب معنى ، وانما « يبقى الحزب المستوى الاعلى لهذه الحركة الجماهيرية التي لا تقاوم • ويمارس الحزب اشد اشكال الدكتاتورية فاعلية ، تلك التي تنشأ عن مكانته ، والتي هي القبول العفوي والواعي لسلطة يعترف بانها لا غنى عنها لنجاح العمل الجاري اداؤه • » واذن فهنا يكمن الخطر الكبير على الثورة البروليتارية – الخطر الوشيك الكامن في البنية الهرمية ذاتها للأداة السياسية للتنظيم والصراع ، وهو خطر احتمال ان ينتصر داخل الحزب تصور بيروقراطي للسلطة ؛ خطر تجمد الحركة على القمة ، خطر تحنيط الوسائل والغايات •

« لا سمح الله ، لانه يسبب تصور انقسامي لوظيفــة الحزب في الثورة ينبغي ان تكون لدى المرء ادعاءات يجعل هذا الترتيب الهرمي ملموسا ، وبتجميد الجهاز الحاكم للجماهير في الحركة بتحويله الى اشكال ميكانيكية للسلطة المباشرة ، وبحصر العملية الثورية داخل حدود الحزب ، ان المرء قـد يفلح في تحويل قسم من البشرية ، وقد يفلح في « الهيمنة » على التاريخ ، ولكن العملية الثورية الحقيقية ستفلت مـــن سيطرة ونفوذ الحزب الذي اصبح ـ على نحو لا شعوري ـ اداة للنزعة المحافظة » ٠

والخطر الكبير الاخر الذي يتعين على الحزب ان يتحاشاه هو خطر الانغلاق داخل اللعبة الخالصة للنزعة ـ البرلمانية ، خطر التحول الى« مجرد حزب برلماني لديمقراطية بورجوازية، يعنى فقط بالبيانات السياسية السطحية للفريق الحاكم » ٠ ولهذا فان من الضروري للحزب ان يعرف كيف يُحول ذاته ، وان يعرف كيف يكتسب شخصية سياسية محددة ومتميزة ، وكيف يصبح « حزب البروليتاريا الثورية التي تناضل من اجل اقامة مجتمع شيوعي من خلال دولة العمال ، حزبا متماسكا متجانسا له نظريته الخاصة، وتكتيكاته الخاصة، وذا انضباط دقيق لا يلين » ٠ كذلك لا بد من شن صراع حاســم داخـل الحزب من اجل ابعاد جميـــــع الاصلاحيين ، المتشككين ، والخونة الاجتماعيين ، والتقسيميين ، كل اولئـــك الذيـن يدمرون تماسكه ووحدته وقوته :

« اولئك الذين ليسوا شيوعيين ثوريين ينبغي ابعادهم من الحزب • ويتعين على القيادة ـ متحررة من مشاغل الحفاظ على الوحدة والتوازن بين الاتجاهات المختلفة والزعماء المختلفين ـ ان توجه كل طاقتها الى اعادة تنظيم قوى الطبقة العاملة على صعيد حزب » •

فكيف يكون بامكان الحزب ان يحفظ ديناميته الثورية ، وأن يتفادى الانحراف عن المهام الاساسية للصراع السياسي ، وكيف يكون بامكانه ان ينجح دائما في ان يستمع باستمرار الى صوت الجماهير وان يترجم ارادتها ؟ جزء من هذه المهمة ان يبقى ـ طبعا ـ على اتصال بفروع الحزب • ينبغي ان « يصبح القوة المحركة للعمل البروليتاري في جميع جوانبه • » ولكن هل يكفي هذا لازالة جميع اخطار هيمنة البيروقراطية ، واخطار الانكماش ؟ وهل العلاقة بين الجماهير والحزب بسيطة او مركبة ؟ ماذا تعني « الديمقراطية » داخل الحزب او ماذا يمكن ان تعني ؟ على سبيل المثال ، ان العمال يدعون احيانا للادلاء باصواتهم في استفتاء • هذا المنهج ، مع ذلك ، « ديمقراطي متأنق ومناهض للثورة • انه يصلح لتقوية جماهير السكان غير المتبلورة وللسيطرة على الطلائع التي توجه الجماهير وتعطيها وعيا سياسيا • ان الاشتراكيين لم يعودوا بحاجة الى الاعتقاد ـ كما كان يعتقد كارل ماركس (٢) عن الطبقة العاملة في

---

(٢) الحقيقة ان تعليق ماركس هذا الوارد في كتابه الثامن عشر من برومير لويس بونابارت كان يشير الى الفلاحين وليس الى العمال.

زمنه ـ بأن الجماهير هي جوال من البطاطا · ولكن ـ وفقا لما يذهب اليه غرامشي ـ على الرغم من الانتشار بالخاصة الشعرية للوعي الطبقي ، فانه لا يزال من الممكن ان نقرر ان عملا ثوريا لا يمكن الا ان تقوده طليعة ثورية ، ان تقوده نخبة قوة مستعدة وواعية · » يقيم قادة حركة الطبقة العاملة انفسهم على قاعدة من « الجماهير » ، اي انهم يطلبون رضاء الجماهير اولا عن اي عمل ثم يمضون الى التشاور في الاشكال التي اختارها والوقت الذي اختاروه · ومع ذلك فان حركة ثورية لا يمكن الا ان تقوم على أساس طليعة بروليتارية ، ولا بد ان تقاد دون مشاورة وقائية ، دون جهاز من الجمعيات النيابية · فالثورة مثل الحرب ، ينبغي ان تعد بدقة بواسطة قيادة عليا عمالية ، تماما كما تعد الحرب بواسطة القيادة العليا للجيش · ولا تملك الجمعيات (النيابية) الا ان تصدق على ما حدث فعلا ، مشيدة بالنجاحات ومعاقبة الاخفاقات بطريقة لا تعرف الصفح » · والثورة ليست ابدا قرار الجماهير او عمل جمعية نيابية أو ارادة استفتاء شعبي ، ذلك لانه « لا حركة ثورية تنطلق بمرسوم من جمعية وطنية للعمال » · الثورة يرغب فيها ، ويتقرر القيام بها ويُجري توجيهها ، بواسطة اقلية مستعدة وواعية الى اقصى حد ، اقلية يتعين عليها ان تجيب الجماهير عن مسلكها ، ويتعين عليها الا تفقد اتصالها بالجماهير ، والا فانها فسوف تتكبد هزيمة سياسية لا سبيل الى اصلاحها · ولكن مما لا شك فيه « ان واجب الطليعة البروليتارية ان تحفظ الروح الثورية متيقظة باستمرار بين

الجماهير ، وان تخلق الظروف التي تكون الجماهير فيها مستعدة للعمل ، والتي تستجيب فيها الجماهير فوريا للشعارات الثورية » . وبدون التنظيم السياسي للحزب لن تستطيع الطبقة العاملة ابدا ان تفيد من انهيار وتفكك الدولة البورجوازية .

عند غرامشي ان الحزب الاشتراكي لم يكن يمكن ابدا ان يوائم مهمته لانه كان يحتوي « بين صفوفه على التناقضات نفسها التي تمزق الدولة البورجوازية اربا » . وبسبب هذا كان وجود حزب شيوعي قوي « ممركز بصورة صارمة »امرا ضروريا . ولقد تعين عليه ان يحارب النزعة الاصلاحية لدى الزعماء النقابيين ولدى الحزب الاشتراكي ، وانيحارب ميلهم لان يكونوا مستقلين عن الجماهير :

« يحتقر المسؤولون الاصلاحيون الجماهير العاملة ، تماما كما كان المانداران (الاعيان) ـ رجال الطبقة العليا ، اولئك الذين ينحدرون من البلاط الامبراطوري الصيني ـ يحتقرون رعاياهم الجهلاء الاقذار المأخوذين بالخرافات » .

ويتعرض العمال لخطر الوقوع تحت هيمنة الحزب والنقابات ، خطر ان تجتاحهم الالة البيروقراطية التي هي اقوى واقسى منهم بكثير ، والتي تتجاهلهم وتنساهم وتلعنهم وتخونهم :

« ان الضمان الوحيد لحرية العمال وامنهم ، الضمان

الوحيد الا يصبح المسؤولون « ماندارانـ» هو سيطرة الحزب الشيوعي ، الذي يظهر انه يعرف كيف يفرض انضباطا على اعضائه وأنه ليس خائفا من طرد « كبار الشأن » • فالمسؤول الشيوعي يخضع لسيطرة جميع تنظيمات الحزب الشيوعي ، الفرع والاتحاد الاقليمي ، واللجنة التنفيذية الوطنية ، واللجنة التنفيذية الاممية • انه لا يستطيع ان يصبح ماندارانـ ، او ان يصبح حاكما للجماهير ، انما يتعين عليه ان يكون جنديا منضبطا لقضيةالعمال ، لقضية الثورة العالمية » •

كل هذه الافكار مستمدة من مقالات ووثائق كتبها غرامشي فيما بين عام ١٩١٥ وعام ١٩٢١ ، ولهذا فهي متأثرة ايضا تأثرا مباشرا بالصراع السياسي ـ المرير للغاية في بعض الاحيان ـ الذي كان يقسم ما بين الشيوعيين والاشتراكيين • ولقد اتيحت لغرامشي في وقت لاحق الفرصة لان يعيد النظر في الجوانب الايجابية والجوانب السلبية للنشاط الذي كان يقوم به في تلك السنوات • ولقد قام بهذا بانتقاده الجدلي المعتاد في رسالة كتبها من فيينا يوم التاسع من فبراير (شباط) عام ١٩٢٤ • وفيها ذكر ان مشاركة الجماهير في الحزب قد اصبحت عند حدها الادنى • فكل شيء عمل لعرقلة هذه المشاركة ، « لم يكن الحزب متصورا باعتباره ناتجا عن العملية الجدلية التي تتداخل فيها الحركة العفوية للجماهير الثورية مع التنظيم والارادة الموجهة للمركز ، انما كان يتصور فقط على انه شيء مثير للسخرية تماما ، ينمو في ذاته ولذاته • اي شيء تتعلق

به الجماهير حينما يكون الوضع مواتيا ، وعندما تبلغ ذروة الموجة الثورية اقصى ارتفاعها ، او حينما يقدر مركز الحزب ان من الضروري الشروع في هجــوم فيخفض نفسه الــى الجماهير ليحفزها وليحملها الى العمل » • ان الحزب جهاز حساس ، يمكن بتشوش نشاطه او نظام عمله من لحظة لاخرى ان يصبح شيئا اخر غير ما ينبغي ان يكون :

« الحقيقة ـ من الناحية التاريخية ـ ان حزبا لا يمكن ابدا تعريفه تعريفا كاملا ولن يمكن ابدا تعريفه • ذلك انه سيعرف تعريفا كاملا فقط حينما يكون قد أصبح الشعب كلـــه ، اي حينما يكون قد اختفى • والى ان يتم اختفاؤه ، حينما تتحقق الاهداف الاسمى للشيوعية ، فانه سيمر بسلسلة كاملــة مــن المراحل المؤقتة ، وسيستوعب عناصر جديدة ، كل في وقــت معين ، وبالطريقتين المكنتين تاريخيا : عن طريق ضم افراد او عن طريق ضم جماعات ، صغيرة او كبيرة » •

من المعروف جيدا ان غرامشي كرس صفحات لاذعــة كثيرة للحزب بوصفه « الامير الحديث » في واحـــد مــن دفاتر السجن ، ذلك الذي يحمل اسم **ملاحظـــات حــول ماكيافيللي وحول السياسة وحول الدولة الحديثة** • فقد قدم في هذا المجلد سلسلة ملاحظات هامة ، تاتي فوق كل شيء فــي الصفحات الثلاثين الاولى ، حيث تتجمع ملاحظات متفرقة ، وحتى متناقضة ، ونرى الامير الحديث كتنظيم سياسي :

« الامير الحديث ، الامير الاسطورة ، لا يمكن ان يكون شخصا ، فردا حسيا ، انما هو يمكن فقط ان يكون تنظيما . عنصرا مركبا من عناصر المجتمع ، فيه بدأ بالفعل تبلور ارادة جماعية تم ادراكها ، وثبتت جزئيا في سياق العمل • وقد أوجد التطور التاريخي بالفعل هذا التنظيم الذي هو الحزب السياسي « الخلية الاولى التي تجسد بعض البذور لارادة جماعية على وشك ان تصبح كلية وشاملة »•

ويناقش غرامشي كذلك اتجاهات عديدة للفلسفة الحديثة : « ان تصور كروتشه للهوى السياسي يستبعد الاحزاب لان المرء لا يستطيع ان يعتقد بوجود « هوى » دائم ومنظم » ، وهو يفكر في نوع السياسة الطبقية التي لا بد أن تطبق :

« عند تكوين القادة تكون هذه المقدمة اساسية : هل يريد المرء دائما ان يكون هناك حكام ومحكومون ، ام ان المرء يريد بالاحرى ان يخلق الظروف التي تختفي فيها الحاجة الى وجود هذا التقسيم ؟»

وهو يدرك تعقد المشكلات الكامنة هنا : « حينما يريد المرء ان يكتب تاريخ حزب سياسي ، يكون من الضروري في الواقع مواجهة سلسلة كاملة من المشكلات ، التي هي اقل بساطة بكثير مما يظن » • وهو يعطي تحليلا لطرق الصراع السياسي : « يمكن القول بانه لا يمكن تدمير حزب بوسائل عادية » • وكذلك فانه يطرح الملاحظة « المتحدية » التي قدر

لها ان تكشف جدليا قطاعا من الواقع الذي كان لا يزال في ذلك الوقت مجهولا ومهملا عن قصد : « من الصعب استبعاد امكان الا يحقق اي حزب سياسي (سواء كان حزب الجماعات السائدة ، او حتى حزب الجماعات المقهورة) دورا تحكميا، اي ان يحمي نظاما شرعيا وسياسيا معينا » • ويخرج غرامشي بالنتيجة القائلة بان كل طبقة يمثلها حزب ، وحزب واحد • « ان الحقيقة النظرية القائلة بان لكل طبقة حزبا واحدا تظهرها عند نقاط تحول حاسمة حقيقية ان التجمعات المختلفة ، التي قدم كل واحد منها نفسه على انه حزب « مستقل » ، تعود فتتحد وتشكل كتلة • لقد كان التعدد القائم قبلا ذا طابع « اصلاحي » فحسب ، أي انه كان معنيابمسائل جزئية » • او فانه يعالج تساؤلات هامة : « هل الفعل السياسي (بحصر المعنى) ضروريا لكي يتمكن المرء من الحديث عن « حزب سياسي » ؟ وكذلك « « متى يصبح حزب « ضروريا » من الناحية التاريخية ؟» •

ولكن لا تزال هناك ـ فيما يبدو لنا ـ صفحات اكثر اهمية ، هي تلك التي يتضمنها دفتر الماضي والحاضر ، حتى وان كانت اكثر تجزئة واكثر ارتجالا :

« ان الحزب ـ الذي هو بنية دولة في مرحلة جنينية ـ لا يمكن ان يسمح بأن تقسم قواه السياسية • لا يمكن ان يسمح لقسم من اعضائه بادعاء ان لهم حقوقا مساوية كما للحلفاء خارج « الكل » ، تماما كما ان دولة لا يمكن ان تسمح

لبعض رعاياها بان يضعوا ـ من خلال قوة اجنبية وخـارج القانون العام ـ عقدا خاصا للتعايش مع دولتهم ··· الاحزاب ليست سوى مسمى للطبقات ·· الاحزاب ليست مجرد تعبير سلبي وآلي (ميكانيكي) عن الطبقات نفسها ، وانما هـي تستجيب لها بقوة لكي تطورها ، وتشد في عضدها ، وتضفي عليها طابعا شموليا ··· الطبقات تعبر عـن الاحـزاب ، والاحزاب تنجب رجال الدولة والحكومة وزعماء المجتمـع المدني والمجتمع السياسي ··· ولا يمكن ان تكون هنـاك التشكيلة من الزعماء التي يغيب فيها العمل العقائدي مسن والنظري للاحزاب » ·

ويبدو لنا ـ مع ذلك ـ ان هذه الصفحات من دفاتـر السجن قد بولغ في تقديرها ـ عموما ـ مـن جانب القراء · انها تحتوي على ملاحظات دقيقة جدا ذات اهمية ايضا لفهم غرامشي حول ماهية الحزب ووظيفته · ولكن الملاحظـات الاساسية حول هذا الموضوع هي ، بغير شك ، تلك التـي يلاحظها السياسي خلال الصراع النشط ، تلك التي كتبـت خلال فترة تطور وتنظيم الطبقة العاملة تحت قيادة غرامشي وبتوجيهه · لقد اتاح المناخ السياسي والمعنوي لتلك السنوات لغرامشي ان يطور بحثه وان يواصل مناقشة قدر لهـا ان تصبح اعمق واعمق ، وان يحلل كمية لا تحصى من المعطيات وان يركب كيفيا ملاحظات متباينة · وتحتوي كتابات غرامشي ـ من سنوات الصراع النشط حتى دخوله السجن ـ بغيـر شك الملاحظات الاساسية ، والمراحل الحاسمة لفكره في هذا

المجال بالذات . وقد صهرتها المعركة اليومية المتواصلة ٠

هذا ما تؤكده وثيقة اساسية ، كتبت في شهر مايــو (ايار) عام ١٩٢٥ : كتب غرامشي بقدر كبير من التبصـر والانفتاح الذهني « ان حزبنا ليس حزبا ديمقراطيا ، علـى الاقل بالمعنى التقليدي الذي يعطى عادة لهذه الكلمة ٠ انما هو حزب مركزي قوميا وامميا ٠ فحزبنـــا ـ في المجـــال الاممي ـ هو مجرد فرع لحزب اكبر ، لحزب عالمي » ٠ والمهمة الجوهرية للحزب هي الحفاظ على انضباط حديدي ، عــن طريق الصراع ضد « التصادم المستمـــر بيــن الاجنحة ، والاتجاهات ، وحتى بين الزمر الشخصية » ٠ ومن الناحية الاخرى ينبغي الا يقع الحزب في الخطر المقابــل ، خطـــر مركزية بيروقراطية مبالغ في التأكيد عليها ، ومتصورة تصورا أليا (ميكانيكيا) ٠ ومع ذلك فان هذا ـ لسوء الطالع ـ قد حدث : « لقد كانت اللجنة المركزية ـ اللجنة التنفيذية ـ في الحقيقة ـ هي كل الحزب ، بدلا من ان تمثله وتقـوده » ٠ وكان من الضروري ـ وفقا لما ذهب اليه غرامشي ـ النضال ضد مثل هذا التصور بكل ما اوتي المرء من قـــوة ، لان التطبيق الدائم لهذا المبدأ من شأنه ان يتسبب فـي فقـدان الحزب « سماته السياسية المميزة » ويجعله يدار كما يـدار الجيش ، تماما كما حدث مع الاحزاب البورجوازية ٠ ولكن مثل هذا التحول يمكن ان ينطوي على خسارة في جاذبيـــة الحزب ومن شأنه « ان يصبح منعزلا عـــن الجماهير » ٠ وبالنسبة للحزب فان هذا الانعزال يعني انتحارا ٠

فكيف يمكن للمرء ان يتفادى حدوث هذا كله ؟ حتى لا يفقد الحزب اتصاله بالجماهير « من الضروري ان يكون كل عضو في الحزب عنصرا سياسيا نشطا ، ان يكون قائدا »٠ وبالطبع فان نشاط الحزب لا يمكن الا ان يكون مركزيا على نحو قوي ، ولكن لا بد للجماهير ـ مع ذلك ـ ان تكون قادرة على ممارسة سيطرة ، على التأثير على سياسته العامة وعلى توجيه الصراع ٠ « بالتحديد لان الحزب مركزي بصورة قوية فان الامر يتطلب جهدا ضخما من الدعاية والاثـارة داخل صفوفه ٠ من الضروري للحزب ان يربي اعضاؤه وان يرفع مستواهم الايديولوجي بطريقة منظمة » ٠ واستخدام كلمـة المركزية من جانب غرامشي قد يسبب بعض الارتباك ٠ ولكن غرامشي نفسه شرح ان لهذه الكلمة معنى واحدا : ذلك هو انه في اية لحظة كانت ، وفي اي وضع كان ، حتى فـي اشـد الاوضاع يأسا وتمزقا ، اذا كان التنظيم السياسي للطبقـة العاملة قد اصبح مركزيا بصورة صحيحة فان ما سيحـدث هو : « ان كل عضو في الحزب ، كل في وسطه ، سيكون قد اصبح قادرا على ان يوجه نفسه ، وعلى أن يعرف كيـف يستمد من الواقع العناصر اللازمة لاقامة سياسـة تكـون نتيجتها الا تفقد الطبقة العاملة شجاعتها ، بل ان تشعر ان لها قادتها وانها لا تزال قادرة على النضال » ٠ والنتيجـة لا يمكن الا ان تكون « ان الاعداد الايديولوجي للجماهيـر هو ـ من ثم ـ واحد من الشروط التي لا غنى عنها للنصر»٠

هل على الحزب ايضا عبء المهمة الاساسية للسعـي

الى التحالفات الطبيعية الممكنة مع الاحزاب الديمقراطية والاشتراكية الاخرى من اجل وحدة حركة الطبقة العاملة ومن اجل تحقيق اهدافه السياسية الخاصة ؟ وفقا لغرامشي ربما يكون من المستحيل تقديم اجابة وحيدة على هذا السؤال ، ذلك لان الظروف التاريخية المختلفة التي يمارس فيها العمل السياسي تفرض تساؤلات مختلفة في كل مرة وتقدم اجابات مختلفة ، ان لم نقل متناقضة . والامر المؤكد انه لا ينبغي اقامة تحالفات مع ديمقراطيين او ماسونيين او جمهوريين . وقد كان غرامشي قد كتب فعلا في شهر يونيو (حزيران) عام ١٩١٦ في زاويته **بين شقي الرحى** :

« كان من السهل وضع نقد لهذه الكتل السياسية . وكان كل ما على المرء ان يفعله هو ان يبين ان محتواها الاقتصادي والسياسي بورجوازي في جوهره ، حتى لا يعود باستطاعة حزبنا ـ الذي كان في ذلك الوقت قد بلغ اشده ـ الاحتفاظ بمزيد من الصلات معها . اما مع السنديكاليين والفوضويين فان الفروق ادق وادهى . فلا يستطيع المرء ان ينكر نشوءهم ، واستمدادهم طاقتهم من التربة الخصبة للصراع الطبقي ، وبعبارة اخرى كونهم انبثاقات من البروليتاريا . ولكن هل كل هذا يكفي لاقتراح اندماج ؟ والا يمكن ان يصبح هذا مجرد التباس ؟ » ان الفروق النظرية مهمة دائمة ولا ينبغي ابدا طمسها او تجاهلها . فهذه ليست في معظمها مسائل تتعلق بالشكل او المبدأ ، انما هي مسائل تتعلق بالجوهر السياسي . انما في لحظات استثنائية فقط

يتم اندماج بين احزاب وحركات سياسية مختلفة اندماجـــا طبيعيا : « يحدث مثل هذا النوع من الاندماج بصورة طبيعية في لحظة الفعل، حينما يكون هناك هدف مباشر يتعين الوصول اليه ، حينما يكون هناك خصم مشترك تعين ضربه » ٠

ولكي ندرك افكار غرامشي في هـــذا المجال مـــن الضروري ان نعير انتباها دقيقا للفترة التي صيغت اثناءها٠ لقد كانت « اللحظة » غالبا تشترط « النظرية » الغرامشيـــة تماما ٠ وتبين لنا قراءة معتنية للمقالات التي نشرهـــا في صحيفة النظام الجديد اليومية في عامي ١٩٢١ و ١٩٢٢ ـ اي خلال سنتين رهيبتين بالنسبة للطبقة العاملة ، وخـــلال البحث شبه اليائس عن وحدة كانت قد اصبحت فـــي ذلـك الوقت قد افتضحت بصورة لا سبيل الى اصلاحها ـ التردد بين الرغبات « الوحدوية » والميول المتعصبة لدى غرامشي ، وضمنيا لدى غيره من الزعماء الشيوعيين ٠ فنحن نقـــرأ له ـ على سبيل المثال ـ في مقال نشر في الثاني من اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٢١ :

« نحن الشيوعيين نريد انسجاما في المجال النقابي ٠ نريد انسجاما واتفاقا، ليس فقط بين الشيوعيين والاشتراكيين داخل الاتحاد العام للعمال . انما نحن نريد ايضا انسجامـا واتفاقا بين كل الاتجاهات السياسية داخل الطبقة العاملــة الايطالية بأسرها ٠ نحن الشيوعيين نهدف الى تحقيق نقابــة واحدة كبرى لكل المستغلين (بفتح الغين) يمكنها ان تكـون

الاساس لصراع ديمقراطي بين الاتجاهات السياسية البروليتارية المختلفة . اي يمكن الاتفاق عليها من حيث المبدأ على أساس حكم الاغلبية والطاعة والولاء الواعيين من جانب الاقلية » ·

وفي مقال آخر ، نشر بعد اسابيع قليلة من ذاك ، في ١٤ يناير (كانون الثاني) عام ١٩٢٢ ، كتب غرامشي بدلا من ذلك مشددا :

« حول مسألة الجبهة المتحدة ، نحن نرد بتكرار ما كنا قد كتبناه في مناسبات اخرى · ان جبهة متحدة تعني شيئا واحدا : اعادة تجميع الجماهير العاملة الضخمة حول برنامج محدد للعمل الفوري في المجال النقابي · ومن ثم فان هذا هو المضمار الوحيد الممكن اليوم للصراع من اجل الجبهة المتحدة : الصراع ضد بيروقراطية الاتحاد العام للعمال ، الصراع ضد هذا المصدر الاعلى للتسميم القاتل للجسم البروليتاري ··· اما الحديث عن جبهة متحدة مجردة فليس الا مظهرا لكلام اجوف » ·

هاتان الفقرتان مهمتان بسبب تعارضهما وتناقضهما ، بل انهما اكثر اهمية، لانهما يتناولان فقط التحالفات التكتيكية، التي كانت طبيعتها المؤقتة موضع تقدير كامل · وكثيرا ما اكد غرامشي نفسه على هذا « « وبينما ننتظر ، فاننا نواصل نضالنا ، الذي هو الضمان المحدد الاوحد لبلوغ الطبقة

العاملة اهدافها ، التي تعد وحدة الجبهة النقابية مجــــرد وسيلة لها ، مجرد لحظة انتقالية » • لقد اقتطعت هـــذه الاجزاء من مقالات غرامشي من سياقها المحدد من المجادلات السياسية التي كانت (وما كان يمكن الا ان تكون) حادة بصورة رهيبة في قوة افكارها وفي لغتها المزدرية والقاسية•

« من الضروري ان نوضح لجماهير العمال والفلاحين في ايطاليا ان اي تأييـــد يقدمونـــه لديماغوغيي الاحـــزاب الديمقراطية ـ الاجتماعية ـ الاشتراكية والشعبيـــة ـ هـــو اسهام في اعادة بناء التنظيم الذي حرمهم لعشرات السنيـن من حريتهم ومن رخائهم ، والذي فرض عليهم العبوديـــة والمعاناة والموت • ان النضال ضد الديمقراطية الاجتماعية ، والنضال ضد الحزب الاشتراكي المخادع هو شيء واحد مع النضال من اجل تحرير البروليتاريا في ايطاليا من كـــل عبوديـــة •

كان غرامشي واعيا بالقوى الايديولوجية التي كانـت تتجمع عادة في صف البورجوازية • وكان يعرف الصعوبات التي تواجه الزعيم الشيوعي او الاشتراكي في اختراق قشرة القوالب (الكليشيهات) التي دائما ما عرفت الطبقة المتوسطة كيف تنشرها بصورة مسيطرة في المدارس ، في الثقافة ، وفي فكر الدولة ككل • فهكذا تجعل البورجوازية الشعب يعتقـد ان افكارها هي تنصهر مع القيمة المطلقة وليست مرتبطـــة بفعل التاريخ والطبقة بالحفاظ على امتيازاتها وسلطتهـــا

الخاصة · » من الضروري تربية البروليتاريا ، تلك كانت لازمة كتابات غرامشي الاولى · ولكن هذا لا يكفي · فمن اجل ان تعد الطبقة العاملة اعدادا حقيقيا لغزو السلطة من الضروري ايضا اسكات « صفارات الهلاك » ومنعها من الكلام ، منعها من ان تسبب الاذى · » والى ان تشمل البروليتاريا الشعب كله ، والى ان تصبح محصنة ، يتعين عليها على الاقل ان تفكر في القاء شبكة سيطرتها الخاصة على المجتمع البورجوازي حتى تحبسه » · ومن الناحية الاخرى يمكن ان يحدث غزو السلطة بطرق لا متناهية ولا يمكن التنبؤ بها · لقد ذكر غرامشي هذا فعلا ، بكل قوة المفارقة في حديثه حينما اشاد بالثورة البلشفية كثورة نفذت ضد ماركس وضد نظرياته · غزو السلطة يمكن ان يحدث بطرق كان « اللغوي الماركسي » عاجزا حتى عن فهمها وعن جعلها خاصة به ، فضلا عن التنبوء بها · ذلك لان « التاريخ الحقيقي لا يقبل الفروض عن تطور الاحداث الا بوصفها مؤشرات يمكن أن تكون مفيدة في توفير مرشد مبدئي للفعل العملي ، والثوريون يلاحظون التاريخ الحقيقي ـ لا التمثيلية الحزبية ـ انهم يتابعون جدل القوى الاقتصادية الحقيقية ، لا رغبات ومخاوف الاذناب المتعصبة »· لقد قال انه كان من الضروري تمزيق الخطط المتصورة على نحو مسبق وتبني تنوع الحياة الواقعية وتركيبها ·

وتمثل الانتخابات لحظة مهمة . محاكمة هامة تجري لطبقة عاملة لا تزال ـ وهي بعيدة عن السلطة ـ تجبر على

ان تتطور وتناضل داخل اطار دمار بورجوازي • وفي مقالات غرامشي كثير من الملاحظات النافذة حول هذه المسأله ،سواء في المقالات التي كتبها في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) عام ١٩١٤ (اثناء الانتخابات التي جرت في ظل حكومة نيتي ، حينما اخذ بنظام التمثيل النسبي لاول مرة) وفي تلك التي كتبها في ربيع عام ١٩٢١ (الانتخابات التي دعـا اليهـا جيوليتي بعد حل حكومته الاخيرة) • في عام ١٩١٩ كـان غرامشي لا يزال عضوا في الحزب الاشتراكي وكان ينشـر كتاباته في صحيفة الطليعة وكذلك في النظام الجديد • وقد قال ان كل الثوريين البروليتاريين يعلمون جيدا ان هـدف الصراع السياسي هو اقامة دكتاتورية بروليتاريا • ولكـن الثورة « لا يمكن ان تنجز بهجوم مباغت » • ولقـد كـان الاصلاحيون والانتهازيون على حق ـ حتى اولئك الذين هـم داخل ألحزب ـ حينما قرروا ان الظروف السياسية الايطالية ليست مهيأة للثورة • ولكن هذا الحكم يتغير تغيرا قاطعا اذا انتقل المرء من ايطاليا الى صعيد أممي • عندئذ لا يملك المرء الا ان يستنتج ان البروليتاريا لا بد ان تسلح وان يتم ابقاؤها في حالة استعداد ، لان اللحظة الثورية قريبة • أما عـن الوضع الايطالي فانه مختلف، اذا نظر اليه بطريقة موضوعية• هكذا فانـه كان على البروليتاريا واجب ان تشارك فـي الانتخابات . « لا بسبب وهم ديمقراطي ، وانما بسبب نعومة اصلاحية » ، ولكن ايضا لخلق ظروف افضل موضوعيـا لانتصار الطبقة العاملة • وانه ليكون من الحمق اغفـال الاهمية التي للبرلمان في حياة الدولة • فان الهيمنة التـي

تمارسها الطبقة المتوسطة دائما هناك هي بالتحديد التي اتاحت للبورجوازية ان تنجز تحويل مثلها العليا الطبقية الى مثل عليا مطلقة بالنسبة للامة كلها ·

« ان ارسال مجموعة جيدة من المناضلين الاشتراكيين الى البرلمان يعني وضع نهاية لهذه المقارعات بين السياسيين ··· من الضروري ان نناضل بكل حماس لارسال اكبر عدد ممكن من مناضلي الحزب الاشتراكي الى البرلمان » ·

وقد عبر غرامشي (وكان قد اصبح في ذلك الوقت مناضلا في الحزب الشيوعي) عن افكار مماثلة في ربيع عام ١٩٢١ · وكانت اللجنة المركزية ـ في اول ابريل (نيسان) ـ قد اعلنت انها ستشترك في الانتخابات القادمة بقائمة حزبية، رغم الاعتراضات القوية من جانب بورديغا وغيره من دعاة الاقناع · وفي ١٢ أبريل نشر غرامشي مقالا بعنوان **الشيوعيون والانتخابات** في صحيفة **النظام الجديد** · وتبدأ مناقشته الشاملة بتعريف تاريخي للظروف التي جعلت ميلاد الحزب الشيوعي ممكنا ، وكيف انه يمثل الطبقة العاملة الثورية التي ـ هي ايضا ـ « ولدت وتنتظم داخل حدود الديمقراطية البورجوازية » · وكان الحزب الشيوعي قد عمل من اجل ان تتمكن الطبقة العاملة من كسر جميع القيود التي تربطها بطبقات اخرى ، ومن اجل الا تعود تقترح ـ كما في الماضي ـ التعاون من أجل « تطور او تحول الدولة

البرلمانية البيروقراطية » · ولكن الطبقة العاملة كانت تريد ان تحكم البلاد ، ولكي تفعل هذا كان يتعين ان تكون قادرة على التعويل على القوى الحقيقية ، كان يتعين عليها ان تعرف ، كم من العمال في ايطاليا اكتسبوا وعيا دقيقا بالرسالة التاريخية ، التي تنتمي الى طبقتهم » · ولم يكن يمكن الرد على هذه التساؤلات الا في الانتخابات ، التي قرر الحزب الشيوعي ان يشترك فيها ، وان يكن واعيا بان « الانتخابات بالنسبة للشيوعيين ليست الا واحدة من اشكال كثيرة للتنظيم السياسي تنتمي للمجتمع الحديث · والحزب هو الشكل التنظيمي المتفوق » ·

وما ان يتم الفوز بالسلطة ، لا بد من خلق دولة العمال · فما هي دولة العمال ؟ وفقا لتعريف إخذه غرامشي عن لينين: « هي دولة بورجوازية بدون البورجوازية » · انها دولة ـ مثل اي دولة بورجوازية ـ ينبغي أن تحل المشكلات الداخلية والخارجية ، منتهجة في التحليل النهائي طرق ومناهج لا يمكن أن تختلف اختلافا جوهريا عن الطرق والمناهج البورجوازية · «لا يمكن تصور دولة بلا جيش » كما لا يمكن تصور جيش شجاع ومتماسك ما لم يكن « بوضع وظيفة دولة مبنية على أساس متين ، تؤيدها الارادة الدائمة وروح الانضباط الدائمة والتضحية لدى السكان » · والانضباط يستلزم سلطة هرمية واحيانا ما تكون السلطة الهرمية اقلية، اذا كان لهذه الاقلية وعي اكبر بمهمتها التاريخية وكانت اكثر استعدادا ، واذا تبين انها الوحيدة التي تستطيع أن تبني

الدولة · ويتعين ان تكون قادرة على اقناع غالبية السكان « التي تكونها الشرائح العديمة الشكل من الطبقات المتوسطة من الطبقات المثقفة ، من الطبقات الفلاحية » بان مصالحها الخاصة هي مصالحهم نفسها · ولكن الانضباط والسلطة الهرمية ضروريان لتحقيق هذا الهدف الاساسي :

« سلطة هرمية ؟ نعم ، سلطة هرمية · ان سلطة العمال هي الاساس لسلطة هرمية جديدة للطبقات الاجتماعية ، فالمثقفون ، والفلاحون وجميع الطبقات المتوسطة ـ يدركون في الطبقة العاملة مصدر سلطة الدولة ، يدركون الطبقة العاملة بوصفها الطبقة الحاكمة ـ وحينما يستشارون في الانتخابات لاختيار اعضاء المؤسسات النيابية ، فانهم يختارون النواب الذين ينتمون الى حزب الطبقة العاملة ، الحزب الشيوعي » ·

الفصل الخامس

النقابات العمالية :

العلاقة بين النقابات والحزب

« اذا اختارت النقابات العمالية عفويا عضوا في الحزب زعيمـــا لها ، فهذا يعني ان النقابات تقبل بحرية توجيهات الحزب » ·

(غرامشي في دفتر « الماضي والحاضر ») ·

تنتمي ملاحظات غرامشي الاساسية حـول النقابـــات العمالية ، والعلاقات بينها ، وحول العلاقة الجوهرية بيـــن النقابات العمالية والحزب، تنتمي بأسرها تقريبا الى الفترةبين عام١٩١٩ و ١٩٢٢ · اي انها ظهرت في صحيفـــة النظـــام الجديد الاسبوعية او اليومية في الوقت الذي كان فيه قـرار ترك النزعة الاصلاحية للحزب الاشتراكيوتأسيس حزب ثوري

بسبيل النضج لدى غرامشي وغيره · ولكن هناك ملاحظات مثيرة للاهتمام حول هذا الموضوع في **دفاتر السجن** ، وهي ملاحظات قد تبدو ، لاسباب مفهومة تتعلق بالرقابة السياسية، وفوق كل شيء بسبب انسحاب غرامشي من مضمار السياسة النشطة ـ بعيدة للغاية عن اهتمامات لها هذه الطبيعة ·

ولقد جرى جدال كثير ، وخاصة في هذه السنوات القليلة الاخيرة ، حول مجلس المصنع والاهمية التي كانت لهذا التصور وتحقيقه بالنسبة لغرامشي · ويبدو من الضروري ان نقول مباشرة ان أهميته في تطور فكر غرامشي ربما تكون قد تعرضت لمبالغة في التقدير الى حد كبير ، وذلك دون ان نكون راغبين في انكار ان مجالس المصانع كانت بالتأكيد الفكرة الرائعة التي كانت تدور حولها المعركة السياسية والصراع الثقافي لاسبوعية **النظام الجديد** ، حيث ان غرامشي نفسه اكد هذا · ولقد قدم غرامشي تحليلات ذكية ومبتكرة لمشكلات اخرى مثل التحالف بين العمال والفلاحين ، البحث في الدور الذي يؤديه المثقفون في التاريخ الايطالي » الخ · ولكن فيما يخص مجالس المصانع فانها ربما تكون مسألة خبرة مثيرة للاهتمام ومثمرة ، بلا شك ، الا انها كانت محدودة بعالم مدينة تورينو وبسنوات تكوينه السياسي · فانه لا يكاد يكون قد تحدث ابدا عن مجالس المصانع في سنوات متأخرة حينما كان اولا زعيما للحزب

الشيوعي ثم الامين العام للحزب • ولا هو أشار ابدا بصورة مباشرة الى مجالس المصانع في **دفاتر السجن** ، تلك الدفاتر التي تتركز ـ مع ذلك ـ في جانب كبير منهـا علـى تلـك الموضوعات (المثقفون ، الحزب ، الهيمنة) التي كان غرامشي قد بدأها وطورها في ظل الحـرارة السياسيـة لسنوات الصراع •

كل هذا ينبغي ان يقال ، ولكن لا كمجرد جزء من تلـك المداولات السطحية التي شهدت اخيرا مؤرخي ودارسي اعمال غرامشي يتخذون جانبا او الآخر ، منقسمين فـي شغفهـم بالبحث عن الخط « اللينيني » الانقى ، أحيانا في هذه الحجة واحيانا في تلك • فالحقيقة ان نظرة «بانورامية» الى اعماله تكفي لاقناع المرء فورا بانه ـ باستثناء ملاحظات قليلة فـي دفتر **الماضي والحاضر** ، وهي ملاحظات على اكبر درجة من الاهمية ـ لا وجود بالمرة لمناقشته للنقابات العمالية وعلاقتها بالحزب ولمجالس المصانع في **الدفاتر** باسرها ، وان هـذه المناقشة غائبة كلية تقريبا عن مقالاته التي نشرها بعد او قبل تلك المنشورة في صحيفة **النظام الجديد** •

لقد بدأ غرامشي ـ في ملحوظة موجـزة نشرت عـام ١٩١٨ في صحيفة **صيحة الشعب** ـ تحليله للنقابات ، مؤكدا ان « بزوغ التعاونيات الزراعية وتجمعها في نقابات لا بد ان يكون ظاهرة عفوية » • وبالفعل تصدى غرامشي بعد اشهـر قليلة للمشكلة الاساسية الخاصة بالعلاقة بيـن النقابـات

والحزب · كان الاتحاد العام للعمال في ايدي الاصلاحيين ، في ايدي « العناصر البورجوازية الصغيرة » ، وكان يسهم في تعزيز النظام الراسمالي · وهذه هي الكيفية التي انكر بها تفسير الصراع الذي كان قد نشب بين الاتحاد العام للعمال والحزب ، اي بين جهاز كان يحاول ان يختفي « تحت قناع الكفاية التقنية » ، وآخر كان يحاول عوضا عن ذلك الاشتغال بالسياسة داخل مضمار الصراع الطبقي · ومن الناحية الاخرى ، لم يكن هذا الصراع ، وما كان يمكن ان يكون صراعا مطلقا حيث ان ازمة الاتحاد العام للعمال كانت أزمة زعمائه ، وكان من الممكن ان تحل بسهولة عندما يقرر جميع الرفاق ان يشاركوا بنشاط اكبر كثيرا في الحياة والصراعات النقابية ·

وقد تطورت المناقشة التاريخية حول اصول وحدود ووظائف النقابات العمالية مع خلق صحيفة **النظام الجديد** الاسبوعية · وكتب غرامشي ان للنقابات العمالية فضيلة انها اول من نظم الطبقة العاملة والصراع الطبقي ،ولكنها بسبب بنيتها الخاصة لم تستطع ان تعمل من اجل هدف ثوري ، هو غزو السلطة · ولسوء الطالع فان كل منجزات النقابات العمالية تتحقق طالما كان النظام القائم ـ الملكية الخاصة ـ مرعيا · « ان يوم العمل المكون من ثماني ساعات ، وزيادات الاجور ، ومزايا التشريع الاجتماعي ، لا تضر بالارباح » · فلدى ملاك الثروة وسائل ملائمة لتحويل عبء النفقات العامة الزائدة للانتاج الصناعي اما الى عاتق الجماهير الوطنية غير المنظمة او على عاتق الشعوب المستعمرة » ·

ولقد سارت النزعة النقابية على طريق مفروشة بالنوايا الطيبة ، ولكنها كانت مفروشة أيضا بأوهام ضخمة · فلم يكن بامكان المرء ان يأمل في تحويل وضع موضوعي عن طريق اكتساب اصلاحات صغيرة . او حتى باعترافات يمكن انتزاعها بعد شهور وشهور من النضال الشاق :

« تريد دكتاتورية البروليتاريا ان تزيل نظام الانتاج الرأسمالي ، تريد ان تزيل الملكية الخاصة ، لانه بهذه الطريقة وحدها يمكن ازالة استغلال الانسان للانسان · تريد دكتاتورية البروليتاريا ان تزيل الفوارق الطبقية ، تريد ان تزيل الصراع الطبقي ، لانه بهذه الطريقة وحدها يمكن ان يتم تحرير الطبقة العاملة » ·

ولهذافان من الضروري النضال من اجل تحويل ماهية النقابات العمالية (الاهتمام بمسائل « الخبز والزبد » !) وتطهير قيادتها من اولئك « الافراد القلائل (ذوي الذكاء المحدود) الذين نجحوا حتى الآن ــ في بعض الاوقات ــ في انتزاع ارادة الجماهير » · وربما من الضروري ان نفهم أن « النزعة النقابية تكون ثورية فقط بسبب الامكانية النحوية التي تربط بين التعبيرين » ·

لا بد للمرء ان يعي ان النزعة النقابية قد تكشفت ــ في مسار عملية تطورها ــ عن كونها جانبا من المجتمع البورجوازي ، وليست نضالا ضد المجتمع البورجوازي ، او

طريقة لتجاوز ذلك المجتمع · علينا ان نبدأ من جديد من الوحدة الاساسية ، من العامل ، الذي يستطيع « ان يتصور نفسه كمنتج » ، شرط ان يرى نفسه كجزء من عملية الانتاج العامة ، والا يفقد رؤية كل الرفاق العمال الآخرين ، رؤية مجموع كل العمال والشعور بجماعية العمل · من الضروري ـ اذن ـ ان نعارض على السواء شكل نزعة نقابية اصلاحية وشكل نزعة نقابية شبه ثورية · ينبغي التغلب على النزعة الفردية وعلى الشخصيات · ومن الضروري البدء بعملية تاريخية كبرى ، تصبح فيها الطبقة العاملة واعية بوحدتها التي لا تنقسم المبنية على الانتاج، المبنية على الفعل المحسوس للعمل ، وتعطي شكلا عفويا لهذا الوعي ، عن طريق خلق سلطة هرمية لنفسها · عملية تاريخية كبرى « سوف تبلغ ذروتها ، على نحو لا يمكن مقاومته ، في دكتاتورية البروليتاريا ، في الاممية الشيوعية » · ولقد كان ذلك وقت ميلاد حركة مندوبي المحال في تورينو ، وقت مجالس المصانع · وكان غرامشي نفسه هو الذي ربط الحركة بالخبرة اللينينية :

« ان تصور نظام المجالس، المؤسس على سلطة الجماهير العاملة التي ينظمها مكان العمل ، ووحدات الانتاج ، يستمد اصوله من الخبرات التاريخية المحسوسة للبروليتاريا الروسية » ·

وظل غرامشي يؤكد ـ مرة بعد اخرى ـ الاختلاف

الاساسي بين حركة المجالس والاشكال السابقة للنقابية الاصلاحية او شبه الثورية · فاذا كانت « الفترة الحالية ثورية » فلا بد ان تكون النتائج والعمل السياسي للجماهير وقادتها ايضا ثوريين · ولقد كانت لحركة المجالس تلك الخصائص ، وكانت تستجيب لحاجات تاريخية جديدة · ويمثل « ميلاد مجالس عمال المصانع حدثا تاريخيا كبيرا ، يمثل بداية حقبة جديدة في تاريخ البشرية · فبفضلها طغت العملية الثورية على السطح وتدخل مرحلة يمكن فيها اختبارها وتأكيدها » · ينبغي ان يصبح كل مجلس الوحدة لحركة تطور سوف تبلغ ذروتها في الاممية الشيوعية · ويفرض طابعها نمطا جديدا من العلاقة بين النقابة العمالية والحزب ، نمطا من العلاقة يظهر بالفعل كامنا في تشكيل المجالس ذاته :

« ينبغي الا يقدم الحزب والنقابات نفسيهما على انهما المحاضرين او البناءين الفوقيين لهذه المؤسسة الجديدة ، التي تتخذ فيها العملية التاريخية للثورة شكلا تاريخيا قابلا للتحقيق · انما يتعين ان يصبحا ـ عوضا عن ذلك ـ الوسيطين الواعيين لتحررها من القوى القابضة التي تلخصها الدولة البورجوازية · ينبغي ان يصمماعلى تنظيم الشروط الخارجية العامة (السياسية) التي يمكن فيها للعملية الثورية ان تتطور بأسرع ما يمكن ، والتي يمكن فيها للقوى المنتجة ان تحقق اكبر توسع » ·

لقد أثارت هذه الفقرة جدالا لا نهايـة له بيـن مفسري غرامشي • ولا شك ان غرامشي قد أكد على استقلاليـة تطور المجالس ، في علاقتها بالنقابات العمالية وفي علاقتها بالحزب على السواء • والحقيقة انـه وضـع المجالس فوقهما معا من حيث الاهمية • اذ ينبغي ان يكون دور النقابـات والحزب أن يوضحا فقط انواع العراقيل المختلفة التي تختلقها البورجوازية على الطريق الثورية التي تسير عليها مجـالس المصانع • ومع ذلك فلا ننسى ان غرامشي كتب هذه السطور حينما كان لا يزال مناضلا في الحزب الاشتراكي ، اي فـي حزب كان يبدي بصورة مطردة طبيعته البرلمانية والاصلاحية• وقد كتب ـ بعد تجربته كزعيم للحزب الشيوعي وامين عـام له ، خلال سنوات سجنه ـ ملاحظة حول هـذا الموضوع ذات تأكيد مختلف تماما :

« هل ينبغي اخضاع النقابات العمالية للحزب ؟ انـه ليكون من الخطأ انطرح المسألة على هذا النحو • انما ينبغي وضع المسألة في اطار على النحو التالي : ان كل عضو فـي الحزب ، مهما كان المركز الذي يحتله او المهمة التي يؤديها ، هو دائما عضو في الحزب ودائما خاضع لقيادته • فلا يمكن ان يكون ثمة خضوع بين النقابات والحزب • فاذا اختارت النقابات عفويا عضوا في الحزب قائدا لها ، فان هذا يعنـي ان النقابات قد قبلت بحرية توجيهات الحزب ، ومن ثم قبلت بحرية (في الحقيقة رغبت) سيطرته على مسؤوليتها » •

ويبدو مناسبا لنا ان نؤكد على « الاتجـاه الواحـد » لتدفق فكر غرامشي الذي يبدأ دائما من تأكيد وجود واهمية الحزب ، لكي يتفرغ عندئذ في اتجاهات اخرى • ولكن دعنا نعود الى سنوات صحيفة النظام الجديد •

عند غرامشي ان مجالس المصانع تستلـزم نضوجـا سياسيا ليسماثلا دائما في الشرائـح البروليتاريـة مـن المجتمع • وغالبا ما افضت التجربة الروسية نفسهـا الـى تفكك المجالس ، حيث ان الجماهير الكبيرة من الفلاحيـن ، التي ادخلت عنوة وارتجالا في العملية الانتاجية ، لم تكـن قادرة على ان تخلق ادارة مستقلة ذاتيا ، لم تكن قادرة علـى الحكم الذاتي الصناعي • كان لمجلس المصنع مضمونا اصليا بالمقارنة بالفكرة النقابية القديمة القائلة بان تحققها الكامـل والتام لا يكون ممكنا الا في ظروف استثنائية ، مع بروليتاريا مستعدة وواعية ، بروليتاريا كانت ناضجة بدرجـة كافيـة لتولي كل مسؤوليات العملية الانتاجية • وقد كان ذلك كذلك لاننا « نتصور مجلس المصنـع كمؤسسة اصليـة بصورة مطلقة ، مؤسسة تضع بصورة فريدة في الظروف نفسها التـي تخلقها للطبقة العاملة بنية الرأسماليةفي الفترة التاريخيـة الراهنة • انها مؤسسة لا يمكن الخلط بينها وبين النقابـات العمالية ، ولا يمكن تنسيقها مع ، واخضاعها الى ، النقابات ، ولكنها مؤسسة تقرر ـ من بداية ظهورها وتطورها ـ التغيرات الجذرية في بنية وفي شكل النقابات العمالية » • ولقد كانت

العلاقات بين المؤسستين صعبة ، وكان لا بد ان تكون ، لانه بينما النقابة لا ترتاب في العالم الذي فيه تظهر وتتطور ، فان « المجلس هو سلب الشرعية الصناعية التي ينحو نحو تدميرها في كل لحظة · انه يميل باستمرار الى ان يقود الطبقة العاملة الى غزو السلطة الصناعية ، الى تحويل الطبقة العاملة الى مصدر للسلطة الصناعية » · وعلى النقيض من ذلك فانه « في الوضع الايطالي يتصور المسؤول النقابي الشرعية الصناعية على انها دائمة » ·

في شهر يوليو (تموز) عام ١٩٢٠ بعث غرامشي بتقرير حول حركة مجالس المصانع في تورينو الى اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية · وقد تحدث غرامشي فيه باستفاضة ـ بعد ان اكد على ان « على رأس حركة تكوين مجالس المصانع يوجد الشيوعيون المنتمون الى فرع الحزب الاشتراكي والى التنظيمات النقابية » ـ عن تكوينها وعن الحماس الذي اثارته بين عمال تورينو · والامر الذي له دلالته ان مناقشته ـ بالتحديد في الوقت الذي كان يمكن فيه ان تكون قد اصبحت في جوهرها مناقشة « تقنية » ـ اتسعت لتشمل كل الموضوعات الاساسية للصراع السياسي · فتضمنت ادراك « الحاجة الى الانضباط والى الدكتاتورية » ، وعبارة تقول ان مجموعة النظام الجديد كانت دائمة السعي الى انتهاج « المبدأ القائل بان تشكيل قوائم المرشحين ينبغي ان يتم بين جماهير الطبقة العاملة وليس من اعالي البيروقراطية النقابية · كذلك فقد عالجت مشكلة « تحويل الصراع النقابي من المجال

المؤسساتي والاصلاحي الضيق الى مضمار الصراع الثوري من اجل السيطرة على الانتاج ومـــن اجـــل دكتاتوريـــة البروليتاريا » ٠

وتوجد ـ في توسيع غرامشي لهذه الموضوعات ، فـي بحثه في الاسباب العميقة لاختياراته هو ـ ارادة لان يدفـــع الى اقصى حدوده فحصه الذاتي الذي قد يبرهن ايضا علـى انه مؤلم للطبقة العاملة الايطالية كلها ٠ فقد كان يعتقد انـه بهذه الطريقة وحدها يكون من الممكن فهم الاسباب التي أدت الى الاخطاء الجسيمة التي ارتكبتها الحركة العمالية ٠ هكذا فقط يكون من الممكن ان نفهم ان ـ في الحقيقة ـ « الاختلاف بين الثوريين والاصلاحيين على مهام النقابات كان اختلافـا بين البيروقراطية النقابية ـ التي ركزت في ذاتهـا علـى الوظائف السياسية للتنظيم العمالي ـ والجماهير المنظمة » ٠ وقد ساق الحجج بقسوة ضد زعماء الاتحاد العام للعمال ، ضد « المانداران » ، ضد كل البيروقراطييـــن والمسؤولين النقابيين ٠ وقال غرامشي أن المرء يعتريه احيانا الشك بـأن الاتحاد العام للعمال انما وجد فقط ليسخوا في الاجور على مسؤوليه ، ليفسح الطريق أمام « الخداع الصغير الــذي يمارسه مسؤولوه الكبار الراغبون في ان يرفعوا انفسهم على هرم من مليوني عامل منظم وان يعلنوا بخيلاء : نحن ـ افراد قلائل ـ نعادل مليوني انسان ، ولا بد ان نؤخذ في الاعتبار كممثلين لمليوني انسان » ٠ كان الاتحاد العام للعمال ، تحـت قيادة الاصلاحيين ـ قد تخلى ، ليس فقط عن طريق النقابيـة

الثورية ، بل كان قد فقد بالفعـل حتى القدرة على تنفيذ هذا النوع من سياسة « الخبز والزبد » التي برهنوا هم انفسهـم في الماضي على كفايتها • وعلى سبيل المثال فان سعر الخبـز قد زاد • وكان على الشيوعيين ان يعترفوا بان هـــذا هـــو الواقع ، وان ينظروا الى الاتحاد العام للعمال كأي تنظيم بورجوازي ، « اي كتنظيم لايمكن اكتساب السلطـــــة فيـــه بوسائل دستورية » • لقد أتاح الصراع من اجـــل المجالس لاغلبية بان تفوز داخل الاتحاد العام للعمال ، ولكن كان مـــن الضروري لبلوغ هذا الهدف ان يقتنع جميع الشيوعيين بـــان الصراع من أجل تشكيل وتطوير مجالس المصانع « كان هـو الصراع النوعي للحزب الشيوعي » • كان من الضروري ان نعرف كيف نقنع الجماهير النقابية بان قادتها لم يعـــودوا يتخذون الصراع الطبقي هدفا ، لم يعودوا يرون البورجوازية، بل الشيوعيين بالاحرى ، على انهم الاعداء الذيـــن يتعيـن محاربتهم ، ولم يعودوا يمثلون الجماهير • كان لا بد مـــن ايضاح هذا وتفصيله دائما بعناية اكثر لما فيه مصالح الوعي البروليتاري •

لم يعد « مانداران » النقابـــات ينوون مقاومـــة انتشار الفاشية • ومع ذلك فانهم كانوا قد انتخبوا لتنظيـــم قـــوة الطبقة العاملة ولتنظيم مقاومة البروليتاريا • في ذلك الوقت كانوا قد اصبحوا مسؤولي بيروقراطية جديدة ، لا مناضلـي طبقة عاملة ، فلم يعودوا ينجحون في التفاعل ضد اعتداءات

صاحب العمل · حتى وان كان « عمال فيات رجال من لحم ودم ، فان مقاومتهم وروح التضحية فيهم ، ينبغي ألا يساء استخدامها . وينبغي معاملتهم كبشر حقيقيين » :

« لقد كان تفاؤلنا الثوري ينصهر دائما بفعل هذه الرؤية المتشائمة القاسية في تشاؤمها ، للواقع الانساني ، الذي يتعين على المرء دائما ان يواجهه » ·

وحتى اذا كان الصراع قاسيا ، فانه قد تعين على الثوريين ان يستخدموا كل آخر قطعة من الطاقة لاستعادة الارادة الثورية للجماهير وانقاذها من النفوذ المشؤوم للاصلاحيين والخونة · « لقد زاد تفاؤلنا ، وارادتنا لم تضمحل » ·

الفصل السادس

العمال والفلاحون

« كثيرا للغاية ما نخلط بين العمال والفلاحين ، انهما طبقتان مختلفتان • ولقد كان الحزب الاشتراكي مبنيا على هاتين الطبقتين ، وحقيقة انه كانت بداخله روحان انما ترجع الى هذا » •

(غرامشي ، في صحيفة النظام الجديد ، يوم ٢٨ مارس ـ اذار ـ ١٩٢٢) •

يذهب غرامشي الى ان التحالف بين العمال والفلاحين كان التحالف الوحيد الذي عليه ان يقود البروليتاريا الايطالية على طريق الثورة • فقد كان يرتبط ارتباطا لا انفصام له بمسألة الجنوب ، كما كان يرتبط ـ بطريقة غير مباشرة ، بمسألة الفاتيكان ، وبحضور المثقفين والوظائف

التي يمارسونها · فهذه الموضوعـــات ـ ملخصة تلخيصا منهجيا ـ هي الموضوعات الاساسية التي واجهت غرامشي طوال حياته من تجربة صحيفة **النظام الجديد** حتى المرحلـــة الاخيرة من **دفاتر السجن** ـ هي الموضوعات التي مارس عليها اصالته النظرية الرائعة بأكثر الصور فائدة ·

كانت احدى المقالات الهامة التي نشرها غرامشي فـي **النظام الجديد** في اغسطس (آب) عام ١٩١٩ تحمل بالتحديد عنوان **العمال والفلاحون** · وقد كتب فيها ان الحـرب قـد سببت تحولات ثورية · وقال انه حتى نشوب الحرب العالمية الاولى لم يكن الفلاحون قـد احسوا ابـدا كمـا يحس عضو جماعة· (تلك الجماعة التي كانت بالنسبة للبورجوازية تتمثل في الامة وبالنسبة للبروليتاريا في الطبقة) · الفـلاح يناضل فرديا او كان ينفعل في صورة انفجارات فوضويـة ضد حالة القمع التي كان يوضع فيها باستمرار ، وكـــان يخلط ما بين الصراع الطبقي وقطع الطرق ·ولكن بعدئـــذ « فان اربع سنوات من حفر الخنادق والاستغلال الدامي قـد غيرت سيكولوجية الفلاحين تغييرا جذريا » · وكانت التجربة الروسية قد أظهرت بالفعل ما يمكن ان تكون عليه التجربـة الايطالية ، مع ملاحظة ان الظروف التاريخية في البلديـن لم تكن شديدة الاختلاف · وكتب « ان مشكلة توحيد الطبقة العاملة والفلاحين تعرض بنفس المصطلحات » ، طالمـا ان الشيوعية تمثل ـ بالنسبة لكليهمـا ـ ضرورة وجـود ·

ولا يمكن انجاز الثورة الا في ظل شروط خاصة من الانضباط والتنظيم • وستكون الجماهير العاملة في المدن دعاة الثورة ، ولكنها لا يمكن ان تنجح « بصورة دائمة وفي العمق » بمساعدة هذه القوى وحدها :

« من الضروري لحم المدينة بالريف ، وحفز مؤسسات فقراء الفلاحين في الريف ، التي يمكن للدولة الاشتراكية ان تبنى وتتطور على اساسها، والتي من خلالها قد يكون في الامكان للدولة الاشتراكية ان تدعم ادخال الآلات وتدفع عملية التحويل الكبيرة للاقتصاد الزراعي » •

ان البروليتاريا ـ بحصر المعنى ـ هي العاملين في الصناعة وفقراء الفلاحين ، « جناحا الجيش الثوري » • وينبغي أن يكون كل فرد واعيا فانه « بدون اجماع الرأي بين العمال والفلاحين لا يمكن للمرء ان يحكم » ، ذلك لان العمال مع الفلاحين هم « اكثر قطاعات الشعب العامل عددا » • كان ينبغي التأكيد مشددا ان على الثوريين دائما ان يتوجهوا بالحديث فقط الى فقراء الفلاحين ، الى « المعدمين » • وانها لتكون مشكلة ضخمة ان ننتقل الى تنظيمهم في حركة واعية ، ولكن هذا يكون ممكنا الى الحد الذي تكون فيه « مؤسسات السيطرة الجماعية على الانتاج » قد نظمت ايضا في الريف • وقد اعتقد غرامشي بان هذه المؤسسات هي التي يمكن ان تظهر تماسكا وان تحول جماهير الفلاحين سيكولوجيا وتقنيا على السواء ، « بينما تتيح للاشكال المتوسطة للتملك الخاص

للارض (الملكية الصغيرة) بان توجد » • ولا بد ان تشكل الحركتان الثوريتان ـ حركة للسيطرة على المصانع والاخرى لاحتلال الارض ـ كلا واحدا • ومن ثم لا بد ان يكون العمال واعين بأنهم هم وحدهم الذين يستطيعون حل مسألة الجنوب ، « بطريقة وحدوية »• ومن شأن العمل الثوري للطبقة العاملة ان يحدث تحولا عن طريق التسبب في انقسام قاطع بين فقراء الفلاحين وصغار المالكين من ناحية ، واغنياء الفلاحين او المستغلين (بفتح الغين) من الناحية الاخرى • اذ يصبح فقراء الفلاحين « مساعدي »الطبقة العاملة ويجعلون بامكانها الفوز بالسلطة •

كذلك لاحظ غرامشي انه كان لا بد من ادراك ان الوضع السياسي السائد كان يتميز ـ بسبب الشعور الديني المتفشي في الريف ـ بتأييد كبير من فقراء الفلاحين للاحزاب السياسية التي تمثل « ائتلاف الشرائح الفلاحية المختلفة » • ولكن « الروابط الدينية لا تكفي بالتأكيد لكبح الصراع الطبقي » ، ذلك الصراع الذي لم يتخذ في الريف بعد شكلا عضويا بصورة منتشرة وعن وعي • فحينما ينفصل فقراء الفلاحين عن سياسات تلك الاحزاب التي كانوا يرتبطونبها عاطفيا ، عندئذ فقط يمكن للطبقة العاملة ان تأمل ان يدخل صراعها الطبقي ايضا « مرحلة النهاية » • وسيكون العمال هم الدعاة الاساسيين للثورة الشيوعية ، ولكن الجماهير الفلاحية ستكون هي الوسائط الاساسية للعمل الممهد للثورة • فان العمال ـ الذين هم اكثر وعيا واستعدادا ـ سيطرحون

« مشكلة القوة » ، ولكن هذه المشكلة ستحل اساسا بواسطة جماهير فقراء الفلاحين • ولسوف تتمركز الثورةفي الشمال، ولكن فورا « ستجد طبقة عمال المصانع نفسها في مواجهة هذه المشكلة الهائلة التي خلقتها الحرب ، كيف تنجح في خلـــق تنظيم دولة يملك وسائل تصنيع الزراعة ، ويستطيع ان يضع الفلاحين في نفس ظروف العمل التي للعمال ، حتى يمكـــن تبادل ساعة عملزراعي بساعة عمل صناعي ، علـــى نحـو لا تباد فيه البروليتاريا في الريف مقابل السلع التـي يتـم انتاجها تحت ظروف عمل لا يمكن مقارنتها اطلاقا » • وقال انه من المعروف جيدا ــ الى جانب هذا ــ ان الطبقة الفلاحيـة « واحدة من الطبقات الاجتماعية التي هي ــ تاريخيا ــ الابطأ والاكثر تأخيرا في تغيير ذاتها » •

لقد زعم غرامشي كثيرا ان لدى الحزب الشيوعـــــي فضيلة انه قد حول كليا سيكولوجية عمال الشمـــــال تجـاه الجنوبيين • لقد سقطت الابتسارات والقوالب واحدة بعـــد اخـرى عندما ووجهت بحقيقـة انه كان على العمال فـي الشمال وفقراء الفلاحين في الجنوب أن يعتبـروا انفسهـــم الطبقتين الاجتماعيتين اللتين يسحقهما ويستغلهما ــ وان يكن ذلك بطرق مختلفة ــ نفس اصحاب الملكية ، البورجوازيون • تلك البورجوازية الصناعية نفسها ، التي كانت تمسك بعمال الشمال تحت سطوتها الاقتصادية ، كانت قـــد اخضعـــت الجنوب الايطالي والجزر الايطالية ، وكانت قد « حولتهـــا

الى مستعمرات مستغلة » · ولكن « البروليتاريا الشمالية ، بتحريرها نفسها من العبودية الرأسماليـــة ، سوف تحـــرر جماهير الفلاحين الجنوبية التي تخضعها المصارف (البنوك) والنزعة الصناعية الطفيلية في الشمال » · سيحطم العمـــال الاغلال التي ابقت الفلاح الفقير سجينا ، وسيساعدونه علـى الافلات من اليأس ومن بؤس وجوده · ومن الناحية الاخرى لماذا ينبغي ان يأمل الفلاحون ان تأتي البروليتاريا الصناعيـــة بثورة تحرير لمصلحتهم ؟ لان الطبقة العاملة هـــي الطبقـــة الوحيدة التي تلقى مزايا فعالة من المساواة الحقيقية فـــي ظروف العمل والانتاج في الصناعة وفي الزراعـــة ، ولان « الطبقة العاملة قد انهكت وتتردى جسمانيا بسبـب نقص الغذاء » · (١) لهذا السبب فان الطبقتين ستتعاونان فـــي اعادة تنظيم الدولة ، وتشريك المصنع والمنشأة الزراعيـــة الضخمة ، وتتحرران من استغلال المصارف والرأسمالية ·

واضاف غرامشي انه لسوء الطالع ان الحزب كـــان متأخرا كثيرا في تطوير تحليل ايديولوجي للاحداث التاريخية التي ميزت الحركات الاخيرة لاحتلال الارض · وهو لم يـزل جاهلا كيف يقيم حركة التحرير هذه او حقيقة ان مثل هـــذه الحركة كانت بقيادة « الاحزاب السياسية التي هـــي فـــي

---

(١) هذه اشارة الى الظروف التي كانت سائدة اثنـاء الحـــرب العالمية الاولى ·

الحقيقة مناهضة للثورة » ٠ ان الحزب لم يعرف اية مشاعر ثارت بين جماهير الفلاحين حينما فهموا في النهاية عقم مثل هذه المحاولة للتحرر ٠ كان على الحزب ان يواجه « المشكلة المحورية في الحياة القومية الايطالية ، مسألةالجنوب » ٠ كان يتعين عليه ان يحل شبكة العلاقات المتداخلة بين الفلاحين والعمال ٠ وكان يتعين على العمال ان يفهموا بوضوح شديد كيف تطورت الرأسمالية في ايطاليا ، اي عن طريق اخضاع الريف باطراد للمدن الصناعية ، اخضاع جنوب ووسط ايطاليا للشمال ٠ لقد كانت العلاقة بين المدينة والريف في ايطاليا هي العلاقة « بين جزء من الاقليم القومي وجزء آخر متباين عنه بصورة مطلقة يتميز بملامحه الخاصة به » ٠ فلو ان هذا كله فهم ، لكان من المستحيل على الارستقراطية العمالية الشمالية ـ وكذلك البورجوازية الرأسمالية ـ ان تسيرا في طريق استغلال الجنوب (وهو طريق سلكه جميع الاصلاحيين ، سواء عن وعي او عن غير وعي منهم) بواسطة « نزعة جماعية تضامنية » ★ ، ولكان من الممكن بهذه الطريقة بذل المحاولة لتحرير الطبقة العاملة « على اكتاف غالبية الشعب العامل » ٠ ولا يمكن ان يتم هذا القرار الا عن طريق التحالف بين عمال الشمال الصناعيين وفقراء الفلاحين في الجنوب ، من اجل اسقاط الرأسمالية ، من

★ المقصود بالتضامني Carporativo هنا الذي يجمع في تنظيم واحد بين اصحاب الاعمال (الرأسماليين) والعمال ٠ «المترجم»

اجل تحطيم الدولة البورجوازية ، ومن اجل خلـــق دولـــة بروليتارية ، « لبناء جهاز جديد للانتاج الصناعي يلبـــي حاجات الزراعة ، ويمكن ان يستخدم لتصنيـــع الزراعـــة الايطالية المتخلفة ، ويرفع من ثم مستوى الرفاهية القوميـــة لما فيه فائدة الطبقات العامة » ٠

كذلك فان ملاك الارض ـ الساعين الى سحق الفلاحين ـ كانوا يأملون ايضا في الانتصار على الطبقة العاملة ٠ وكان واجبا على جميع العمال ـ كما قال غرامشي ـ ان يرقبـوا ما يجري في الريف بكل انتباه ٠ والحقيقة ان حزبا ثوريـــا حقا يتميز بدرجة فهمه للمشكلة الفلاحية وبالحلول التي يمكن ان يقدمها لها٠ وفي ايطاليا بالذات تكون ثورة ممكنة فقـط بقدر ما يمكنها جعل مصالح الفلاحين والطبقة العاملة تتوافق تماما ٠ « لهذا فان مشكلة الثورة الايطالية هي مشكلـــــة وحدة العمال والفلاحين » ٠

ولدينا ـ من الناحية الاخرى ـ عدة تقاريـر موجـــزة نشرت في صحيفة **النظام الجديد** ، عن تدخلات قادة الحزب في المؤتمر الثاني للحزب الشيوعي ، وتقرير عن المؤتمـــر الوطني ارسل الى الفرع الشيوعي في مدينة تورينو ، وهـي تقارير يرجح ان يكون قد كتبها غرامشي ٠ وهناك وثائـــق تترك القارىء في حيرة تامة لانها غالبا ما تبدو متضاربة ـ ومتضاربة بدرجة كبيرة ـ مع مضمون مقالات غرامشي التي لخصناها لتونا ٠ وهذه الحقيقة قابلة للتفسير جزئيا بـــان

التقارير قد تكون دقيقة تماما وقد لا تعبر عن فكر غرامشي تعبيرا كاملا · وبالاضافة الى هذا ينبغي ان نتذكر ان غرامشي غالبا ما كان يطرح في مقالاته مواقف وافكارا ليست مواقفه وافكاره الا جزئيا ، وانما يشارك فيها كل قادة جهاز الحزب · وقد استطاع غرامشي في وقت لاحق فقط ان يجري بحثا شخصيا مستقلا في مشكلة قيام تحالف بين العمال والفلاحين · ويبدو لنا ان هذا لا بد ان يتطلب اكثر التحليلات جدية لفكر غرامشي · ومع انه ـ على حد علمنا ـ لم يقدم احد حتى الآن اقتراحات مقبولة لتفسير صحيح لهذه الاجزاء ، كما لا يبدو أن احدا قد انفق وقتا كثيرا في تحليلها ·

لقد كانت اهم مسألة في ذلك الوقت هي مسألة الجبهة المتحدة ·· ومع ذلك فقد كان غرامشي مقتنعا بانه ليس الحزب الشعبي (٢) فحسب ، وانمايضا جزء من الحزب الاشتراكي، ينبغي ان يستبعد لان هذا الحزب كان يقوم في الاساس على الفلاحين :

« الآن ، صحيح ان الفلاحين راغبون في الانخراط في

---

(٢) تأسس الحزب الشعبي عام ١٩١٩ وكان السلف للحزب الديمقراطي المسيحي الحالي · وكان يقوم على اساس من البورجوازية الصغيرة الريفية والفلاحية ·

الصراع ضد الدولة ، ولكنهم يريدون ان يحاربوا للدفاع عن ملكيتهم .وليس فقط للدفاع عن اجورهم وساعات عملهم . والصراع الذي يشنونه تحركه بعض الاوضاع الداخلة في مجال الفنون المدني البورجوازي » .

على الحزب الشيوعي ان يظل حزب العمال ، التنظيم السياسي للطبقة العاملة ، دون ان يختلط بجماعات اجتماعية اخرى مما يمكن ان يفضي الى تثبيط العمل الثوري »

« كثيرا جدا ما نخلط بين العمال والفلاحين . انهما طبقتان مختلفتان . وقد كان الحزب الاشتراكي مبنيا على هاتين الطبقتين ، وحقيقة انه كانت هناك روحان داخله انما ترجع الى هذا . ان باستطاعة الطبقة العاملة والفلاحين ان يتوصلا الى اتفاق في شكل عضوي ، وهو ما اقترحه الحزب الشيوعي في اطروحاته عن المسألة الزراعية ، ولكنه ينبغي ان يعتقد ان الفلاحين يمكن ان يصبحوا شيوعيين . ويتعين على الحزب الشيوعي ان يحافظ علىهويته كحزب عمالي له بعض مراكز العمل في الريف » .

ولقد كان الطابع الثوري للعمال والفلاحين مختلفا اختلافا عميقا ، وكان من قبيل العبث النضال من اجل جبهة متحدة تضم الحزب الشعبي ، الذي كانت قاعدته ـ وظلت ـ هي الفلاحين . ويمكن ـ لاسباب تكتيكية ـ ان تتوصل الطبقة العاملة الى اتفاقات مؤقتة مع الفلاحين ، ولكن « شيئا واحدا

لا يمكن الاستغناء عنه ، وهو الاحتفاظ باستقـــلال وتفـوق التنظيم السياسي للعمال (صناعيين وزراعيين) حيث انهـا هي الطبقة الوحيدة التي يمكن اعتبار حركتهـــا الثوريـــة شيوعية » • واستطرد غرامشي (مشيرا في هـــذا السياق بشكل خاص الى ملاك الارض الصغار ، ومميزا الفلاح مـــن العامل الزراعي البسيط) فقال انه صحيح اننا عندما نقـرر ان الفلاحين لا يمكن ان يكون لهم طابع ثوري ، فانما نشيــر الى الفلاحين كطبقة وليس الى الفلاحين الافراد الذين يمكـن دائما ان يصبحوا شيوعيين جيدين •

لقد ظلت بديهيتان اساسيتان بنفس الدرجة مشروعتين• الاولى ان الثورة لا بد أن تقودها وتنفذها الطبقة العاملة ، التي تحرر ايضا ، في الوقت نفسه وبهذه الطريقة ، جميـــع الفلاحين من اغلال العبودية التي لا تزال تكبلهم • والثانيـة ان الثورة البروليتارية ما كان يمكن ان تحقق نجاحا حقيقيا ومستقرا دون الاسهام الحاسم من الفلاحين • ويبدو لنـــا ان هاتين النتيجتين اللتين انتهى اليهمـــا غرامشي لا تزالان تتمشيان مع جميع الاعتبارات السابقة • ولكن من المؤكد ان القارىء لا بد ان يكون قد لاحظ مدى « جدة » بعض الافكار التي لخصناها من التقارير « الرسمية » التـــي نشرت فـــي صحيفة النظام الجديد • ومع ذلك فانه مما لا سبيل الـــى التفكير به ان هذه التقارير كان يمكن ان تنشر في اعمـــدة الصحيفة اليومية دون الموافقة المسبقة من مدير تحريرها •

ولقد واصل طوال حياته باسرها البحث في مشكلات العلاقة بين العمال والفلاحين وموضوع مسألة الجنوب · وقد صاح مرة في وجه عضو في الحكومة الائتلافية « انني جنوبي ! » . وذلك عندما قوطع ـ اثناء تدخله في مجلس النواب عام ١٩٢٥ ـ واتهم بأنه لا يعرف الجنوب · وكرس غرامشي مقالا شهيرا ، ظل ناقصا ، لهذا الموضوع : **بعض موضوعات حول مسألة الجنوب** ، وهو المقال الذي كان يشتغل به وقت القاء القبض عليه · وربما يكون هذا المقال رائعة غرامشي ، على الرغم من التحفظات التي ابداها هو نفسه بشأنه في عبارة اوردناها من قبل ، مأخوذة من رسالة الى شقيقة زوجته يوم ١٩ مارس (آذار ـ عام ١٩٢٧ : « هل تذكرين مقالتي الموجزة جدا والسطحية جدا عن الجنوب الايطالي وعن اهمية بندتو كروتشه ؟ » لقد كانت رائعة بسبب وضوح عرضها ، ومعالجتها المركبة ، وبسبب حدة اصالة احكام غرامشي · رائعة للقدرة التي تداخلت بها الموضوعات المختلفة فيها وظهرت في تضايفها المتبادل · اننا نجد فيها تمثل اهم الموضوعات التي كانت تواجه غرامشي طوال حياته : مسألة الجنوب ، مشكلة التحالف بين العمال وفقراء الفلاحين ، مسألة الفاتيكان ، مشكلة وظيفة المثقفين في المجتمع البورجوازي · في هذا المقال ، وباسلوبه ، هناك انفصال عن رغبة المجادلة التي تتميز بها المقالات الصحفية التي كان يمليها المناخ السياسي · كانت انفصالا قصده غرامشي نفسه ، بعد ان سجن ، حينما

كان يأمل ان يبدأ في الكتابة بطريقة « موضوعية » حقا ـ وهي خطة نفذها في **دفاتر السجن** • ومقاله عن مسألة الجنوب يمثل بالتحديد للامة هذا التحول •

كتب غرامشي ان المفهوم الاساسي الذي كان يوجه الشيوعيين في تورينو في صراعهم كان مفهوم « التحالف السياسي بين عمال الشمال وفلاحي الجنوب من اجل ابعاد البورجوازية عن سلطة الدولة » • وكان لا بد للمرء ـ لكي يتحقق هذا التحالف ـ ان يتصدى لحقيقة ان المسألة الفلاحية في ايطاليا قد اتخذت « شكلين خاصين ونموذجين ، مسألة الجنوب ، ومسألة الفاتيكان • وكانت اول خطوة اتخذها عمال تورينو هي رفض سلسلة القوالب التي كانت قد مدت جذورها في اعماقهم ، مثل الفكرة القائلة بأن الجنوبي كم مهمل ، انه احمق ، مجرم ، بربري • وقف عمال تورينو ضد هذه القوالب في ممارستهم وفي عملهم ، عن طريق التآخي مع الفلاحين الجنوبيين الذين جندوا في القطاعات المختلفة التي حطت في تورينو ، وعن طريق اقتراح ترشيح جنوبي مثل غايتانو سالفيميني في دائرة تورينو ، وعن طريق القيام بعمل دعائي نشط بين النازحين ، وعن طريق قيادتهم الى مراكزهم السياسية •

فلماذا حدث هذا التغير الضخم في وعي كل مناضل ؟ لانه « لا عمل جماهيريا ممكنا اذا لم تقتنع الجماهير نفسها بالاهداف التي تريد تحقيقها وبالوسائل التي يتعين تطبيقها •

والبروليتاريا . لكي تكون قادرة على ان تحكم كطبقة . لا بد ان تتخلص من كل مخلفات تضامنية ، من كل تعصب او تييس سنديكالي · فما الذي يعنيه هذا ؟ ليس فقط ان الفروق القائمة بين وظيفة ووظيفة لا بد ان تزول ، وانما ايضا ان من الضروري ـ لاكتساب ثقة وتأييد الفلاحين والمجموعات الحضرية العديدة شبه البروليتارية ـ القضاء على ابتسارات معينة وازالة انانية معينة يمكن ان توجد ـ بل وتوجد فعلا ـ بين الطبقة العاملة كطبقة ، حتى بعد ان تكون الفروق المهنية قد اختفت من بينهم » ·

لقد تقفى غرامشي تاريخ عشرات السنين السابقة في ايطاليا ، وركز بحثه على سياسات جيوفاني جيوليتي · وقال غرامشي ان جيوليتي كان يريد دائما ان يسحق فلاحي الجنوب · في البداية استخدم الحزب الاشتراكي ، الذي كان قد اصبح ـ حتى بصورة لاشعورية ـ اداة لسياسات جيوليتي · وبعد ذلك ـ ولما كان الحزب الاشتراكي قد اتخذ مرة اخرى مواقف لا هي اصلاحية ولا هي تضامنية ـ تحول جيوليتي الى الكاثوليك ليواصل سياساته · « لقد تحول جيوليتي تحولا شبه تام · استعاض بالتحالف بين البورجوازية والكاثوليك الذين يمثلون جماهير الفلاحين في وسط ايطاليا عن التحالف بين البورجوازية والعمال » · ولكن مسألة الجنوب ظلت بلا حل ·

ويدرك حتى إقل القراء انتباها اتساع وعمق حجج

غرامشي . وقد استطرد غرامشي قائلاً ان الجنوب كـــان يتميز بافتقار مطلق الى الوحدة الاجتماعية ، حيث ان السكان الفلاحين كانوا يفتقرون الى اي نوع من التماسك . ويمكن ان نميز في المجتمع الجنوبي ثلاث شرائح اجتماعية ـ علـــى الاقل ـ هامة للغاية :

« الجماهير الفلاحية العريضة المفككة وغير المتبلورة ، مثقفو الطبقة المتوسطة الفلاحية الدنيا والطبقة المتوسطـة ، وكبار ملاك الارض وكبار المثقفين » .

والحقيقة ان هذه الفئة الثالثة هي التي كانت تسيـطر سيطرة كاملة على جميع جوانب الواقع الجنوبي ، وخاصة في المجال الايديولوجي ، حيث « تتم المركزية بدرجة اكبر مـــن الكفاية والدقة » . وبهذا المعنى كـــان بامكان غرامشي ان يصدر احكاما قاسية على اثنين من المثقفين الجنوبيين مثـل جيوستينو فورتوناتو وبنديتو كروتشه ، اللذيـن عرفهما بأنهما « اعظم شخصيتين في الرجعية الايطالية » .

أما باقي مقاله فهو مكرس كلـه ـ تقريبـــا ـ لفحص لحضور و وظيفة المثقفين في المجتمـع الجنوبي في ارهاص حاذق بصفحات كثيرة من **دفاتر السجن** . وقد كانت جماعـة المثقفين الاجتماعية ـ التي ينتمي اليها ايضا معظم رجـــال الكنيسة ـ هي الرابطة الضرورية بين الفلاح الجنوبي ومالـك الارض الكبير . وكان الهدف الوحيد « لهذه الكتلة الزراعية

الشيطانية » هو الحفاظ على الحالة الراهنة • وفوقها كانت تعمل كتلة المثقفين ، وهؤلاء اتخذوا حذرهم للحيلولة دون ان تصبح التشققات في الكتلة الزراعية مفرطة الخطر ولعرقلة اي انهيار في بنيانها • ولكن ، كما ان المجتمع الجنوبي كان يتميز بتفكك اجتماعي واسع النطاق ـ كذلك فان كتلة المثقفين كانت تتميز بافتقار يكاد يكون مطلقا الى التماسك والوحدة • كان المثقفون الجنوبيون منتشرين في مجموعات صغيرة ، ولهذا كانوا يتلمسون طريقهم بحثا عن طريق مشترك وانتهى كل منهم الى العثور على طريقه الخاص ، وهو الطريق الاكثر ربحا • فكانوا يؤيدون وظائف متباينة ، ان لم نقل متناقضة • وعلى سبيل المثال فان كروتشه « انجز مهمة قومية بالغة الاهمية • لقد فصل المثقفين الراديكاليين في الجنوب عن جماهير الفلاحين ، وجعلهم يشتركون في الثقافة الاوروبية والقومية ، ومن خلال هذه الثقافة جعلهم مستوعبين في البورجوازية القومية ، ومن ثم الكتلة الزراعية» •

في تورينو ـ بعد الحرب مباشرة ـ كانت مجموعة صحيفة النظام الجديد وبييرو غوبيتي قد قاموا بمحاولة مرموقة للاقتراب من مواقع الجنوب ومشكلاته • « كانت شخصية غوبيتي والحركة التي يمثلها مخلوقات عضوية للمناخ التاريخي الايطالي الجديد • وتكمن دلالتها واهميتها » في ان مثقفي الجنوب كانوا قد حققوا هم ايضا نموا مهما • « ومن بين هؤلاء المثقفين فان غويدو دورزو هو اكثر الشخصيات اكتمالا واثارة للاهتمام » • ولكن مناقشة غرامشي تناولت

غالبا الموضوعات العامة ذات الاهمية القومية · وقد قال ان نمو المثقفين كان ابطأ كثيرا من نمو اية مجموعة اجتماعية اخرى · وكان من العبث الاعتقاد بان المثقفين ـ ككل ـ يمكنهم الانشقاق عن ماضيهم واتخاذ مواقف ثورية · صحيح ان القبول الفردي من جانب مثقف للبرنامج الثوري للطبقة العاملة له أهميته بالتأكيد ، ولكننا « معنيون بالمثقفين ككل ، وليس فقط كأفراد » · وعلينا ان نتصرف على نحو يؤدي الى « حدوث تمزق في الطابع العضوي ، الذي يكتسب تاريخيا ، في جمهرة المثقفين : بحيث يخلق تيار يساري ـ بالمعنى الحديث للكلمة ، اي تيار متجه نحو البروليتاريا الثورية ـ كتشكيل جماهيري » · لقد عمل كثير من االمثقفين ـ وكانوا لا يزالون يعملون ـ في هذا الاتجاه ، من اجل هذه المهمة الضخمة · وكثيرون منهم « فهموا ان قوتين اجتماعيتين فحسب هما القوميتان في جوهرهما ، وهما الحاملتان للمستقبل : البروليتاريا والفلاحون · وعند هذه النقطة تنقطع الوثيقة ·

وقد واصل غرامشي تحليل المشكلة ببصيرة حادة ، طوال السنوات التالية من حياته · تحدث عنها في رسالته الشهيرة الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي عام ١٩٢٦ (وهي رسالة اعيد اكتشافها ونشرت حديثا فقط) ، وتحدث عنها مطولا في **دفاتر السجن** · ولاحظ غرامشي في هذه الرسالة الى الحزب الشيوعي السوفياتي انه ، في

ايطاليا كما في الاتحاد السوفياتي ، تتكون غالبية الشعب من الفلاحين ، الذين من شأنهم ان يطرحوا ـ بسبب كثرة عددهم وثراء تقاليدهم التنظيمية ومدى تغلغل الجهـــاز التنظيمـــي الاكليركي بينهم لقرون طويلة ـ وعلى نحو اشد حدة حتى منه في روسيا « المشكلات الكامنة في هيمنة البروليتاريـــا » • فحتى التفوق الصناعي النسبي في ايطاليا لم يستطـــع ان يكون ذا عون كبير للبروليتاريا الصناعية ، لانها كانت تفتقر الى كل المواد الاولية الاكثر اهمية • « ولهذا فان البروليتاريا ستكون قادرة على انجاز وظيفتها القيادية فقـــط اذا زودت بروح التضحية وتحررت بالكامل من كل ميل للنزعة التضامنية السنديكالية او الاصلاحية » •

كذلك فان هناك صفحات كثيرة مكرسة للمشكلة فـــي دفاتر السجن • وكتب غرامشي ـ في فقرة شهيرة للغاية مـن المجلد الثاني من الـ « ريزورجيمنتو » ـ ان فقر الجنوب : « لم يكن من الممكن ان يفهم من جانب عمال الشمال ، الذيـن كانوا غير قادرين على استيعاب الكيفية التي تمت بها العملية التاريخية لتوحيد الاقليم الوطني ، لا على اساس مساواة ، وانما على اساس تفاوتات قوية الى حد انه تحتم ان يستمـر الشمال في ان يكون « اخطبوطا » يثرى على حساب الجنوب ، ويرتبط توسعه الاقتصادي الصناعي بعلاقة مباشرة مـــع افقار اقتصاد الجنوب وزراعته • لقد ظن شعـــب شمـــال ايطاليا انه اذا لم يكن الجنوب قد حقق تقدما بعد ان تحرر من القيود التي كان حكم اسرة البوربون يعارض بها التطـــور

الحديث ، فان هذا يعني ان اسباب فقـــره ليست خارجيـــة يتعين البحث عنها في الظروف السياسيـــة ـ الاقتصاديـــة الموضوعية ، بل اسباب داخلية ، فطرية في سكان الجنوب . وقد ازدادوا اقتناعا بذلك حيث ان فكـرة الثراء الطبيعـــي للارض كانت عميقة الجذور . وبقي تفسير واحد فقط ـ هـو عجز الجنوبييـــن العضوي ، وبربريتهـــم ، ودونيتهـــم البيولوجية » ...

ومع ذلك فان التاريخ استطاع ان يفسر هذا الاختـلاف العميق ، لانه خلال فترة الـ « ريزورجيمنتو » بالذات « تبدت العلاقة التاريخية بين الشمال والجنوب بالفعل فـــي شكـــل جنيني ، كعلاقة مماثلة لتلك التي تقوم بين مدينة كبرى وريف كبير » . واصبح هذا واضحا خلال القـــرن التاسع عشر حينما « كان اصطلاح قطع الطرق (البريجانديج) يعني دائما الحركة الفوضوية المشاغبة المتميـــزة بالضراوة ، حركـــة الفلاحين للاستيلاء على الارض » .

وقد عاد غرامشي في **المثقفون وتنظيم الثقافة (دفاتر السجن) الى بعض المصنوعات التي كان بالفعل قد واجهها في مسالة الجنوب :**

« لا تنجب جماهير الفلاحين ـ وان كانت تؤدي وظيفة جوهرية في عالم الانتاج ـ مثقفيها « العضويين » الخاصين بها ، ولا « تستوعب » اية مجموعة من المثقفين « التقليديين »،

حتى على الرغم من ان مجموعات اجتماعية اخرى تأخذ كثيرا من مثقفيها من جماهير الفلاحين ، وان جزءا كبيرا من المثقفين التقليديين هم من اصل فلاحي » ٠

وحتى رسائل من السجن مليئة باصداء مثيرة للذكريات في هذا الصدد ٠ اذ تجد هذه المشكلة ، الهائلة في تلك الرسائل « خلاصها » بسخرية غرامشي ، وهو يتحدث بتواضع شديدعن نفسه وعن اهتماماته الخاصة ، بعيدا تماما عن التورط في نزعة عاطفية دونية بالاشارة الى اشياء واشخاص في عالمه الخاص ٠ ان من المعروف جيدا الى اي مدى كان الجنوب ماثلا بواقعه ، ببؤسه ، بفقره الممتد عبر قرون طويلة، حتى في عظام غرامشي ، وعظام اسرته ، وعظام احبائه ٠ وفي احدى تلك الرسائل ـ في الخامس من مارس (آذار) عام ١٩٢٨ ـ كتب غرامشي في عجالة الى شقيقة زوجته : « كذلك في كتاب حديث جدا لميتشل يكرر ان فلاح كالابريا المتوسط ، حتى وان كان اميا ، اكثر ذكاء من الاستاذ الجامعي الالماني المتوسط ٠ وهكذا يشعر اناس كثيرون بانهم معفون من واجب ازالة الامية من كالابريا » ٠ تمتلىء رسائل غرامشي بهذه الملاحظات ، مازحا في الظاهر ، بلا اهمية ، ولكنه ـ في الحقيقة ـ هادف واصيل على نحو عميق ٠ وقد كتب ـ على سبيل المثال ـ الى زوجته جوليا ، مشيرا الى ابنه ديليو ، الذي كان المفروض ان يكون قد كبر تماما عندما يكون ابوه قد انهى مدة الحكم الصادر عليه : « ولكنني اعتقد

انه سيكون قد انجب اطفالا ، لانه اذا كانت المدينة تريـد ان تدافع عن نفسها ضد الغزو من الريف وكي لا تفقد هيمنتهـا التاريخية ، فانه سيتعين على الجيل الجديد ان يغير وجهـة نظره في كثرة الانجاب ، خصوصا حيث تعيشين • فاذا كانت المدينة تنمو بسبب النزوح وليس بسبب مقدرتها الذاتية على الاخصاب ، فهل سيكون بمقدورها ان تنجز وظيفتها الاولى ، ام انها ستتعرض للاجتياح ، بخبراتها المتراكمة ، من جانـب زريبة الارانب الفلاحية ؟ » بالنسبة لغرامشي كانت كل لحظة، كل موضوع ، كل شخص ، فرصة ، مفتاحا مهما كان عرضيا لتفكير اعمق ، لبحث اكثر دقة ، من اجل تطوير التحليل الذي كان شغل حياته الشاغل كلها •

الفصل السابع

المثقفون وتنظيم الثقافة

« ان مصنعا ينتقل من السيطرة الرأسمالية الى سلطة العمال سوف يستمر في انتاج الاشياء المادية ذاتها التي ينتجها اليوم • ولكن بأية طريقةوفي اية اشكال سوف تولد الاعمال الشعرية » ؟

(غرامشي ، في صحيفة النظام الجديد ، ٥ يناير ــ كانون الثاني ــ ١٩٢١) •

مناقشة غرامشي للمثقفين وتنظيم الثقافة هي الاستمرار المنطقي للاهتمامات التي تطورت اعلاه ، وهي المحور الاساسي لفكره • انها مناقشة بدأت مع كتاباته المبكرة للغاية وتطورت ، بعمق كبير جدا ، في كل صفحات **دفاتر السجن** •

وفي هذا المجال كان غرامشي يملك افكارا واضحة الى

اقصى حد من البداية الاولى • فبينما نجد فـــي المجـالات الاخرى فروقا دقيقة ، او نجد في المشكلات الاخرى شكوكـا او تذبذبات في فكره ، فان غرامشي قد وجد في مجال الثقافة وفي مجال تحليل وظيفة المثقفين ــ من البداية ــ « الفكرة » التي قدر لها ان تتطور وتسري في مسار السنين • وقد كتب في ديسمبر (كانون الاول) عام ١٩١٧ :

« ان الجمعية الثقافية التي يتعين على الاشتراكييـــن دعمها ينبغي ان تكون لها اهداف طبقية وحدود طبقية • ينبغي ان تكون مؤسسة بروليتارية ذات غايات واضحة • فـــان البروليتاريا ــ في لحظة معينة من تاريخها وتطورها ــ تصبح واعية بان الحياة بمجملها تفتقر الى عنصر مكون ضروري ، وهي تخلقه لنفسها ، بقواتها الخاصة ، بارادة قوتها الخاصة، ومن اجل غاياتها الخاصة » •

لا يستطيع الثوريون ان ينتظروا كل مـرة ان يضــع التاريخ على جدول اعماله المشكلات التي يتعين حلها قبــل مواجهتها • ونشاطهم السياسي ينبغي الا يرتجل ، انما ينبغي ــ بدلا من ذلك ــ ان يعد اعدادا دقيقا • « والى جانب هـذا ، هناك بعض مشكلات فلسفية ودينية واخلاقية يستلزمها العمل الاقتصادي والسياسي » ، وحتى هذه المشكـــلات لا تتــم مواجهتها بدرجة كافية تماما او بالاستعداد الكافي • فاذا كانت الجماهير قد ربيت ، او دفعت الى تربية ذاتها ، « فـان مسألة « المثقفين » يمكن ايضا ان تحل في جزء كبير منها » •

ومن المؤكد انه حتى بين المناضلين كانت الآراء تتباين بل حتى تتصارع حول ما ينبغي فهمه بالثقافة ، وحول ما ينبغي ان تكون وظيفة الثقافة ووظيفة المثقفين ٠

« انني اعطي للثقافة هـــــذا المعنى : تدريب الفكر ، اكتساب الافكار العامة ، بمادة ربط العلة والمعلول ٠٠٠ ولكي اكون اكثر وضوحا في هذا الشأن ، لدى مفهوم سقراطـــي للثقافة ، واعتقد انه يعني ان على المرء ان يفكر جيدا ، أيا كان ما يفكر فيه ، ولهذا ينبغي على المرء ان يفعل شيئـــا ما جيدا ، ايا كان ما يفعله » ٠

ولم يكن هذا كافيا ٠ فالآراء التي يعتنقها الافراد عن الثقافة ليس لها وزن كبير ٠ ليست لها اهمية ٠ انما كـان الشيء المهم فهم ان الثقافة هي « مفهوم اساسي من مفاهيم الاشتراكية ، لانه يدمج مفهوم حرية الفكر الغامض ويجعله محسوسا » ٠ ولكن هذا ايضا لم يكن كافيا ٠ فهذا لن تكون له اهميته ولن يكون فعالا الا اذا نظمت الثقافة ٠ « اننا ننظم الثقافة تماما كما نحاول تنظيم كل نشاط عملي » ٠ لا تنظيما عرضيا ، نتيجة جهد ارادي ، نتيجة تأمل ، نتيجة قـــرار « سياسي » ، وانما تنظيما يلبي حاجة ، حتى وان لم يكن قد استشعر هذه الحالة في البداية الا قليلون ٠ فحتى تنظيـــم الثقافة ـ مفهوما بمعنى انساني ـ تكـون لـــه اهميته لان « المشكلات ينبغي الا تحسب في ذاتها ولذاتها بقدر ما ينبغي ان تحسب للطريقة التي تتم معالجتها بها » ٠

كذلك تفرض مشكلة تنظيم ثقافي للجماهير ـ واحيانا ما يكون ذلك بصورة درامية ـ مشكلة لغة • لقد كان اللوم يوجه الى غرامشي احيانا لاستخدامه لغة « صعبة » للغاية او مفرطة التقافة الى حد لا تكون معه مفهومة لجماهير قرائه • ومن المهم لموضوعنا ان ندرك معنى هذه المجادلات التي لا تزال ـ بعد مرور كل هذه السنوات الكثيرة ـ تبدو غير هينة ولا شخصية • كان غرامشي يدرك ان افقار لغته سيعني غالبا افقار المناقشة « التي كانت تفيض بمفاهيم لها اكبر الاهمية ، وبأخص واثمن جوهر لروحنا » • ليس بامكان المرء ان يخدع القارىء من أجل ادعاء سهولة لم تكن كامنة ، لا في جوهر المشكلة التي تجري مواجهتها ولا في عمق المناقشة الدائرة • « ان مفهوما قد يكون صعبا في ذاته لا يمكن التعبير عنه بسهولة دون تعريضه للابتذال الكلي • ومن الناحية الاخرى فانه لا يمكن الا للديماغوغيين والمخادعين في المنطق والدعاية ،الزعم بان هذا الابتذال هو المفهوم الاصلي » • على اللغة ان تحاول تكييف ذاتها على المستوى المتوسط من القراء ، ولكن عليها ايضا ان ترتفع قليلا ـ ربما ـ فوق هذا المستوى لكي تقدم حافزا فكريا ، لكي تجعل عددا معينا ، على الاقل ، من هؤلاء القراء ، يبذلون جهدا لتخطي حدود « الكتيبات » • على الجماهير ان تربي نفسها لاسباب سياسية دقيقة • « فالتربية والثقافة والتنظيم الواسع للمعرفة والخبرة هي استقلال الجماهير عن المثقفين » • عندئذ تصبح الثقافة حرية ، البحث عن الحقيقة، امكانية تحرر المرء من تحريضات المثقفين ، من الاعيب

الواقع التي يؤدونها غالبا باسم الطبقة الحاكمة • وبالتأكيد تصبح هي البحث عن الحقيقة ، طالما ان « التاريخ والثقافة محترمان كثيرا الى حد لا يمكن معه تشويههما وثنيهما بفعل متطلبات اللحظة الطارئة »•

فاذا كانت الطبقة العاملة مقتنعة بكل هذا ، فانه ينشأ عن هذا ان « البروليتاريا » لا بد ان تطرح ـ جنبا الى جنب مع مشكلة غزو السلطة السياسية والسلطـة الاقتصادية ـ مشكلة غزو السلطة الثقافية ، ولا بد ان تفكر ـ تماما كمـا فكرت في تنظيم نفسها من أجل السياسة والاقتصاد ـ فـي تنظيم نفسها ايضا من أجل الثقافة » • ومن شأن هذا التنظيم ان تكون له اهمية اساسية حتى بعد ان يكـون الصراع الطبقي قد زال في التاريخ ، لانه سيكون من المحتم علـى الانسانية بعد ان تصارع ضد « القوى المتوحشة في الطبيعة»، على نطاق لم يتصور من قبل ، بواسطة آراء وطرق خاصـة في التفكير والرؤية • « على اساس من هذا يمكن ـ حتى في يومنا هذا ـ ان نتخيل ان الطبقة العاملة ـ في مرحلة الحياة التاريخية المستقلة ذاتيا استقلالا تاما ـ ستتميز ايضابامتلاك تصورها الاصلي الخاص للعالم • وحتى في يومنا هذا يمكن ان تحدد الخطوط العريضة لبعض سماتها الاساسية » ، ـ ثقافة جديدة ـ صار من الممكن فعلا مناقشتها وتنظيمها ،تقرر الا ترفض أي حل او اقتراح رفضا قبليا APriori ، حتـى وان كان اقتراحا يبدو في ظاهره على أقل درجة من الصلة بروح مناضل شيوعي • وقد قال غرامشي انه في موسـكو

ـ على سبيل المثال ـ ابلى الرفيق لونا تشارسكي ★ بــلاء حسنا للغاية بالحديث عن المستقبلية الايطالية ، وتعريــف فيليبو توماسو مارينيتي بانه مثقف ثوري (١) · ان هذا لن يثير دهشة الا بين « محافظي حركة الطبقة العاملة » ، الذين ـ حينما يهتمون بالشيوعيين فــانهم بالاضافة الى اتهامهم بالبرغسونية والاراديــة والذرائعيــة (البراجماتيــة) والروحانية ، سيتهمونهم ايضا بالمستقبلية · ولكن الطبقــة العاملة ، التي عرفت ان « عليها ان تؤسس حضارة جديدة»، قد قابلت بعض مظاهر المستقبلية بتحية وجدانية متعاطفة قبل الحرب · وكان بعض العمال قد دافعوا فعلا عن المستقبليين، الذين تعرضوا للهجوم من جانب دوائر الادباء الاكاديميين المحترفين المعتادة · كانت الحقيقة انه بينما عرف ثوريــو المجال الاقتصادي والسياسي ما ينبغي عمله « فان مجــال الصراع من أجل خلق حضارة جديدة كان ـ من الناحيــة الاخرى ـ غامضا بصورة مطلقة ، متميزا بصورة مطلقــة ايضا بما لا يمكن التنبوء به وما لا يمكن توقعه » · لم يكن

★ انوتولي لوناتشارسكي (١٨٧٥ ـ ١٩٣٢) شخصية بارزة في الحياة الثقافية الروسية ، تذبذب بين البلشفية والمنشفية وانتهـى بالمطالبة بالجمع بين الماركسية والدين وتعرض لنقد شديد من لينين، خاصة في كتابه المادية والمذهب النقدي التجريبي · «المترجم »

(١) كان تروتسكي قد استشار غرامشي بشأن الحركة المستقبلية الايطالية بينما كان الاول يضع كتابه الادب والثورة ·

من شأن التقنية الانتاجية ان تتعرض لتغييرات الا بمقتضى القوانين عينها التي تنظم تطورها الداخلي » • ان مصنعا ينتقل من السلطة الرأسمالية الى سلطة العمال سوف يسخر في انتاج الاشياء المادية ذاتها التي ينتجها اليوم • ولكن بأية طريقة وفي اي اشكال سوف تولد الاعمال الشعرية والدرامية والروايات والموسيقى والتصوير والتصميم واللغة ؟ » •

هل يقبل غرامشي علاقة جدلية مباشرة بين القاعدة والبناء الفوقي ؟ لقد كتب يقول : « انه ليس مصنعا ماديا ذلك الذي ينتج هذه الاعمال • فلا يمكن ان يعاد تنظيمه بواسطة سلطة العمال طبقا لخطة • الا يمكن تحديد الانتاج لاشباع حاجات مباشرة ، تراقبها وتحددها احصاءات • في هذا المجال لا شيء يمكن التنبوء به » • كذلك ليس التنبوء ممكنا ـ فوق كل شيء ـ من وجهة النظر « التقنية » ، ولكنه كان ممكنا لمناضل ان يتنبأ على الاقل بما يلي :

« سوف توجد ثقافة (حضارة) بروليتارية تختلف كليا عن الثقافة البورجوازية • وفي هذا المجال ايضا سوف تتحطم الفوارق وتندثر النزعة الطموحية البورجوازية • سوف يوجد شعر وروايات ومسرح وعادات ولغة وتصوير وموسيقى تتميز بميزات حضارة بروليتارية ، ستكون هي ازدهار وزينة التنظيم الاجتماعي البروليتاري » •اي انه ـ في النهاية ـ لا شيء في هذا المجال يمكن التنبوء به الا في عبارات عامة •

ما العمل ؟ ماذا يبقى ليعمل ؟ « لا شيء غير هذا الا تدمير الشكل الحاضر من الحضارة » · والعبارة قد تبدو رؤيوية ، خاصة بالنسبة لصدورها عن غرامشي ، ولكنه سارع الى تفسير ان كلمة « تدمير » لا يمكن ان يكون لها في هذا المجال المعنى نفسه الذي لها في المجالات الاخرى ـ في المجالات السياسية والاقتصادية · انما ينبغي فهم العبارة بمعنى انه سيكون من الضروري « تدمير السلطات العلوية والابتسارات والمعبودات والتقاليد الجامدة الروحية » · وينبغي الا تكون هناك مخاوف واحجامات وابقار مقدسة : هذا كان الدرس الذي يتعين على الثوريين ان يتعلموه من المستقبلية · ومن ثم فان لكلمة « تدمير » معان كثيرة · « انها تعني عدم الخوف من الجدة والجرأة ، عدم الخوف من القوى الخارقة ، عدم الاعتقاد بان العالم سينهار اذا ما ارتكب عامل اخطاء نحوية ، اذا ما انكسرت قصيدة ، اذا ما شابهت لوحة زيتية ملصقا ، اذا ما ازدرى الشباب رزانة الاكاديميين الدقيقة » · لقد فعل المستقبليون هذا كله ازاء الثقافة البورجوازية التقليدية القديمة · ومن المؤكد ان الطبقة العاملة ستظل لوقت طويل لا تعرف كيف تعمل اكثر او افضل من اولئك « **الذين كان لديهم التصور الواضح والمتميز بان عصرنا ، عصر الصناعة الكبرى ، عصر مدن العمال الكبيرة ، عصر الحياة الصاخبة والحارة ، فكان لا بد ان يملكوا اشكالا جديدة من الفن والفلسفة والعادات واللغة** » · (التأكيد لغرامشي) ·

ومن ثم فان الواجب الاول لثوري مناضل هو ان ينزع الاقنعة عن الاساطير الزائفة للثقافة البورجوازية وان يخلق ثقافته الطبقية الخاصة • والخطر الاكبر هو محاولة تأسيس ـ وهو امر ممكن تاريخيا ـ ثقافة غير ملتزمة • ويتعيـــن تحاشي وقوع مثل هذا الخطر :

« انه ليكون من قبيل المأساة ان تتحول حركة الطبقــة العاملة الى مجال او موضوع يتغذى عليه ويتطور رضـــى تربويين يفتقرون الى المعلومات الصحيحة ، اذا ما فقـــدت خصائصها المميزة ، النضالية المندفعة ، وارتدت خصائص الدراسة الموضوعية و « الثقافية » غير المتحيزة • فـــلا « الدراسة الموضوعية » ولا « الثقافة غير المتحيزة » يمكن ان يكون لها مكان بين صفوفنا ـ اي لا يمكن ان يكون لهـا بيننا شيء يماثل ما يعتبر الهدف السوي للتعليم طبقـــا للبورجوازية ، وهو التصور الانساني للمدرسة » •

وقد استأنف غرامشي في **دفاتر السجن** ، وخاصة فـــي **المثقفون وتنظيم الثقافة** تحليل المثقفين الايطاليين ، ذلـــك التحليل الذي كان قد بدأه في **مسألة الجنوب** • وكتب يقول ان اية جماعة اجتماعية ، تخلق مجموعة او اكثر من المثقفين • وظيفة هؤلاء المثقفين هي اعطاء « هيمنة ووعي بوظيفتهــا الخاصة » للجماعة الاجتماعية التي نشأت عنها ـ وعـــي بوظيفة تتجاوز مجرد المجال الاقتصادي وتصل الى الصعيد السياسي والاجتماعي ، ومع ذلك فان المثقفين يعتقدون انفسهم

مستقلين ، وان حركتهم ذاتية ، وليسوا واعين بحقيقة كونهم مرتبطين بجماعة اجتماعية محددة هم التعبير عنها ·

وبالاضافة الى هذا من المستحسن ان يكون هناك وضوح فيما يتعلق بالمعنى الذي يضفي على كلمة « مثقف » · كل البشر مثقفون* ، « ولكن ليس لكل البشر وظيفة المثقفين في المجتمع » · ولهذا فانه بينما كان من الممكن الحديث عن مثقفين ، كان من المستحيل من الناحية الاخرى الحديث عن لا مثقفين ، لانه لا وجود لهم · فكل انسان مهما كانت المهنة التي يعمل بها ، وحتى خارج مجال مهنته « يمارس نوعا ما من النشاط الثقافي ، اي انه « فيلسوف » ، فنان ، انسان متذوق ، يشارك في تصور ما عن العالم ، لديه خط واع لسلك اخلاقي ، ومن ثم فانه يسهم في دعم او تعديل تصور ما عن العالم ، اي يثير سبلا جديدة في التفكير » · ولكن عندما نتحدث بحصر المعنى عن المثقفين ، فاننا نقصد فئة اجتماعية خاصة جدا ، تؤدي وظيفة محددة ، ولها خصائص مميزة محددة · « المثقفون هم « قساوسة » المجموعة المسيطرة » · وهم غالبا غير واعين حتى بأن هذه هي وظيفتهم المحددة ·

---

* كلمة مثقف Intellectual هنا ـ كما يتضح من السياق التالي مباشرة ـ مستخدمة بأوسع معنى لها ، وهو معنى ان كل انسان مفكر · « المترجم »

هناك فئتان ـ على الاقل ـ من المثقفين . حضرية وريفية · الاولى « ترعرعت مع الصناعة وترتبط بمصائرها »· فلا يستطيع احد ـ بعد كل شيء ـ ان ينكر ان النوع الجديد من المثقفين في العالم الحديث قد تطور على اسس من التربية التقنية التي هي « مربوطة بشكل قوي حتى الى اشد أعمال الصناعة بدائية ولا مهارة » · ولم يعد يمكن ان يقوم النوع الجديد من المثقفين على اساس بلاغة او طلاقة هي « المحرك الخارجي المؤقت للمشاعر والاهواء » ، وانما تعين ان يكون بانيا ، من خلال مشاركة نشطة في الحياة اليومية ، الحياة العملية · كان لا بد ان يصبح بمثابة « مقنع دائم » ، متحاشيا خطر السقوط في التقنية الخالصة المجردة ككفاية في ذاتها ·

« من العمل ـ التكنولوجيا يصل المرء الى العلم ـ التكنولوجيا والتصور الانساني التاريخي ، الذي يظل المرء بدونه « متخصصا » ولا يصبح قائدا (متخصص زائد سياسي) » ·

ولهذا فان المدارس هي اداة خلق الانواع المختلفة من المثقفين الذين يأتون عادة في ايطاليا من جماعات اجتماعية معينة مثل البورجوازية الصغيرة والطبقة المتوسطة · أما جماهير الفلاحين فلا تنجب مثقفيها الخاصين بها ، الا كفئة لا تظهر متجانسة مع الجماعة الاجتماعية التي نشات عنها · ان النوع الريفي من المثقفين ، الذين ينبغي أن ندرج بينهم

ايضا القسم الاكبر من رجال الدين ، « هم في الجانب الاكبر منهم « تقليديون » ، اي مرتبطون بالجماهير الاجتماعية الريفية وبالبورجوازية الصغيرة في المدن (وخاصة منها المراكز الصغرى) التي لم تتطور بعد ولم يبدأ حركتها النظام الرأسمالي » ٠

فاذا عنينا بكلمة « مثقف » كل الشريحة الاجتماعية التي تؤدي وظائف تنظيمية (ليس فقط في المجال الثقافي ، وانما ايضا في المجال الاداري السياسي وفي مجال الانتاج)، فانه يتعين علينا ان نطرح ايضا مسألة وظيفتهم الاجتماعية ـ السياسية ٠ وهذا يتطلب تحليلا مركبا ، الامر الذي ينطوي على فحص للموقف السيكولوجي تجاه الطبقات الاساسية التي يقيمون الاتصال بينها في المجالات المختلفة ٠ فهل لهم موقف « ابوي » تجاه الطبقات العاملة ؟ ام انهم يعتقدون انهم تعبير عضوي عن هذه الطبقات ؟ هل لهم موقف « خانع » ازاء الطبقات الحاكمة ؟ ام انهم يظنون انهم هم انفسهم يحكمون ، وانهم جزء متكامل من الطبقات الحاكمة ؟ **ان اول عمل ينبغي اداؤه هو ايجاد اجابة على هذه التساؤلات ٠**

يعتقد المثقفون ـ كقاعدة عامة ـ انهم يشكلون « فئة اجتماعية متبلورة » ، تعيش ـ بمعنى ما ـ بلا انقطاع في التاريخ ولا تشارك في الصراع بين الطبقات المختلفة ، حيث تبقى مستقلة عن صراع هذه الجماعات ٠ وهم يسعون دائما

الى ان « يتحدوا في المجال الايديولوجي مـــع فئـــة ثقافيـــة سابقة عن طريق ثبت المصطلحات التصورية نفسه » • ومع ذلك فان جميع المثقفين يبقون على الادعاء بتعريف انفســـهم بأنهم « جدد » ، على الرغم من حقيقة انهم يطرحون دائمـــا بوصفهم الاستمرار المباشر لفئة « الانتليجنسيا » السابقة • وفي الواقع فانهم غالبا ما يتخلفون تاريخيا ويكونون « بقايا متحجرة ومحافظة » ، ولكن هذا الوضع ينطوي داخله ضمنيا ايضا على التأكيد بأن الموضوع التاريخي الجديد « لم يصل بعد الى مستوى التطور الضروري ليكون قادرا على خلـــق ابنية فوقية جديدة ، ولكن لا يزال يعيش في قوقعة التاريخ الماضي التي يأكلها الدود » •

ان كل وضع تاريخي جديد لا بد ان يخلق ثقافة جديدة له ، الامر الذي لا يعني بالضرورة عمل اكتشافات « فردية » و « أصلية » انما هو « يعني ايضا وفوق كل شيء نشـــرا نقديا لبعض الحقائق التي اكتشـــفت بالفعـــل ، « لاضفـــاء الطابع الاجتماعي عليها » ـ بعبارة اخرى ـ جعلها تصبح الاساس لعمل جوهري ، اي تصبح عنصر تنسيق ونظـــام اخلاقي وثقافي » • ولنحلل العناصر الطبقية المتضمنة فـــي تلك الثقافة •

قال غرامشي ان علينا ان نكون واعين بأن كلا منـــا ينتمي الى تجمع اجتماعي خاص وان هذه الحقيقة تؤثر في تصورنا للعالم • « كل فرد يتقيد بنوع من الالتزامية ، وكل

فرد هو دائما انسان جماهير او انسان جمعي » • فاذا كان تحليلنا عميق الغور ، فان الثقافة ستصبح تاريخا بالنسبة لنا ، وسوف توحد هويتها كليا مع تاريخ الثقافة • ويبين لنا تاريخ الثقافة كيف ومتى حدث ذلك الفصل الجذري « الفصل بين المثقفين والشعب الذي هو اساس هذه الملاحظات » •

وذهب غرامشي الى ان الفصل بين المثقفين والجماهير هو السمة المميزة للتراث الثقافي الايطالي • لقد احس المثقف الايطالي النمطي بأنه اكثر ارتباطا بانيبال كارو ، منه بفلاح ابوليا او كالابريا • فقد كان لمصطلح « الوطني » بالنسبة للمثقف النمطي هذا المعنى المدرسي ، الى حد انه لم يتردد في ان يصف كل اولئك الذين يعارضون تفسيرا مماثلا ، او الذين لم ينتموا لهذا التراث الادبي ، بأنهم « لا وطنيون » • ولقد كان مصطلحا « وطني » و « شعبي » في كثير من اللغات مترادفين او شبه مترادفين • اما في ايطاليا فان للمصطلح « وطني » معنى ضيقا للغاية من الناحية الايديولوجية ، وهو على اي حال لا يتوافق مع المصطلح « شعبي » ، لان المثقفين في ايطاليا مستبعدون من الشعب ، اي من « الامة » ، ومرتبطون ـ عوضا عن ذلك ـ بتقليد طائفي ، وهو ما لم يتمزق من اسفل ابدا بفعل حركة سياسية وطنية او شعبية قوية • فلم تكن للمثقفين ابدا اصول شعبية • فاذا كان واحد منهم ـ احيانا ـ من العامة في الاصل ، فانه لا يعود يشعر بأية رابطة من اي نوع مع الشعب • انهم « لا يعرفون ولا يشعرون بحاجات الجماهير

وامانيها وعواطفها الواسعة • فهم بازاء الجماهير بمثابة شيء منفصل ، عديم الجذور ـ طائفة ، أي انهم ليسوا مفصلا ذا وظائف عضوية ، يرتبط بالجماهير ذاتها » •

ان من شأن البحث في الادب وفي الفن ان يكون دقيقا بشكل خاص بالنسبة للبروليتاريا ، بقدر ما تكون الجماهير نفسها مصابة بعدوى مرض واسع الانتشار للغاية ، ذلك هو مرض الاعتقاد بأن الادب يتألف من ابهة واسلوب خطابي ونفاق اسلوبي • فالجماهير ـ عندما تريد ان تكتب ـ تؤدي العابا مستحيلة ، وتتورط في زينات متناقضة وتميل الى « الميلودراما » ، حيث انها لا تعرف من الادب كله الا نصوص اوبرات القرن التاسع عشر • ولقد افاد نشر ثقافة جماهيرية ، وتوزيع الصحف اليومية في السنوات الاخيرة ، في اضفاء طابع وطني على النثر ، ليجعله اسلس وابسط ، ولكنه جعله ايضا افقر واقزم • وعلى الرغم من هذه التعديلات في العادات ، ظلت الميلودراما في مركز المحور من الاهتمامات الشعبية :

« الميلودراما هي الذوق الوطني ، اي الثقافة الوطنية » ولهذا يتعين على الايطاليين ان يفضلوا ـ عوضا عن ذلك ـ تشكيل « نثر حي ومعبر يكون في الوقت نفسه رصينا وموزونا » •

« وربما يمكن المساعدة على تحقيق هذا كله عن طريق

مناقشة مثمرة وعميقة ذات طابع ادبي حول العلاقة بين الشكل والمضمون • هل هما شيء واحد ، كما كان يقول اناس كثيرون ؟ ان هذا لا يعني انه قد لا يكون في الامكان رسم خط فاصل مفيد بين الشكل والمضمون » •

« يمكن القول بأن اولئك الذين يصرون على « المضمون » انما يناضلون من اجل ثقافة معينة ، من اجل تصور معين للعالم ضد ثقافات اخرى وتصورات اخرى للعالم • كما يمكن القول بأن اولئك الذين يركزون على المضمون كانوا ـ حتى الآن تاريخيا ـ « اكثر ديمقراطية » من خصومهم » • فهل ثمة معنى لان يسأل المرء نفسه عما اذا كان ينبغي ان يسود المضمون على الشكل ؟ هل كان من الممكن الاجابة على هذا السؤال ؟ • لقد كان من الممكن بالتأكيد ان نقرر على الاقل ان كل تغير في المضمون يتيح ايضا تغيرا في الشكل ، وان التحدث عن المضمون كان دائما ـ وعلى اي الاحوال ـ ايسر من التحدث عن الشكل بالنسبة لعمل ادبي (لان المضمون يمكن ان يلخص طبقا لمخطط منطقي ، الامر الذي لا يتمثل بسهولة بالنسبة للشكل) • وربما كان من الخطأ ان نقرر ـ مع ذلك ـ ان المضمون « يسبق » الشكل ، طالما انه في كل مرة نميل الى رفض تعبير معين بسبب عدم اقتناعنا ، فاننا في الواقع لا نرفض المضمون فحسب ، بل نرفض ايضا شكلا مقررا ، ونعتبر انفسنا راضين فقط حينما يكون الشكل القائم مرضيا أيضا • على النقيض من ذلك كان يتعين على المرء ان يؤكد الحقيقة القائلة بأن « اغلب

اولئك الذين يثرثرون عن الشكل ، الخ ضد المضمون ، هم مجدبون تماما ، ويجمعون جملا ليست صحيحة حتى من ناحية قواعد اللغة ··· وهم يعنون بالتقنية والشكل ، الخ فـراغ رطانة الاجتماعات الصغيرة بين الرؤوس الفارغة » ·

كم كان من العسير الحفاظ على توازن تام في تحليـل عمل فني ! احيانا ما كان جمهور المسرح يكتسب بفعل براعة اداء الممثلين ويصفق كما يفعل تماما في اجتماع · لم يكن ذلك لانه مأسور ومأخوذ بالاداء الفني ، وانما لانـه جـاء ليشارك في واحد او آخر من الاخلاقيات المشروحة في سياق العرض · « أما نحن الذين لا نريد ان نصدر حكما ، الا حكم قيمة العمل الفني المسرحي ، فمسموح لنا الا نناقش الجانب الاخلاقي » ·

ان لكل منا اهتماماته الخاصة ، و « هوساته » الخاصة، التي يمكن ان يصقلها بطريقة ذكية مثمرة ، سـواء كانـت مثمرة اجتماعيا او لم تكن · « انني املك القدرة السـعيدة بالقدر الكافي لان اجد جانبا مثيرا للاهتمام حتى في ادنـى انتاج ثقافي ، كالمسلسلات مثلا · فاذا كان باستطاعتي ذلك فانني سأجمع مئات والاف من بطاقات الفهارس عن بعـض موضوعات علم النفس الواسع الانتشار » · ينبغي الا يخجل شخص من اهتماماته الخاصة ، اذا كانت اصيلة وليسـت مملاة بفعل تاثيرات خارجية او بفعل « الموضة » · « بل انني لابحث باظافري في كومة السباخ ! » حـب للكلاسيكيات ،

نعم • حب للتراث ، للتمكن الادبي ، نعم • لكن فقط كحاجة جوانية عميقة • « من يقرأ دانتي بحب ؟ الاساتذة الكثيبون الذين يصنعون دينا من شاعر او من كاتب ، والذين يحتفلون ببعض الطقوس اللغوية الغريبة • انني اعتقد انه يتعين على شخص ذكي ومعاصر ان يقرأ ـ بشكل عام ـ الكلاسيكيات بنوع معين من « الانفصال » ، اي فقط لقيمتها الجمالية ، بينما « الحب » ينطوي على موافقة على المضمون الايديولوجي للشعر ، فالمرء يحب شاعره « الخاص » ، والمرء يعجب بالفنان « بوجه عام » • ويمكن ان يكون الاعجاب الجمالي مصحوبا بقدر ما من الاحتقار « المتمدن » كما في حالة ماركس تجاه غوته » • وتبقى الموافقة الايديولوجية اساسية في « الحب » الذي نحمله لشاعر ما ولعمله • وواجبنا المحتوم ان نميز « المتعة الجمالية من الحكم الوضعي للجمال الفني ، اي بين الاطار العقلي للحماس لعمل فني بوصفه هذا ، وبين المشاركة في العالم الايديولوجي للفنان ، وهو فرق يبدو لي صحيحا وضروريا بصورة حاسمة » •

ولكن فيما وراء « الهوس » الشخصي والاذواق الفردية ، يبقى الصراع البروليتاري صراعا من اجل ثقافة جديدة ، من اجل مضامين جديدة • وينبغي الا يعود من الممكن ملاحظة ان « الكلمات ربما نطقت جيدا ، ولكن الحقائق حتى لم تمس » •

الفصل الثامن

العلاقات الدولية
شعوب المستعمرات وبلدانها

« يملك البشر قشرة الحضارة
فقط ، فاذا خدشت مجرد خدش
لظهر مخبأ الذئب فورا » ٠

(غرامشي ، قاهرون
ومقهورون ، ١٩١٠)

عثر على مقالة مدرسية كان قد كتبها غرامشي الفتى ، ربما ترجع الى عام ١٩١٠ ، حينما كان يحضر الفصل الاخير من مدرسة ديتوري في مدينة كانبيلياري ، وربما كانت تطويرا لمقالة بدأها استاذه اورلاني ٠ والعنوان بالغ الدلالة : قاهرون ومقهورون ، وتطويرها هو حتى اكثر اهمية ٠ كتب غرامشي يقول : لقد كان البشر يناضلون من اجل حريتهم ضد « شهوة السلطة لدى فرد واحد ، او لدى طبقة » ، ولكن هذا الصراع الاخوي القتال بين الانسان

والانسان ينبغي ان يتوقف ، حتى يستطيع الكل ان يوجهوا قوتهم وان يحاربوا ضد الطبيعة • ويبين التاريخ الانساني لنا غالبا مشهد شعب قوي يحاول ان يخضع شعبا آخر • واضاف قائلا : « ولكن الانسان ، الذي هو زائف ومنافق بطبيعته لا يكتفي بالقول : « انني اريد أن اقهر من أجل ان ادمر » ولكنه يقول ايضا « انني اريد لكي امدن » • والآخرون جميعا ••• يزعمون انهم يصدقونه ويمتدحونه » •

يعلن كل بلد في سياسته الاستعمارية انه يجلب معه الحضارة • والحقيقة ان « الحروب تشن من اجل الاعمال ، وليس من اجل الحضارة » • ويتوهم الناس دائما ان ايا ما كان ممكنا قد تحقق فعلا ، وان الفتوحات الاساسية للانسانية قد تمت بالفعل • ولا بد ان يعي المرء دائما ـ عوضا عن ذلك ـ ان كل شيء لا يزال ينتظر ان ينجز :

« يملك البشر قشرة الحضارة فقط ، فاذا خدشت مجرد خدش لظهر مخبأ الذئب فورا » •

حتى في مجتمعنا ، القانون الوحيد المعترف به هو قانون الاقوى • فعندما ازالت الثورة الفرنسية الكثير للغاية من الامتيازات ، والكثير من المفارقات العابثة ، فانها بالتاكيد انجزت عملا من اعمال تحرير الانسان : « ولكنها انما استعاضت عن حكم طبقة واحدة بحكم طبقة اخرى » • ومع ذلك فانها في الوقت نفسه افادت في تعليم الناس حقيقة

عميقة لا تقبل المنازعة ، « ان الامتيازات والفروق الاجتماعية، نحويها نتاجا لمجتمع وليس لطبيعة ، يمكن التغلب عليها » ٠ ان خلقا كليا من جديد كان لا يزال منتظرا ، حمام دم جديد اشد هولا من ذلك الذي جلبه معهم الثوريون الفرنسيون ٠ وعندما ياتي ذلك اليوم « كم سيندم الحكام على انهم تركوا الجماهير في حالة الجهل والضراوة التي هم فيها الآن ! » ٠

وبعد ست سنوات ، وفي واحد من اوائل مقالاته التي نشرها في صحيفة **صيحة الشعب** ، بنضج مختلف تماما وبقدر اقل بشكل ملحوظ من التخطيطية ، استأنف غرامشي موضوع الاستعمار وموضوع العلاقة بين المستغلين والمستغلين ٠ وقد لا تظهر الفكرتان اليوم ، في ضوء معظم الابحاث الحديثة في علم السلالات (الاثنولوجيا) وعلم الانسان (الانثروبولوجيا) ، خاطئتين بقدر ما تظهران غير دقيقتين ، حيث تفتقران الى ادراك الفروق الدقيقة في صياغتهما ، وتبدوان ـ في بعض الحالات ـ محدودتين صراحة ٠ ذكر غرامشي ان الاستعمار يمكن ان يبرر حتى اخلاقيا اذا كان يشكل الاندفاعة التاريخية الضرورية لبعض الشعوب « المتخلفة في الحضارة » لكي تصبح واعية بحضورها في العالم وبواجبها في التعاون في التطور الشامل ٠ وقد بدا مقتنعا بأن « مقياس مستوى الحضارة يوفره التعلم والتربية وتحسينات تقنية الانتاج » ٠ وفي هذه الحالة كان من الواضح ان الاعتقاد بأن « وضع شعبين في

حالة اتصال ، احدهما بحضارة متطورة والآخر بحضــارة ممكنة فحسب ، هو امر طيب للاقتصاد العام» • ولكنه كان واضحا ايضا ان هناك طرقا وطرقا مختلفة • واشـــكال الاستعمار الاستغلالي الفوضوي التعسفي شبه البوليســي التي ابتدعتها الشعوب البيضاء لم تكن مبررة بأي حال • ان المصالح الصناعية ، التي وقعت وطأتها على الســكان الاصليين للبلاد المستعمرة (بفتح الميم) جعلت اي وظيفة مفيدة امكن او كان يمكن لرأس المال ان يقوم بها بمثابــة عدم • لقد ازيلت كل امكانية للتنمية الاقتصادية المســتقلة للبلد المستعمر من اجل الفائدة الوحيدة لمجموعة ضيقة من الصناعيين من البلد الامبريالي • « ومع ذلك فان اتصــال العالم الاوروبي بالشعوب الملونة لم يكن بدون عواقب • فقد نجح رأس المال – حتى ولو كان ذلك بطريقة غير مباشرة – في خلق حاجات جديــدة ، وادوات جديــدة ، وطموحــات مستترة امكن ان تتدفق فجأة في فعل عنيف » • وبالاضافة الى هذا كان التأكيد على نقطة انه بالنسبة لرأسمالية دولة كان انعدام اية امكانية للتطور كدولة امبريالية استعمارية عالمية ، يعني دون شك « شللا وانحدارا معينا » •

وعندما كانت سنوات النضال الصحفي السياسي تمضي حدد غرامشي موضوعات الاستعمار ومشكلات البلاد الاقل نموا Underdeveloped بقدر اكبر من الدقــة وفي بعض الاحيان بفطنة ملحوظة • وهناك في صحيفة **النظام الجديد** ثلاثة أو اربعة مقالات على الاقل ذات اهمية قصوى حــول

هذه المسألة · كذلك فان الحرب كانت قد تركت اثرا لا يمحى لدمارها ونهبها على بلدان المستعمرات :

« اثناء الحرب كانت المستعمرات تستغل الى مدى لم يسمع به ابدا ، وبطريقة لا انسانية لا تلين ، لا يمكن تصورها الا في فترات حضارة مثيرة للاعجاب مثل الحضارة الرأسمالية · بل ان مواطني المستعمرات لم تترك لهم عيونهم ليبكوا بها » ·

نهب كل شيء بذلك الجموح وبتلك الكفاية الفظة التي تنتمي للعالم البورجوازي · كان استغلال شعوب المستعمرات كاملا ، سواء للاسباب العامة المعروفة تماما ، او بسبب الظروف غير العادية التي املتها الحرب : « لعدة سنوات عشنا نحن الاوروبيين على موت الناس الملونين » · ولكن موت هؤلاء الناس كان يعني وعيا جديدا لآخرين · فقد اتخذ نضال شعوب المستعمرات خصائص الصراع الطبقي · « اليوم تلتهب الانتفاضة في عالم المستعمرات · انه الصراع الطبقي للانسان الملون ضد المستغلين البيض والخونة » · لقد ارادت شعوب المستعمرات الحكم الذاتي والاستقلال من اجل هذين الهدفين فانها مستعدة لمواجهة « الطائرات والمدافع الرشاشة والدبابات » ومستعدة للانخراط في صراع مسلح ·

كانت الماركسية قد تنبأت بأن البروليتاريا ـ بتحريرها

لنفسها - سوف تحرر في الوقت نفسه كل الطبقات المقهورة الاخرى · فسوف تقوم روابط التضامن والاخاء نفسها بين الطبقة العاملة في البلدان الصناعية والشعوب التي تخضع للاستغلال الاستعماري على النحو الذي قام - على سبيل المثال - في ايطاليا بين الطبقة العاملة في الشمال وفقراء الفلاحين في الجنوب · وتماما كما ان الشمال - في ايطاليا - قد استطاع ان ينمو صناعيا بسبب الاستغلال المنظم لمصادر الجنوب ، فبالطريقة نفسها « كان اخضاع سكان المستعمرات هو الشرط المسبق للنمو الذي حققه النظام الرأسمالي قبل الحرب » · وعلى وجه الدقة فان النتيجة التي يمكن التوصل اليها - في الحقيقة - هي ان هذه المرحلة الامبريالية من الرأسمالية العالمية لا يمكن ان تفضي مباشرة الا الى حريق عالمي · لقد وجدت البورجوازية .الرأسمالية - داخل دولة واحدة - نفسها مضطرة الى مواجهة مشكلات مختلفة واشد خطورة على التوالي · وقد سعت الى حلها جزئيا لمصلحة الطبقةالعاملة « الوطنية » ، بينما ظلت دائما تستغل - بفظاظة اشد - سكان المستعمرات الخاضعين ، وبالتالي تزيد من سيطرتها على بلدان اخرى · وشيئا فشيئا اصبحت الدول البورجوازية ورشا صناعية هائلة مستعدة للحرب ، ورشا ابتلعت الجانب الزراعي من الامة · وفي كل مرة كانت المهمة « الزراعية » تلقى على عاتق بلدان وشعوب المستعمرات :

« ان الصراع لتقسيم اسواق المستعمرات للمواد الخام

والسلع المغذائية قد اصبح حادا ولا يمكن ان يؤدي الا الى صدام » ٠

لقد كان العمال والفلاحون في البلد الام ، والشعوب الخاضعة في المستعمرات ، هم الاهداف السلبية لعملية استغلال ضخمة وضعت وسائل وتقنيات مختلفة موضع التنقيذ في اوقات متباينة من اجل غايات يكمل كل منها الآخر ٠ ولكن الاستغلال الذي كانت تخضع له كان ايضا مختلفا : « هكذا يصبح سكان المستعمرات القاعدة لجهاز الاستغلال الرأسمالي بأسره » ٠

لقد كان الاستغلال ـ في فترات السلام ـ منظما ، ولكنه اثناء سير الحرب كان منظما ايضا ، وحتى خلال سنوات حريق عالمي بلغ الاستغلال ذروته ، اعلى نقطة في شدته :

« ان فلاحي المستعمرات ينهبون نهبا كليا ٠ يدفعون نحو الموت جوعا لكي يعطوا للدول الاوروبية المشتركة في الحرب الطعام الذي تحتاجه لتقاوم حتى النهاية ٠ كذلك كانت تخلق داخل دولة واحدة الاوضاع التاريخية التي وطدت استغلالا من النمط الاستعماري بين طبقة واخرى ٠ ففي روسيا كان على الفلاحين ان يدفعوا بالمعيار نفسه الذي يدفع به سكان مستعمرة ، بما هم فيه من فقر وعوز ، منهوبون من كل شيء ٠ وعندما فازت الطبقة العاملة الثورية في روسيا

بالسلطة السياسية وبتحررها ، حررت كذلك الفلاحين من العبودية . ولكن لم تحرر فلاحي بلادها فحسب . ان ثورتها ، انتصارها ، قد دفع ايضا سكان بلدان اخرى وقارات اخرى الى ان تثور . لقد وجهت ضربة مميتة الى النظام الرأسمالي والى الامبريالية العالمية . لقد فرضت « مشكلة امكانية استمرار استغلال سكان المستعمرات الى الحد الذي كان يحدث حتى الآن » .

كذلك لم يكن من الممكن قصر انتفاضة شعوب المستعمرات على الفوز بالحكم الذاتي والاستقلال . « انها تستطيع ان تنحو ، بل انها تنحو فعلا ، نحو ان تصبح حصارا دائما لدول اوروبا الغربية الرأسمالية» ، طالما ان باستطاعة شعوب المستعمرات ، بالافلات من الاستغلال الاجنبي ، ان تتوقف عن تزويد الدول البورجوازية بالمواد الخام . فالبروليتاريا الثورية وحدها ـ باعتبارها الطبقة الوحيدة التي ليست لها مصلحة في الملكية الخاصة ، بل ان لها على النقيض هدفها في الحرية وفي تطوير كل القوى الانتاجية ـ البروليتاريا الثورية وحدها ستكون قادرة على حل المشكلتين الكبيرتين اللتين تفرضهما الرأسمالية في مرحلتها الامبرالية . اولى هاتين المشكلتين هي « التصنيع الواسع النطاق للزراعة » ، اما الثانية فيقررها « امتداد المدنية الصناعية الى الدنيا كلها ، لا كسلطة عليا قمعية لاوروبا على المستعمرات ، وانما كتطور ذاتي لجميع الشعوب » .

وقد اكد غرامشي ـ مرة بعد اخرى ، في صحيفة النظام الجديد اليومية ، وقبلها في الاسبوعية ـ الرابطة ، او بالاحرى التوازي ، بين « خضوع الفلاحين في المجال الوطني ، وخضوع شعوب المستعمرات في المجال الاممي » • لقد كانت الشيوعية حركة اممية ، بالتحديد لانها تقود نضالا امميا ضد البورجوازية ، نضالا تتزعمه البروليتاريا الصناعية ، ولكن بمشاركة الفلاحين الوطنيين وشعوب المستعمرات • ومن شأن انتصار البروليتاريا الصناعية ان يشكل علامة على نهاية كل نوع من انواع الاستغلال ، داخل وخارج كل دولة بورجوازية ، للفلاحين او لسكان المستعمرات الذين تستغلهم الامبريالية • وقد عاد غرامشي ـ متخذا بداية نشأت عن سؤال طرحه احد نواب الحكومة ـ الى هذا الموضوع في مداخلته في مجلس النواب في عام ١٩٢٥ • وقال ان تصورنا هو ان الامبريالية والاستعمار هما « فوق كل شيء ، تصدير رأس المال المالي » • وايطاليا ـ على النقيض من ذلك ـ قد ارسلت العدل فحسب الى الخارج ، الامر الذي ساعد على توسع رأسمال التمويل الاجنبي • وقد كتب غرامشي فيما بعد في **الماضي والحاضر** « ان دولة تكون مستعمرة (بكسر الميم) لطالما كانت كثيرة الانتاج ، بل طالما كانت غنية في رأس المال الذي تستثمره خارج حدودها الخاصة » • (١)

---

(١) كان غرامشي يشير الى النظرية التي تكمن وراء التوسع الامبريالي ، والتي كانت تعتبر اكتساب الاراضي في الخارج حلا لمشكلات ايطاليا الاقتصادية •

وهناك فقرتان من رسائل من السجن يمكن ان يمـــدا القــارىء بانطبــاع عــن افكــار غرامشي في الحضــارات المختلفة · فقد كتب لشقيقه كارلو ، في ٢٨ سبتمبر (ايلول) عام ١٩٣١ :

« الكتاب ··· مثير للاهتمام لانه ينحو الى كسر العادة السائدة ، عادة الاعتقاد بأن التاريخ يوجد في اوروبا فقـط وخاصة في الازمة القديمة · ولكن ويلز يتحدث عن التاريخ القديم للصين والهند والتاريخ الوسيط للمنغوليين باللهجـة نفسها التي يتحدث بها عن التاريخ الاوروبي · وهذا يبيـن انه ــ من وجهة نظر عالمية ــ ينبغي عدم الاعتقاد بأن اوروبا منطقة تعتبر مستودعا لكل الحضارة العالمية ··· » وكتـب الى ابنه ديليو في رسالة غير مؤرخة ، « وبالمثل فانني لم احب كتابه في التاريخ العام ، على الرغم من انه يحاول (وهــو في هذا يمثل شيئا جديدا ، على الاقل في الادبيات التاريخية لاوروبا الغربية) أن يوسع الافق التاريخي التقليدي ، فيعطي اهمية ليس فقط للاغريق والمصريين والرومان ، الخ ، وانما ايضا للمنغوليين ، وللصينيين والهنود ، الخ » ·

ومع ذلك ، وعلى الرغم من هاتيـن الفقرتيـن فاننـا مقتنعون بأن غرامشي كان يعتقـد أن الحضـارة والثقافـة الاوروبية متفوقة على حضارة وثقافة الشعوب الاخـرى · وتتضح هذه الفكرة في بعض ملاحظات نظرية مرموقة ، او في اشارات فالتة سـريعة تثيـر ــ عابـرة ــ تصــورات

و « ابتسارات » محدودة بقدر كاف ، حتى وان امكن تفسيرها من وجهة نظر تاريخية • فنحن نقرأ ـ على سبيل المثال ـ في فقرة من **الماضي والحاضر** :

« كذلك فان الافتراض بأن ثقافات اخرى كانت مهمة ودالة في عملية التوحيد « الهرمي » للحضارة العالمية (ومن المؤكد ان هذا أمر ينبغي التسليم به بلا شك) كانت لها قيمة كلية بالمقدر الذي به اصبحت عناصر مكونة للثقافة الاوروبية ، وهي الثقافة الوحيدة في تاريخيتها وكليتها ، اي بالمقدر الذي به اسهمت في صيرورة الفكر الاوروبي وبقدر استيعابه لها » •

ونلاحظ ـ هنا وهناك ـ اشارات عارضة تبدو هنا دالة ، كما في هذا المقال ، الذي نشر في صحيفة **الطليعة** في ٢٩ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٩ :

« العمّال والفلاحون الايطاليون ••• المجبرون على الوقوف حتى شفا الانهيار ـ بعد كدح يستمر ما بين ١٢ و١٤ ساعة على آلة او قطعة ارض ـ من اجل كسرة خبز يلقي بها سنغالي او بوبواني » •

او في هذه الفقرة من **النظام الجديد** ، يوم ٢٥ مارس (اذار) ١٩٢١ :

انه الهبوط بمستوى الحياة السياسية الايطالية الى مستوى جمهورية في اميركا الجنوبية ، والهبوط بمستوى السلوك الى مستوى قبيلة من الزنوج أكلة لحوم البشر » ٠

او ـ اخيرا ـ في هذه الرسالة الى شقيقة زوجته تاتيانا ، في ٧ ابريل (نيسان) ١٩٣١ :

« لقد قرأت مؤخرا احد مقالاته عن اوديسة هوميروس التي جعلتني اشك في اقتناعي بأن بودريرو عالم لغة جيد ، حيث انه اكتشف ان خوض الحرب صفة تمكن المرء من فهم الاوديسة ٠ انني اشك ان باستطاعة سنفالي ـ لكونه قد خاض حربا ـ ان يفهم هوميروس على نحو افضل » ٠

الفصل التاسع

الشعور الديني
الكاثوليكية والعلمانية

« لا تشكل الفكرة الدينية اساسا لانشقاق داخل الطبقة العاملة ، تماما كما انها لا تشكل اساسا لانشقاق داخل الطبقة المتوسطة »٠

(غرامشي في بين شقي الرحى ، ٢٦ اغسطس ـ آب ١٩٢٠)

الشعور الديني ، ماهية الظاهرة الدينية ، حرية الضمير ، العلمانية ، وظيفة واستغلال للعقيدة من وجهة نظر سياسية ، حضور الكاثوليكية في التاريخ وفي العالم ـ هذا كله ربما يكون الموضوع الذي يتردد صداه غالبا في انحاء مؤلفات غرامشي ٠ فمنذ كتاباته الاولى الى رسائله الاخيرة من السجن ، سواء في الصفحات النظرية من دفاتر السجن وفي الاشارات العابرة من المذكرات المتفرقة

المكرسة كلية لمشكلات مختلفة ، كان يسعى لتحديد الخطوط الاساسية للظاهرة الدينية وتقاطعها المتزايد التعقيد مع حياة كل فرد ، مع التاريخ ، مع مجتمع البشر ·

وقد اتخذ فرويد بداية من محاورة حول تطويب كوتولينغو ليقرر ان الاشتراكيين ينكرون « ضرورة كل مفهوم قبلي (اولي A Priori) ، سواء كان مفارقا Transcendental مثلما يكون الايمان الديني ، او تاريخيا مثل الامتياز البورجوازي » · وفي ملاحظة موجزة ـ من الناحية الاخرى ـ هناك سخرية ازاء اولئك الذين كانوا قد اعلنوا انه يتعين على الاشتراكية أن تكون مسيحية : وقد رد غرامشي سريعا قائلا : « ان من شأن هذا ان يكون كالقول بأن مربعا لا بد ان يصبح مثلثا » · وردا على ملاحظة بريئة ظهرت في احدى الصحف كان غرامشي مستعدا لان يقرر ان « القساوسة يبذون آمالهم على اساس من الصوفية التي تستمد حياتها من جبن جماعي » أو أن « المسيح طواف انتخابي للبورجوازية الماسونية الليبرالية » · فماذا ينبغي ان نفعل بهذه العبارات التي ظهرت هنا وهناك في مقالاته التي كان يرتجلها من يوم الى آخر ، احيانا لمجرد اغراض جدالية ؟ أي وزن يتعين علينا ان نعطيه لها ؟ هل يمكن التسليم بأنها جزء لا يتجزأ من فكر غرامشي ؟ لعل انزه طريقة هي مجرد تسجيلها حتى يكون بامكان القارىء ان يحدد على طريقته قيمتها بدرجة تزيد او تنقص من الاهمية ، بدرجة تزيد او تنقص من العمق ·

لقد واجه غرامشي - في ملاحظة من بين شقي الرحى عام ١٩١٦ مشكلة قيام تحالف بين الكاثوليك والاشتراكيين . وقد ذكر ان بعض الكاثوليك ربما يريدون ان يظهروا فائدة قيام تحالف سياسي ، او على الاقل « تقارب ودي » بين الكاثوليك والقوى البروليتارية « كومة من النهابين من ناحية ، واهداف غير قابلة للتحقق من الناحية الاخرى » . لقد كانت الماركسية تقوم على اساس اطار فلسفي « اعدم فكرة الله تحت المقصلة » . وكان الكاثوليك الاشتراكيون على درجة من الاختلاف من وجهة النظر السياسية والفلسفية الى حد ان الاختلاف بينهما لم يكن بحاجة حتى الى تبيان . فالكاثوليك - في الحقيقة - « يتطلعون نحو الخلاص عن طريق العناية الالهية . يستميلون حسن نية القديسين حينما يكون الانسب التوجه الى حسن نية البشر . بالنسبة اليهم لا شرعية الا للسلطة وحدها ، وهي الوحي وكلمة الله ، طالما انهم يضعون مصدر الحقائق الانسانية خارج الانسان ، في ارادة علوية تضم الجميع وتحكم على كل فرد ، وتفرق ما بين الخطأ والصواب في ضوء تصورات سامية Semitic للخير والشر يمكن ان تكون صحيحة للعبيد ولكن ليس للرجال » . هذا التحالف اذن كان مستحيلا ، ولا يمكن تصوره . وليس باستطاعة العمال ان يتوقعوا شيئا ، الا من انفسهم . فهم كانوا بعيدين عن الكاثوليكية ، ليس فقط لانهم ادركوا انها الآن مظهر خارجي تماما لعقيدة ليس لها جوهر ، وانما هي مظهر فحسب . انما كان العمال بعيدين عن الكاثوليكية بسبب « تناقض في

الافكار لا سبيل الى مداواته » ·

احيانا ما يحس الناس بحاجات مبهمة لا يكادون يستطيعون تحديدها . ويمكن ان نسميها حاجات ميتافيزيقية· وجميع الناس يطرحون تساؤلات اساسية معينة : نحن في العالم دون ان نعرف لماذا ، ونشعر بفراغ ، نريد تبريرا لوجودنا · ويبدو ان الاسباب غير كافية :

« تتكون العاطفة الدينية من هذه الطموحات المبهمة ، من هذا التفكير الغريزي والجواني الذي لا سبيل له الى الخارج · ويبقى في دم كل واحد منا اثر ما ، احساس ما ، حتى داخل اولئك الذين امكنهم التغلب بكل قوة على هذه المظاهر من ذاتهم ، وهي مظاهر دونية لانها غريزية واندفاعية » ·

ولكن الحياة نفسها ، التاريخ نفسه ، يتغلب على هذه الحيرة · ويتيح لنا البحث التاريخي ان نفسرها ، او ان ندركها في تجردها :·

« كل ما هو جزء من التاريخ لا يمكن ان يكون فوق الطبيعة Supernatural ، لا يمكن ان يكون فضلة من وحي الهي » ·

ومع ذلك فيمكن ان يكون للحقبة التاريخية التي نعيش فيها

حدودها ، وربما تكون معرفتنا ناقصة وغير كافية لان تتيح لنا ان نفسر وان نعرف كل شيء • ولكن ينبغي ان تدفعنا هذه الحقيقة الى البحث ، ينبغي ان تجعلنا اكثر تواضعا • « لا ان ترمينا مباشرة في احضان الدين » • اننا نستشعر الدفعة الايجابية التي تأتينا من الماضي ، ونستشعر قيمة الذات والتاريخ • ونشعر برحابة عقلنا ، ونشعر حتى بشرود الماضي في « الاورام الميتافيزيقية » التي لم نتغلب عليها بعد ولكننا سنتغلب عليها • ان معارضتنا للكاثوليكية تتفق مع حاجاتنا الى الحداثة :

« ان ديننا يرجع تاريخا • وعقيدتنا ترجع انسانا وارادته ونشاطه » •

لقد كان نضال غرامشي ضد « النواح النازف لقساوسة الابرشيات القديمة » ، ضد التعليم الديني في المدارس ، ضد العبادات الدينية في اسر الطبقة العاملة ، عنيفا بصورة غير عادية في تعبيره •

« ان السماح للقساوسة بالتلاعب بضمائر الاطفال ، حتى تخمد في فراغ ، في الكهنوتية ، في روح مسيحية بكاءة ، لهو السماح باخضاع الاطفال لاعتداء »•

ينبغي ، في كل اسرة من اسر الطبقة ـ ان يتدخل الرجل ايجابيا في تربية اطفاله • ينبغي ألا يسمح لها كلها بأن تتم

على يد المرأة ، او ان يسمح لاطفاله بأن يجري اخضاعهم « للنشاط التربوي المضاد الذي يتمثل في الاحتفالات الدينية »· لا بد من القضاء على النفاق ، وينبغي ان يقوم اتفاق كامل ومتماسك بين النظرية والممارسة · وينبغي ان يترك الابناء احرارا في اختيار افضل السبل عندما يكونون قد كبروا ـ « فلا رهن على شخصيتهم ، او على مستقبلهم » · كذلك ينبغي ألا يسمح لعناصر سطحية تماما بأن تعرقل نمو شخصيتهم ، لان « الخطر يكمن هنا بالتحديد . يكمن في ان الاطفال لا يتلقون تربية دينية صحيحة . انما هم يدربون فحسب على ان يكونوا قانعين بالابهة الفارغة . بالمسرح الكنسية الصغيرة . بالغار ، بالنفاق » · حتى الجامعة اصبحت « موهفا » ★ · ولكن هذا لا ينبغي ان يثير دهشة احد · فالعلمانية الليبرالية التي تحدث كثيرا جدا من رجال التربية بالكثير جدا عنها ، كانت في الحقيقة عاجزة عن الدفاع عن نفسها ، وما كانت تريد الا ان تقهر :

« ان المدارس تبرهن باطراد على انهـا اجهزة للسيطرة الطبقية ، لطبقة لم تعد تستطيع ان تحكم الا بتأييد اولئك الذين كانوا بالامس ألد اعدائها · »

يتعين على العمال ان يفهموا هذا كله ، وفوق الجميع اولئك الذين لا يزالون يعتبرون المثل العليا الزائفة للبورجوازيـة

★ الموهف غرفة المقدسات وملابس الكهنة داخل الكنيسة «المترجم» ·

والديانة الكاثوليكية صادقة في جوهرها • على العمـــال ان يفهموا ان الشعور الديني والعلمانية ـ بالنسبة للبورجوازية وبالنسبة لمصالحها الطبقية ـ ما كانا ابدأ من اسباب التمزق الاجتماعي او الانقسام السياسي • على العمال ان يفهموا « ان الفكرة الدينية لا تشكل اساسا لانشقاق داخل الطبقة العاملة ، تماما كما انها لا تشكل اساسا لانشقـــاق داخل الطبقـــة المتوســطة » •

ليس الماركسيون متدينون • وتقودهم افكارهم الى الاعتقاد بأن « الدين شكل انتقالي من اشكال الحضارة الانسانية » ، وانه سيتم تجاوزه بواسطة تصور اكثر تفوقا ، تصور فلسفي• « ولكن حتى على الرغم من ان الاشتراكيين الماركسيين ليسوا متدينين ، فانهم ليسوا ايضا معادين للدين • ان دولة العمال لن تضطهد الدين : دولة العمال ستطلب من عمالها المسيحيين الولاء الذي تطلبه اي دولة من مواطنيها » ، اي السمـــاح بالمعارضة الدستورية لا الثورة ، باعتبار الاخيرة حقا مقصورا على الطبقة المقهورة •

من الواضح ان مناقشة غرامشي كانت تزداد حدة وعمقـا وتمس موضوعات ذات اهمية قصوى ، ولكن كم من المقـالات واي درجة من السخرية سبقتها ضد « الايمان العقيم العابث »، ضد « خلود معتوه » ، ضد الكهنوت اليسوعي الذي يمثـــل التركز الرأسمالي ، الاحتكار ، التروستات في اقتصاديـــات الاشياء المقدسة » ، ضد كل المنظمين الاكليركيين الذين كانـوا

مكرسين « لتكوين نقطة اشعاع خطرة معدية ينجذب نحوها كل الشباب من كل طبقة اجتماعية . المهتدون من الجيل الجديد من المخنثين والمنافقين » . ضد « أمور روما البغيضة » ، « صواعق الكرتون » ، « البرق الاوبرالي » الذي تطلقه البابوية ! وقد عادت المناقشة التي تناولها غرامشي من جديد في **الدفاتر** ـ عادت باصرار الى الكهنوت اليسوعي ، وهو نظام كان « جمعية حقيقية لارتكاب الخطايا » ولم يكن يمكن ان يترك اية حرية على الرغم من رغبة جميع الماركسيين في ان تترك اوسع حرية للدعاية والمناقشة « لجميع تيارات الفكر والعمل » . ومع ذلك فان هذه الحرية ـ وهي مشكلة اساسية للضمير البروليتاري ـ ينبغي ، وكان لا بد ، ان تضمن لكل اولئك الذين سيقبلون سلطة الطبقة العاملة ، سلطة المجالس (السوفييتات) . كان بعض الرفاق يثير من الفضائح حينما يسمعون انه اذا مارس ـ في الغد ـ قسيس او راهب ا وراهبة عملا مفيدا من الناحية الاجتماعية ، فانه يكون لهم الحق في ان يعاملوا مثل كل العمال الاخرين في اطار نظم دولة عمالية . وقال غرامشي انه لا داعي للانزعاج . ان جزءا من البروليتاريا الايطالية متدين الى حد عميق ، يعطي صوته في الوقت الحاضر للحزب الشعبي ، و « يختار قساوسة ورهبانا وراهبات ممثلين له » . فما الذي ينبغي عمله ؟ هل نهدم كل شيء ولنسويه بالارض ؟ هل نمحو هذه الذرية من العمال من التربة الايطالية؟ هل يتعين على الشيوعيين « ايضا ان يثيروا حربا دينية الى جانب حرب اهلية في ايطاليا ؟ » . كان هذا السؤال اساسا بالنسبة للبروليتاريا الايطالية :

« في ايطاليا ــ في روما ــ هناك الفاتيكان ، هناك البابا ·
وقد تعين على الدولة الليبرالية ان تجد توازنا مــــع سلطـــة
الكنيسة الروحية . وسوف يتعين على دولة العمال ايضا ان
تجد توازنا » ·

وتبدو الملاحظات النظرية الواردة في **دفاتر السجن** نائية جدا
ــ في لهجتها وفي شكلها ــ عن المجادلات المتعمقة التي كــان
غرامشي قد اجراها على وضد الظواهر الدينية في مقالاته
الصحفية اثناء فترة الصراع السياسي · وقد تحدث فــي **الادب
والحياة الوطنية** عن وجود « دين جماهيري » ، يختلف سواء
عن دين المثقفين وعن الدين الذي ينظمه الاكليركيون المحترفون
حتى وان كان كل دين يحمل الخاصية المشتركة ، خاصيـــة
الحاجة لان يعتبر بمثابة « فولكلور » في علاقته مع الفــكر
الحديث · وكان صحيحا ــ بالاضافة على هذا ــ ان الديانـــة
الكاثوليكية بشكل خاص تمثل مشكلات خاصة نوعية ، يقــوم
المثقفون « بايضاحها وتنظيمها » · وفي صفحات عديدة مــن
الماضي والحاضر تبدو الموضوعــات الرئيسية التي تواجـــه
غرامشي متباينة . ولكن رابطة غير مرئية توحد بينها هـــي
التفكير التاريخي في الوظيفة التاريخية التي تمارسها الكنيسة
الكاثوليكية في العالم مع الاشارة بصفة خاصة الى الوضع
الايطالي · وطبقا لما يقول غرامشي فان توحيد الهويـــة بين
الكاثوليكية و « البابوية » اكتشفه عدد قليل من الكاثوليكيين
وهو أمر لم يبتهج له الفاتيكان كثيرا · لم يبــد صحيحا ان
باستطاعة المسيحية ان تنتشر في العالم دون مساعدة الاسلحة:

« كان يمكن الاعتقاد بهذا طالما لم تكن المسيحية قد تحولت بعد الى دين دولة (اي الى وقت قسطنطين)★ · ولكن من اللحظة التي اصبحت فيها الطريقة الخارجية لتفكير مجموعة حاكمة ، فان مصيرها وانتشارها لا يمكن ان يميز عن التاريخ العـام ، ومن ثم عن الحروب · فلقد كانت كل حرب دائما حربا دينية ايضا » · غالبا ما اثيرت الحجة القائلة بأنه اذا لم يكن لدى الانسان شيء يستعيض به عن الـدين ، فليس من الصواب المضي في تحطيم الايمان الديني في قلوب الناس · ولكن كيف كان من الممكن ان نعرف متى لم يعد القديم جوهر الحياة ، ماهيتها ، ومتى اصبح الجديد مستعدا للحلول محله ؟

وبالاضافة الى هذا فانه غالبا ما زعم ان الـدين شيء ضروري للناس ، « حقا » للعامة من الناس « كما يقال فـي هذه الاحوال » · ومع ذلك فان كل من اعتنقوا هذه الفكـرة كانوا يعتقدون انهم ينبغي ان يدرجوا تحت هذا الاصطلاح ، اي انهم لا ينتمون الى « عامة الناس » الذين يحتاجون الى ايمان ديني · وينشأ عن هذه الاعتبارات الاحترام الشكلي للاخرين ، النفاق الذي كان بدرجة كبيرة جزء من السلوك العصري ·فكل واحد مقتنع بأنه « من الضروري اظهار « الايمان » من قبيل احترام الاخرين » · ووجود رابطة محددة تماما بين التغلغل

★ اشارة الى البابا قسطنطين المتوفي عام ٧١٥ ·وقد تولى الكرسي البابوي من عام ٧٠٨ الى ٧١٥ · « المترجم » ·

الديني والاستغلال الاستعماري توضحه ايضا الحقيقة المعروفة القائلة بأن « الصناعيين قد شكلوا تنظيما من أجل مساعدة الارساليات الكاثوليكية بصورة مباشرة وعضوية في عملها الخاص بالتغلغل الاقتصادي والثقافي في البلدان المتخلفة » . وقد استنتج غرامشي من دراسة نقدية ادبية جادة للمناشير البابوية ـ المفعمة بالاستشهادات المائعة المبهمة ـ انها تبدو كأن لها هدفا واحدا هو « ان تقرر في كل مناسبة استمرارية العقيدة الاكليركية من زمن الاناجيل حتى اليوم » . فقد كانت باردة جدا بشكل عام فيما يتعلق بالامور الدينية ، واما الحرارة التي كانت تبث الحياة فيها احيانا فترجع الى موضوعات او مسائل ذات طابع اجتماعي او سياسي . وبسبب الاختلافات الاجتماعية والتاريخية ، في تكوين بعض البلدان ، كانت هناك وحدة دينية ما بالمقارنة بتعدد التكتلات السياسية ، او وحدة سياسية نسبية بالمقارنة الى العدد الكبير من التيارات والطوائف الدينية :

« يمكن تفسير هذا بملاحظة ان الحزب والدين على السواء شكلان من تصور للعالم ، وان الوحدة الدينية ان هي الا مظهر شأنها شأن الوحدة السياسية » .

لقد كانت السلطة الدينية غالبا ما تسمح بغفران الاراء « المهرطقة » دون ان تفندها ، كما يقضي الحال ، لانها كانت تعتبر ترك « الهرطقة » تتداول دون تفنيد في وسط مطوق باحكام اقل شرا من « جعلها معروفة للمناصر التي لم تصب بعد بها بمحاربتها » .

وفي ملاحظة حول ماكيافيللي ، الى جانب ملاحظات هامشية على الدور الذي لعبته الكنيسة في العصور الوسطى (وهي ملاحظات فسرت اعمالها لصالح الطبقات الدنيا ، لا على اساس مبادىء ذات طبيعة دينية ، وانما على اساس بنية اقتصادية كانت تنزعمها وتنفذها الكنيسة) ـ كرس غرامشي قسما كبيرا من ملاحظاته لتاريخ جمعية **العمل الكاثوليكي** ، وللميسوعيين ولانصار التحديث · وكتب قائلا ان تأسيس **العمل الكاثوليكي** كان ذا اهمية خاصة لكل فرد · وقد بدا ان محاولات الربط بين هذه التجربة في النضال الديني والدنيوي والحركات السابقة لا تنتهي الى نتيجة ، وليس لها اي مبرر تاريخي · ولكن ظهور **العمل** الكاثوليكي اشار الى بداية حقبة جديدة في تاريخ الكاثوليكية الايطالية ، حينما تخلت الكنيسة عن تصور كلياني للعالم وتبنت تصورا جزئيا ، خالفه حزبها الخاص ·وعندما نشأت درجات دينية جديدة داخل جسم الكنيسة ، كانت تعبر عن الكنيسة في النضال ضد « التفكك الجزئي لتصورها للعالم » · ولكن تأسيس **العمل الكاثوليكي** كان يمثل ـ عوضا عن ذلك ـ « رد الفعل ضد الردة القوية للجماهير بأسرها ، اي ضد مفارقة التصور الديني للعالم من جانب الجماهير »·· وعلى وجه التحديد من اجل محاربة هذه « الردة » الجماهيرية كانت الكنيسة قد سمحت بتنظيم وتطوير حركة نقابية كاثوليكية ، واحست بالحاجة الى تحديد رسمي ودقيق لافكارها حول « الفقر » ، وقد تم ذلك جزئيا في المناشير البابوية ·

ويمكن تلخيص هذه المواقف الاسمية الجديدة للكنيسة في النقاط التاليــة :

« (١) ان الملكية الخاصة ، وخاصة ملكية الارض ، هــي « حق طبيعي » لا ينبغي ان ينتهك حتى بواسطــة الضرائــب الكبيرة ··· (٢) ان على الفقراء ان يكونوا قانعين بمصيرهم ، حيث ان الفروق الطبقية وتوزيع الثروة من مشيئة الله ومــن العقوق السعي الى ازالتها ، (٣) ان الاحسان واجب مسيحي وينطوي على وجود الفقر . (٤) ان المسألة الاجتماعية هي فوق كل شيء مسألة اخلاقية ودينية ، وليست اقتصادية ، وينبغي ان تحل بالاحسان المسيحي وبمبادىء الاخلاق وحكمة الدين »·

اما في الوقت الحاضر فقد اصبحت الكاثوليكية تملك حزبا شأن الاخرين ، وقد سعت الى تقوية تنظيماتها الخاصة · كذلك فقد اصبحت اكثر تماسكا وقدرة ، ولكن هذا كله كان علامــة ضعف ، لان الكنيسة ـ بعملها هذا ـ جعلت من الواضح انها لم تعد تتمتع بحقوق وامتيازات معينة على نحو لا يقبل التساؤل وانما كانت في الحقيقة مضطرة للدفاع عن هــــذه الحقوق والامتيازات بكل ما اوتيت من قوة · « وهذا يعني على وجه الدقة انها اصبحت اقل نفوذا في المجتمع وان هناك ـ من ثم ـ حاجة ، الى صراع والى نضالية اشد حدة » · كانت الكنيسة في مواقع الدفاع في جميع المجالات ، لا في المجال الاجتماعي او السياسي فحسب · وحتى من وجهة نظر فلسفية لم يكن لها تقريبا اي نفوذ : « ما هي قيمة الكنيسة اليوم في الفلسفة ؟

في اية دولة تسود الفلسفة التوماوية ★ بين المثقفين ؟ » ٠ الواقع ان الكنيسة تبدو مقطوعة الصلة بالعملية التاريخية التي يعيش الانسان خلالها كما تبدو مصممة على الدفاع عن مواقعها الخاصة وامتيازاتها الخاصة لاطول وقت ممكن ، عوضا عن العمل على نحو متماسك وبعمق في الواقع الاجتماعي الذي يحيط بها ٠ « بناء على هذه المقدمات فان « الفكر الاجتماعي » الكاثوليكي يملك قيمة اكاديمية بحته ٠ ولا بد ان يدرس باعتباره افيونا ايديولوجيا » ٠ ان المهارة التقليدية للكنيسة الكاثوليكية لم تعد تبدو قادرة ، لاسباب متباينة ومتضاربة ، على التكيف مع متطلبات العالم المعاصر ، وهي متطلبات جديدة ومركبة تماما : « الكاثوليكيون خبثاء للغاية ، ولكن يبدو لي انهم في هذه الحالة يبدون حبثاء اكثر من اللازم » ٠

ولقد طرحت ايضا بالنسبة للكاثوليكيين في الوقت الحاضر المشكلة الاساسية الخاصة بعلاقة الكنيسة بالسلطة الدستورية وقد تحدث عنها ـ كما تحدث عنها الاخرون ـ البابا ليو السابع ـ محللا المسألة « بهذه النقاط الاساسية : (١) القبول اي الاعتراف بالسلطة الدستورية ، (٢) تقديم الاحترام لها كما

★ نسبة الى القديس توما الاكويني (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤) قام بالدور الاساسي في تكييف الفلسفة الارسطية مع الفكر الديني المسيحي وقد اعلن المذهب المدرسي لتوما الاكويني رسميا الفلسفة الحقيقية الوحيدة للمذهب الكاثوليكي ٠ « المترجم » ٠

يقدم لوكيل سلطة آتية من الرب ، (٣) الطاعة لجميع القوانين العادلة التي تعلنها مثل هذه السلطة ، ولكن مقاومة القوانين الجائرة بهدف مشترك هو تعديل التشريع واضفاء المسيحية على المجتمع » • هذه العبارات كانت تعني كل شيء ولا تعني شيئا ، لان الكاثوليك استخدموا الكلمة نفسها للاشارة الى ظواهر سياسية متباينة ، بل حتى متعارضة ، طالما ان « سياستهم » كانت تدفعهم لاصدار حكم عن البشر والاشياء كما الحكم التالي :

« لقد وصف نابليون الثالث برجل العناية الالهية بعد انقلاب الثاني من ديسمبر (كانون الاول) ، وهذا يعني ان المفردات السياسية عند الكاثوليك تختلف عن مفردات الانسان العادي » •

وبطبيعة الحال فان العلاقة بين السلطة السياسية والسلطة الدينية كانت مركبة وغير قابلة للتنبؤ بها الى حد انه كان يتعين على الكاثوليك ان يضعوا في اعتبارهم حتى حتمية حدوث عصيان مسلح • والحالات التي كان يمكن حدوث هذه الحتمية فيها كانت مقيدة بالطبع • فقد كانت تترك ـ ببراعة ـ غامضة وغير محددة ، وربما كانت تعني فقط « حالات قصوى معينة من قمع وتحديد امتيازات الفاتيكان والامتيازات الاكليركية • واخيرا هناك في المادية التاريخية وفلسفة بنديتو كروتشه هناك ملاحظتان اساسيتان ذكرناهما بالفعل • الاولى تتعلق بصعوبة ابلاغ ـ حتى الماركسيين المناضلين ـ كيف ان الماركسية نفسها لا بد ان تفسر كقيمة « انتقالية » • والثانية تتناول امكانية ان

تصبح « تصورات مثالية كثيرة ـ او على الاقل بعض جوانبها ـ مما يعد طوباويا في ظل حكم الضرورة » ـ تصورات واقعية فقط في مجتمع شيوعي حيث تكون كل الاختلافات الطبقية قد ازيلت ٠

ورسائل من السجن هي تسجيل وثائقي ثمين كروح غرامشي في هذا الصدد ٠ ففي خلال هجوم اشد خطورة من المعتاد سعى غرامشي ـ الذي كان مقتنعا بأنه على وشك ان يموت ـ الى البرهنة على عقم وخواء الدين او كان يستشعر قلقا عميقا من ان يستفيد القسيس من ضعفه ٠ فظل يتحدث طوال الليل عن خلود الروح بمعنى واقعي وتاريخي ، اي كبقاء ضروري لافعالنا المفيدة والضرورية وكتجسيد لها خارج ارادتنا » ٠ وتحدث الى زوجته عن مشكلات عامة ، عن الايمان بالله وعن حضور الكنيسة بين البشر :

« بالنسبة للكنيسة ينبغي ان يكون الايمان بالله مصدر العزاء الاكبر ، والاساس الذي لم يهتز لحياة اخلاقية لكل انسان ٠ ولكن يبدو ان الكنيسة لا تثق كثيرا في ثبات وحزم هذا العزاء المطمئن ، لانها تشد المؤمن الى خلق مؤسسات انسانية تتقدم ـ بمساعدة رسائل انسانية ـ الى معاونة المحزونين والحيلولة بينهم وبين الشك ومنعهم من ان يهتز ايمانهم ٠ ومن ثم يبدو ان الله هو مجرد تشبيه ، يشير الى البشرية كلها منظمة من أجل العون المتبادل » ٠.

ثم يكتب فيما بعد هذه الرسالة الجميلة للغاية الى امه في اعتراف استثنائي بأعمق المشاعر :

« لا يمكنك ان تتخيلي كم هي كثيرة الاشياء التي اتذكر والتي تبدين فيها دائما كقوة نافعة ، دائما مفعمة بالحنان لنا · ولو انك فكرت في الامر ، فان جميع مسائل الروح وخلود الروح والسماء والجحيم كلها ـ بعد كل شيء ـ ليست سوى طريقة لرؤية هذه الحقيقة البسيطة : ان كل عمل من اعمالنا ينتقل الى الاخرين طبقا لقيمته ، قيمة الخير او الشر ، وينتقل من أب الى ابن ، من جيل الى آخر بحركة متكررة · وحيث ان كل الذكريات التي لدينا عنك ، ذكريات خير وقوة ، وانك اعطيت كل قوتك لتنشئتنا ، فان هذا يعني انه منذ ذلك الوقت وانت تعيشين فعلا في الجنة الحقيقية الوحيدة التي لها وجود ، التي هي بالنسبة لكل ام ـ فيما اعتقد ـ قلب ابنائها » ·

واضاف غرامشي ـ يضبط جموحه تواضع متأخر ، واعيا بأنه قد كشف ذاته لامه كما لم يعرف من قبل كيف يكشفها في الماضي ـ : « هل تفهمين ما كتبته اليك ؟ على كل حال ينبغي الا تعتقدي انني اريد ان اعرض بآرائك الدينية ، ولكنني اعتقد انك تتفقين معي اكثر مما قد يبدو » ·

الفصل العاشر

التربية ، المدارس ، واجهزة الاعلام
الاسرة والمرأة في المجتمع

« لقد كانت المدرسة التقليدية مدرسة اقلية لانها كانت تعنى بالجيل الجديد من الشريحة الحاكمة التي ستحكم عندما يأتي دورها : ولكنها لم تكن مدرسة اقلية بسبب منهجها في التعليم » ٠

(غرامشي : المثقفون وتنظيم الثقافة) ٠

واجه غرامشي مشكلة التربية البروليتارية ، ومن خلالها واجه ايضا مشكلة المدارس ، وكان ذلك لاول مرة ــ بطريقة واضحة وجديدة ــ في مقال نشره في صحيفة **صيحة الشعب** يوم ٩ ديسمبر (كانون الاول) عام ١٩١٦ ٠ وقد حدد مشكلة تشكيل الانسان « في وظيفته الثنائية التقنية والروحية » بانها مشكلة « اولية » ٠ وخلال سنوات الحرب كانت

البورجوازية الايطالية تتحدث عن الحاجة الى تربية « قومية » ومع ذلك فقد كان من رأي غرامشي ان الوقت قد حان فأصبح من الضروري حتى « معارضة الاطروحة الاشتراكية القائلة بأن تربية انسانية بصورة بسيطة وخالصة هيالتربية الوحيدة التي تتناسب مع الطبقات الشعبية التي ينبغي ان تتلقاها » . ومع ذلك فلم تكن الفروق الهامة حقا هي تلك التي تقوم بين مدارس قوية او انسانية او بين مدارس دينية وعلمانية ، وانما تتعلق بالمضامين مباشرة لان « من الضروري اعطاء مضمون واقعي لبرنامج التربية للجماهير ، مستمد من الوعد الثوري المباشر بحـــاجاتهم ، وانانيتهم ، وحقوقهم وواجباتهم » . وليس من شأن هذا ان يكون ممكنا طالما ان الاحتكار في مجال التربية ، اي السلطة في المدارس ، كانت متروكة في أيدي البورجوازيين او رجال الدين : « علينا ان ننتزع تربيـــة الجماهير من أيدي الطبقات الحاكمة » .

لقد كان نظام التربية البورجوازي في حالـة خراب . وكان هناك زعم بأن اطفال الطبقة المتوسطة الصلدة، المفتقرون الى أية مثل عليا ، هم ابطال ، وكانوا يقلدون آباءهم تقليـــدا أعمى في الاستهزاء بالمدارس والتعليم والتربية واي شكل من اشكال الانضباط واي شكل من أشكال العمل . وكان اطفال مدرسة تورينو الصغيرة قد قرروا ان يلعبوا دور النقابييـن وقرروا ان يعارضوا « استغلال » المدرسين لهم ، واثـــار « تمردهم » امتعاضا وحزنا : « ان حديثي السن متورطون ، ورؤية كل هذا القدر من الجبن ، وكل هذا القدر من الفظاظة

الروحية بين الصغار لامر مهين ومحزن » • ولكن لم يكن لهذا ان يثير دهشة او يفاجىء احدا ، طالما ان ابناء هؤلاء الاعضاء في الطبقة المتوسطة لم تكن لديهم مثل عليا تهديهم في صراعهم ، في « مطالبهم » • وهم ، على أقصى تقدير ، لا يملكون الا المقدرة اللامحدودة تماما على اكتشاف العيوب والنواقص الجسيمة في مدرسيهم والسخريـــة من مظهرهم الخارجي وهواجسهم الصغيرة • لم تكن هناك اي تسليـــة طفلية في هذا على الاطلاق ، ولكن هذه الوضاعة الغريزية ، هذا الانحراف المنفلت الزمام ، كان من شأنها ان تقلق فعـــلا اولئك المواطنين الذين يضعون المدارس وتربية الصغار فـــي قلوبهم • كانت الحقيقة ان « المدارس تتفكـــك ، مثل كـــل المؤسسات الاخرى ، تحطمها هـــذه الحفنة من اعضـــاء العصابات • ولا يمكن لاية وسيلة او اي معيار ان يوقف هذه « الغرغرينا » • لقد كانت جرثومة كل توالد توجد دائمـا في الشباب • ومع ذلك فانه غير وارد بالنسبة لبلدنا ان نتوقع تجديدا من هذه النفاية الشابة » •

كان غرامشي يرى مشكلة المدارس كمشكلـــة تقنية ، وكمشكلة سياسية في الوقت ذاته• وقد كانت الدولة الليبرالية عاجزة عن حلها ، ولا حتى بالتمشي مع مصالحها الخاصـة وغاياتها الخاصة• وفي الحقيقة ـ وبكل نزاهة ـ لم يكن يمكن ان يقال « ان الطبقة المتوسطة تدير المدارس لاهداف تتعلق بحكمها » • فلو كان الامر كذلك لكان ميزة للمدارس ، التي كانت تعود عندئذ لتصبح على اتصال بالواقع • فبدلا من ذلك

كانت البورجوازية تعين وزراء التوجيه العـــام على اساس معايير انتهازية فحسب ٠ فقد تخلت عن المدارس للبيروقراطية وحاولت فقط ان تصل الى اكثر التوازنـــات استقرارا بيـن المجموعات المختلفة في حكومة الحزب او احزابها ٠ وعلى النقيض من ذلك « في مجالس دولة العمال سوفـتمثل المدارس واحدا من اهم النشاطات العامة واكثرها جوهرية » ٠ ومن الممكن المضي الى أبعد من ذلك والقول بأن التطور الايجابي للمجتمع الشيوعي سيعتمد في جانب كبير منه على التطور المنتظم والعقلاني للمدارس ٠ هذه هي المبادىء التي نؤمن بها ، هكذا قال غرامشي ٠ وسوف يتعين ان نطـــور حـــلا للمشكلات المختلفة ، كلها مجتمعة ، ولكن من الممكن ، بـــل من الواجب ، تقديم حل مبدئي ٠ ومن الواضح انه لا بد من رفض المفهوم ، الذي قبله الاشتراكيون حتى الان ، والقائل بأن « المدرسة المهنية هي مدرسة العمال » ٠ « ففي هـــذا المفهوم يكمن الاعتقاد بأنه لا بد من بقاء طبقتين وراثيتين » ٠ كانت هذه اطروحة مضادة للثورة ، ولهذا كـــان لا بد من محاربتها ، كما الفكرة ـ التي كانت نموذجا للتنظيم التربوي البورجوازي ـ القائلـة بأن الغرض الطبيعـي للتعليم هـو « الثقافة الموضوعية » وكتب غرامشي في المثقفون وتنظيـم الثقافة :

« أن التقسيم الاساسي للمدارس بين تقليدية ومهنية كان مخططا عقلانيا : المدرسة المهنية للطبقات المحكومة ، والمدرسة التقليدية للطبقات الحاكمة وللمثقفين » ٠

وينبغي ان تفهم الصفة « عقلاني » هنا بمعنى موجه نحو هدف محدد - « اليوم هناك اتجاه لازالة كل نمط من المدارس « غير المعنيـــة » (اي التي ليست عملية بصورة مباشرة) والمدارس « التقويمية » او ترك عدد رمزي فحسب لنخبـــة صغيرة من السادة والسيدات الافاضل الذين لا يتعين عليهم ان يفكروا في اعداد انفسهم لمستقبل عملي ، والعمل بصورة متزايدة على نشر المدارس المهنية المتخصصة التي يتحدد فيها بصورة مسبقة مصير التلميذ ومستقبله » ·

اما المدرسة الموحدة ، التي يتعين على الاشتراكيـــة ان تقيمها لازالة التقسيم الطبقي في المجتمع من جذوره ، فلا بد ان تصمم على ان تهب التلاميذ القيم الاساسية « للانسانية »· ولكن يتعين عليها ـ فوق كل شيء ـ ان تعطي الجميع ذلك الانضباط الذاتي والاستقلالية التي تتيح لكل واحد ـ مـــع استمرار دراسته ـ ان يكون قادرا فكريا واخلاقيا على بلوغ درجة أعلى من التخصص ، اما ذو طبيعـــة علمية (فـــي الدراسات الجامعية) او ذو طابع انتاجي عملي (في الصناعة· في العمل المكتبي ، الخ ··) · وفي سنوات التكوين هــذه ـ وحتى يصبح التلميذ قادرا على بلوغ النضـــج الفكـــري والاخلاقي المرغوب ـ « ينبغي عدم اغفال درجة من جديـــة مسؤولة حاسمة بالاسراف في القاء المواعظ » ، حتى ولو كانت المشكلة لا تزال هي مشكلة « تحديث واثراء التوجيـــه العقائدي ، التي تميز بصورة لا يمكن تفاديها هذه السنوات الاولى » ·

ان كل مرحلة تعليمية تفرض اسئلة مختلفة ٠ فكان يمكن في المدارس الابتدائية ان تعنى تربية الاطفال فوق كل شـــيء بالافكار الاولى في العلوم الطبيعية والافكار الاولى في حقوق وواجبات المواطن ٠ وبعبارة اخـــرى كان المبدأ التربـــوي للمدرسة الابتدائية هو « مفهوم وحقيقة العمل (كنشاط نظري ـ عملي) » ٠ وهكذا ادخل العمل مفهوم الحقوق والواجبات اي النظام الاجتماعي ونظام الدولة في النظام الطبيعي واتاح للاثنين ان يتوحدا ٠ وحينمـــا استخدم غرامشي مصطلح الافكار فانه كان واعيا بأنه يفتح المجال للحـــوار ، ولكن النضال ضد منهج تدريس الحقائق فحسب كان خاطئا جزئيا لانه ليس صحيحا صحة تامة ان التربية تتميز تماما عن التدريب الاكاديمي » ٠ وعلى سبيل المثال ، فان دراسة اللغة اللاتينية في المدارس من النوع التقليدي لها قيمة هي ايضا قيمة تربوية بصورة اكثر اتساعا ، والاعتراض بأنها تعنـــى بشيء ميت لم يكن اعتراضا سليما ٠ حقا « ان كل تحليل يقوم به صبي صغير لا يمكن الا ان يكون عن اشياء ميته » ٠ ودراسة اللاتينية ينبغي ألا تكون غاية في ذاتها ، ولكنهـا عنصر يشكل جزءا من برنامج مدرسي مثالي قادر على اشباع حاجات مركبة ذات طابع سيكولوجي وتعليمي ٠

ومن ثم فان المعركة الاشتراكية الكبرى ستكون معركـــة من أجل مدرسة موحدة ، مدرسة لا تردد التقسيم الطبقـي التقليدي للمجتمع :

« لقد كانت المدرسة التقليدية مدرسة أقلية لانها كانت تعنى بالجيل الجديد من الشريحة الحاكمة التي ستحكم عندما يأتي دورها : ولكنها لم تكن مدرسة اقلية بسبب منهجها في التعليم » ٠

ولهذا لن يتعين على الاشتراكيين ان يبنوا نظام التعليم بأكمله من جديد وانما بامكانهم ـ ربما ـ ان يقبلوا جانبا كبيرا من البرامج القديمة والحلول القديمة ٠ واعادة البناء هذه سوف تهدف ـ فوق كل شيء ـ الى ازالة كل تقسيم ، كل حاجز « عنصري » بين نوع من المدارس ونوع اخر ٠ فان المرء لا يستطيع ان يسمح لطريق تربوي معين بأن يحفظ لكل اولئك الذين سيصبحون الطبقة الحاكمة للبلاد ، بينما يحفظ ـ في الوقت نفسه ـ طريق اخر للتدريب المهني للعمال ، بعيدا من البداية تماما عن اي وظيفة « حكم » :

« من ثم فان تعدد انواع المدارس المهنية ينحو نحو الاحتفاظ الى الابد بالاختلافات التقليدية ، ولكن لما كان ينحو نحو انجاب شرائح داخلية في اطار هذه الاختلافات ، فانه يعطي الانطباع بميل ديمقراطي » ٠

الدراسة مجهود ، وبالطبع فان الصبي الذي يدرس يصبح قلقا ، وينبغي بذل كل ممكن من أجل خفض اجهاده الى الحد الادنى الضروري ٠ ولكن علينا ايضا ان نقبل ان الدراسة حرفة « بالمثل » ، بمعنى انها ليست مجرد عمل يدوي

يمكن اعتباره عملا وكدا ، اي انها تتطلب عملية كبيرة من التكيف من خلال « جهد وضجر ، بل ومعاناة » • وان مدرسة ثانوية موحدة ، تضم جماعات ضخمة من الطلاب « تخلق معها الاتجاه نحو اضعاف انضباط الدراسة ، الاتجاه نحو المطالبة (بامتيازات خاصة) » • بل ان كثيرا من الناس يعتقدون ان هذه الصعوبات مصطنعة لانهم اعتادوا على اعتبار العمل اليدوي وحده عملا وكدا •

ولنأخذ حالة ابن عائلة من المثقفين • انه سيجد صعوبة اقل في التكيف مع عمل المدرسة ، على نفس النحو الذي به « يعاني ابن عامل في المدينة في دخول مصنع بدرجة اقل من ابن فلاح أو من فلاح صغير السن اعتاد على الحياة الريفية » ان مشاغل غرامشي هنا واضحة • لقد كان يكرر باستمرار ان المشكلات معقدة • وغالبا ما ترك انطباعا بأنه لا يزال يتلمس طريقه في الظلام ، وبأنه لم يعثر على الحل الامثل للمدارس في مجتمع شيوعي ، مدارس الغد ، في دولة عمال • كانت المشكلات معقدة والصعوبات التي يتعين التغلب عليها مما لم يسمع به احد ، « اذا كان المرء يريد ان يخلق شريحة جديدة من المثقفين تضمن حتى جميع من هم اكثر مهارة من مجموعة اجتماعية لم تظهر تقليديا المواقف المناسبة » •

تشكل رسائل من السجن وثيقة غير عادية لتجميع افكار غرامشي حول التعليم من موضع حقيقي ، حيث انه ـ على الاقل من خلال رسائله ـ كان مشغولا بتربية وتطوير شخصيات

ابنيه وابناء عمومته وابناء اخوته · ولقد كانت حرفة المربي حرفة صعبة ، فان شخصا يعرف الاطفال معرفة وثيقة ويستطيع مصاحبتهم على طول فترة نموهم هو وحده الذي يستطيع ان يفهم اي الطرق يمكن ان يكون الطريق التربوي الافضل ، ما لم يترك نفسه تعميه المشاعر « مستسلما للتأمل الجمالي الخالص في الطفل ، الذي تنحدر قيمته ضمنيا الى وظيفة عمل فني » · وكان من بين الاخطار التي لا بد من تلافيها (وهي واحدة من اخطاء كان من السهل كثيرا الوقوع فيها) الاعتقاد بـأن « الانسان بأسره موجود بصورة كامنة في الطفل وانه من الضروري مساعدته على ان يظهر ما هو مشتمل عليه فعلا بصورة كامنة دون قسر ، وتركه للقوى العفوية للطبيعة او غيرها » · على خلاف ذلك فان تشكيل الانسان هو ذو طبيعة تاريخية ، ينشأ عن القسر (الذي ينبغي الا يفهم على انه لا يعني الا العنف الخارجي) ·فاذا لم يقبل هذا الحكم « سيسقط المرء في احد اشكال نزعة التعالي او نزعة المحايثة » · واذا رفض تصور التربية على انها « بسط خيط موجود من قبل » ، واذا لم نضع ثقتنا في نوازع فطرية من شأنها ان تخرج الى دائرة الضوء قبل الاوان ، امكن توجيه الطفل ـ وهو الشيء الملائم ـ نحو تعلم متوازن ، نحو تكيف متناغم لكل الملكات الفكرية والعملية ، التي ستجد فرصتها لان تصبح متخصصة في الوقت المناسب ، على اساس شخصية تتشكل بقوة بمعنى متكامل وكلي » · لقد كان من الصعب القول بما هو جيد وما هو سيء في هذا المجال : « انني لا اكاد ـ في الواقع ـ اعرف

شيئا عن الاطفال ، عن نموهم العقلي ، عن حياتهم المحسوسة »·

لقد اعطى غرامشي لاحدى مقالاته ، التي ظهرت في صحيفة انتظام الجديد اليومية يوم ٣١ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٢١ ـ عنوان كيف ينبغي ادارة صحيفة شيوعية · وكتب غرامشي انه يتعين على صحيفة شيوعية ان تجد قاعدة شيوعية واسعة تدعمها ايجابيا ، لا بالكلمات وحدها ، وانما ايضا بالكتابة وبالعمل · لقد كان العمال لا يزالون يدفعون الى تمثل ميول بورجوازية صغيرة دون ان يدركوا ذلك ، وكانوا ـ على سبيل المثال ـ يتصورون الصحيفة بالطريقة نفسها تماما الذي تتصورها بها البورجوازية الصغيرة ، ويسهمون بالكتابة في الصحيفة كما يسهم البورجوازيون الصغار في صحفهم · وكانت هذه مسألة « فساد للطبقات العاملة » حقيقي ، فساد يتعين ايجاد علاج له · وكان يجري السعي لايجاد تعاون ايجابي ومثمر ولاقامة « رابطة دائمة بين الصحيفة ، ونواة البروليتاريا التي تشعر وتعيش مشكلات الطبقة بأسرها » كانت هناك حاجة اليها · وهذه الرابطة لا يمكن ـ ولا ينبغي ـ اقامتها بين افراد ، وانما بين الصحيفة وجماهير العمال ، مع كل وزن التنظيم الذي ينظم حركة العمال وراءه ·

وأهمية الصحافة اليومية بالنسبة للتربية ، وتكوين الشخصية ، وبالنسبة لـ « حرية » الاختيارات الحاسمة للفرد ، ينبغي الا تنسى · فالصحافة البورجوازية الكبرى ، وما يسمى الصحف المستقلة ، هؤلاء « المرتزقة الايديولوجيون »

في خدمة رأس المال ، يعملون كجزء من الصراع الطبقي ، وهو جزء لا يمكن اغفاله · ان الصحيفة البورجوازية تؤدي وظيفتها كمؤسسة تجارية ضخمة ، كل همها « تقطير الربح السياسي »· وتملك البورجوازية الاف والاف الصحف وآلات المطابع · فهل يستطيع المرء ان يتحدث حقا عن حريته في دولة بورجوازية ؟ هل يستطيع المرء حقا ان يقول ان برلمانا ـ منتخبا في ظروف كهذه ـ يمثل الارادة « الحرة » للامة ؟

« ان الصحافة ـ جنبا الى جنب مع الاحزاب السياسية ـ هي جزء لا يتجزأ من حكم برلماني ديمقراطي جيد التنظيم · فاذا فشلت الصحافة في اداء واجبها كجهاز غير معني من اجهزة السيطرة على الرأي العام ، فمن يستطيع ان يصد تعسف المسؤولين ؟ » ولكن الطبقة المتوسطة كانت اول من وعى فراغ المثل العليا التي يقوم عليها المجتمع : « يعرف الصحافيون البورجوازيون هذا كله ، ولكنهم يستسلمون بالطريقة نفسها لحرفتهم ، المحزنة ، حرفة الفضائح » · يستسلمون عارفين لكل تلاعب ممكن بالحقيقة ، بالوقائع ، وبالضمير ·

واحيانا ما كانت الصحف « المستقلة » ناطقة بلسان بعض « القوى الخفية » التي لديها كل اهتمام في اطلاق « حركات عرضية للرأي العام بين وقت لآخر ·· » كذلك كان تاريخ الدولة الايطالية هو ايضا تاريخ الكيفية التي بها « تخلق الدولة مسبقا ـ حينما تريد ان تبدأ عملا غير شعبي ـ الرأي العام اللازم »·

بمعنى انها تؤدي سلسلة عمليات تتيح لها ان تنظم تلك العناصر من المجتمع المدني التي تحتاج اليها • وربما كان ما يشار اليه عادة بعبارة « الرأي العام » قد وجد دائما بصورة مباشرة بدرجة او بأخرى ، حتى في الامارات الشرقية القديمة • ولكنه برز بمعنى خاص فقط بعد سقوط وزوال دول الاستبداد المطلق ، في الفترة نفسها ، اي الفترة التي كانت البورجوازية ــ وقد صارت عندئذ على درجة كافية من القوة من وجهة النظر الاقتصادية ــ تحاول ايضا ان تكسب السلطة السياسية • وكانت القدرة على اكتساب الرأي العام في صف الواحد تشكل مشكلة اساسية في الدولة البورجوازية : « لهذا يوجد الصراع على احتكار اجهزة الرأي العام : الصحف ، الاحزاب ، البرلمان، حتى تتمكن قوة مطردة من تشكيل الرأي وبالتالي تشكيل الارادة السياسية الوطنية ، مع تفتيت كل الاختلافات الى جزيئات فردية وغير عضوية » •

وقد لاحظ غرامشي ــ مشيرا الى الوضع الخاص للفترة التي كان يكتب فيها (ولكن دون ان يخلو الامر من نقاط مثيرة للاهتمام وقابلة للتطبيق ايضا حتى يومنا هذا) ان عاملين قد دخلا لقلب الخطط المسبقة للاحزاب التقليدية ، الرامية الى أحتكار الرأي العام : صحافة الازقة والراديو • ويتمتع هذان العاملان الجديدان ــ نظرا لشعبيتهما و« تانيهما » ــ بالقدرة على « اثارة اندلاعات سريعة من الفزع او من الحماس الخيالي الذي اتاح بلوغ اهداف مقررة ، في الانتخابات مثلا • وقد

جرى هذا كله بسبب الطريقة نفسها التي كانت تتصور بها السيادة الشعبية على انها شيء يمارس ـ بالتأكيد ـ على فترات منتظمة فقط ، كل ثلاث او أربع ، او خمس سنوات • فيتجه انتباه الطبقة الحاكمة بأسره نحو الحصول على «التفوق الايديولوجي » (او الافضل التفوق الانفعالي) في ذلك اليوم بالذات ، وبعد ذلك ـ ولمدة الثلاث او الاربع او الخمس سنوات التالية ـ تستمر هذه الطبقة في حكم البلاد ، حتى اذا انقضى الانفعال « واصبحت الجماهير الانتخابية منفصلة عن تعبيرها القانوني (لم تكن الامة الحقيقية هي نفسها الامة التي تم تحديدها قانونيا) (١) فماذا كان باستطاعة الاحزاب ان تفعل لكي توقف هذا كله ـ هذا الاستغلال بلا حياء للرأي العام ؟ ليس كثيرا ، بل ربما اقل مما استطاعت النقابات المهنية الحرة ان تفعل :

« ان واحدة من مشكلات التقنية السياسية القائمة اليوم ، والتي تعجز الديمقراطيات مع ذلك عن ايجاد سبل لحلها ، هي بالتحديد هذه : خلق تنظيمات متوسطة بين الجماهير الضخمة ، التي لا يمكن تنظيمها بمعيار الحرفة (او يصعب تنظيمها) والنقابات المهنية، والاحزاب والجمعيات التشريعية» •

---

(١) هذا تعبير استخدم للاشارة الى نظام التصويت الضيق للغاية الذي كانت تقوم الدولة الايطالية على أساسه •

بدأ غرامشي في مقال نشره في صحيفة صيحة الشعب يوم التاسع من فبراير (شباط) ١٩١٨ بقولـــــه : « لا يـزال الاشتراكيون يصورون غالبا على انهم اعداء الاسرة » • وكان هذا واحدا من اكثر العبارات المألوفة انتشارا ، وخاصة بين تلك الشرائح من السكان التي لا تكن تعاطفا خاصا للاشتراكية. والتي لم تكن ـ من الناحية الاخرى ـ على درجة كافية من التعليم لتعرف برنامجهم وما هم يقترحون فعلا • وبالنسبة للاشتراكيين كانت الاسرة « تنظيما اخلاقيا » • وهي تفرض الالتزامات الاجتماعية الاولى على الفرد و « ينبغي ادماجه في وظيفتها الاخلاقية الوحيدة ، وظيفة الاعداد الانساني ، وظيفة التربية المدنية » • هذا ما كان يعتقده الاشتراكيون ، على الاقل اولئك الذين لم يكونوا يعانون من « جنون عبادة الدولة » ، ولم يكونوا يؤمنون في أقل القليل بأنه « في حكم اشتراكي ينبغي ان يعهد بتربية الاطفال الى مؤسسات الدولة » • ولكن هل اعتبر ابدا انه في مجتمع بورجوازي يسعى كل فرد الى حل مشكلة امنه الخاص ، وامن اطفاله وزوجته بواسطة « حل لا انساني »، بواسطة حرب ضد الافراد الآخرين ، باكتساب امتيازات تقوم حتما على كواهل الآخرين ؟ ان الغاء الملكية ـ من الناحية الاخرى ـ يمكن ان « يجعل الاسرة تصبح ما هي مقدرة ان تكون : تنظيما للحياة الاخلاقية » •

ان الملاحظات الاجتماعية الصغيرة في الصحف ، حتى الصغرى ، تثير افكارا جديرة بالاهتمام وتقود المرء الى أفكار

ذات وزن معين · ان كل شيء يكتسب نكهته الخاصة ، حقيقته الخاصه · وقد كتب غرامشي (ايضا بقدر من السخرية خاصة وان صحيفة النظام الجديد اليومية كانت قد اجبرت على نشر الاحصاءات الرسمية على صفحاتها · كما فعلت الصحف الاخرى ، تحت الحاح قرائها فقال ان قراءة قوائم الاحصاءات الرسمية يمكن ان تؤدي الى الخروج بأخبار او افكار جديرة ببعض الاهتمام · « من ناحية البورجوازية ، ومن الناحيـة الاخرى البروليتاريا » حتى هنا ، تماما كان في المدنية الخيالية التي خلقها ويلز★ حيث تتكاثر شيئا فشيئا انسانيتان مختلفتان اختلافا كاملا ، دون اي نقاط اتصال بينهما · وكانت الملاحظة الاولى ان هناك عمالا شبانا كثيرين تزوجوا او كانت لديهم الشجاعة لمواجهة الحياة ، بينما هناك قلة ضئيلة من الشبان ومن الطبقة المتوسطة فعلت الشيء نفسه ، واحد مـن عشرة فقط · « ولنلاحظ اكثر من هذا ، في حين انه من النادر جدا لعامل شاب ان يتزوج امرأة من الطبقة المتوسطة ، فان العكس كثير الحدوث · السبب ؟ ربما حقيقة ان العمال يشعـرون بخصائص واصالة طبقتهم بقوة اكثر ، وبازاء النساء مـن مركز بورجوازي فانهم غير مبالين ، ان لم نقل معادين » · ولكن ، كـان هناك شيء اكثـر مدعاة للقلق فـي قوائم

★ الروائي الانجليزي هربرت جورج ويلز (هـ·ج· ويلز كما يشار اليه عادة) والرواية المقصودة ـ في الغالب ـ هـي رواية البشرية في مرحلة التكوين Man kind in the Making

« المترجم »

الاحصاءات الرسمية :

« انظروا كيف يميل تفوق العمال المهرة نحو الثبات في اختيار زميل ، كيف ان الخصائص تبقى ـ فوق كل شيء ـ هي خصائص الفئات شبة البروليتارية ، خصائص اعضاء الطبقة المتوسطة الذين يخجلون من ان يوصفوا بأنهم عمال ، خصائص العمال الذين يودون لو يعيشوا كما تعيش الطبقة ، والذين يريدون ـ اذا كانوا لا يحققون ذلك في العمل ـ ان يميزوا انفسهم بالتزوج من « مثقفة » بدلا من رفيقة كد » ·

من المؤكد ان كل فرد قد رأى ما أمكنه ان يراه في شيء· كان هذا مثلا على الكيفية التي يمكن بها ـ حتى من مجرد قراءة قائمة من اسماء وارقام ـ الخروج بدرس في التاريخ الطبقي وتطوير درس مهم منه لكل شخص : « حتى اكثر القوائم جفافا ووعورة ·· تعيش الحياة نفسها التي تعيشها الحقائق التي تكونها » ·

الى جانب هذا كانت تلك فترة انتشرت فيها على نطاق واسع للغاية مناقشة حول الاسرة ، اهمية المرأة في الاسرة وفي المجتمع ، والحياة الجنسية والزوجية · وكانت المسألة الجنسية بوجه خاص قد اصبحت « وسواسا » حقيقيا · وربما كان لا بد من ربطها بذلك الشكل الخاص من الفصل بين المدينة والريف الذي نشهده في زمننا ، كما قال غرامشي · ولم يكن من قبيل الصدفة ـ بالتاكيد ـ انه في جميع الكتب « الطوباوية » التي تحلم بمجتمع يقوم على اساس شيوعية

بدائية تلعب المسألة الجنسية « دورا كبيرا للغاية » · وينبغي ألا ننسى انه حتى الانجاب له « وظيفة اقتصادية » · ولكن المسألة الجنسية جلبت معها مشكلة أخرى ، ربما كانت حتى اكثر اهمية ، تلك مشكلة « تكوين شخصية انثوية جيدة » · فلا بد ان تكتسب النساء مركزا مختلفا في مجال الاسرة وفي مجال المجتمـع :

« طالما ان النساء لم يصلن ـ ليس فقط الى الاستقلال ازاء الرجال ـ بل ايضا ، الى تصور جديد لانفسهن ولدورهن في العلاقات الجنسية ، فسوف تظل المسألة الجنسية مفعمـة بالخصائص المرضية ، وسيكون من الضروري التزام الحذر في اي تجديد تشريعي » ·

لقد كان مركز المرأة في الاسرة وفي المجتمع مزعزعـا في تلك السنوات · وقد أظهر هذا انعدام الامـن وانعـدام الاستقرار الانثوي ايضا · فلم تكن المرأة المتزوجة ـ على رأس اسرة لها اطفال ـ تبدو عاجزة فحسب عن اي شيء اكثر من مجرد الشعور القوي بالحب لذريتها · كتب غرامشي الى أمه في يوم من نوفمبر (تشرين الثاني) عـام ١٩٢٧ : « ينبغي الا يساورك اي قلق ، وينبغي ان تفكري فقط في انني هادئ · اوه ! هؤلاء الامهات ، هؤلاء الامهات ! لو ان العالم كان دائما في ايديهن لكان البشر لا يزالون يعيشون داخل الكهوف ، لا يرتدون سوى جلود الماعز ! » ، ولكـن المرأة العزباء ايضا تبدو اسيرة تمامـا لرسالتهـا « الامومية » ،

عاجزة عن ملاحظة المشكلات الاجتماعية التي تحيط بها ما لم تكن لها آثار شخصية محددة • وكتب غرامشي مرة اخرى الى امه في اول فبراير (شباط) عام ١٩٣٢ مشيرا الى ابنة خالته مي التي « تكمن في كونها تملك ارادة طيبة وقدرا من الطموح ، بأفضل ما للكلمة من معنى • والى جانب هذا فـان العالم لن ينهار اذا هي انهت حياتها في بلدة غيلارزا تمارس شغل الابرة فحسب بسبب افتقارها الى الرغبة في محاولـة النجاح في عمل شيء آخر افضل واروع • انني لا اعـرف اذا كانت عضوا في تنظيم الشابات الفاشيات ، اعتقد انهـا كذلك ، على الرغم من انك لم تكتبي لي ابدا عن هذا ، واتخيل ان لديها بعض الاهتمام بهذه الاستعراضات • ومن ثم فانها ستسير نحو المصير نفسه الذي سارت نحوه شابات ايطاليات اخريات ، وهو ان تصبح اما طيبة لاسرة ، كما يسمونهن ، شرط ان يجدن معتوهين يتزوجوهن ، وهو امر غير مؤكد ، لان المعتوهين يريدون دجاجات ليكن زوجات لهم ، ولكن على ان تكن دجاجات تملكن ارضا تحت الشمس ونقودا موفرة فـي دفتر البريد » •

كان غرامشي شخصيـا شديد الاحترام للشخصيـة الانثوية • وكان حبه وتقديره لامه ولشقيقة زوجته واضحـا في حياته ، وفي كل كتاباته • ويبقى ان نحكم ـ بشكل عام ـ على موقفه « النظري » فيما يتعلق بالنساء ، الامر الذي قد يبدو لنا اليوم ـ نحن قراء عصر يتحـول بسرعـة تحبس الانفاس ، حتى على مستوى العـادات ـ داخـل حـدوده الواضحـة •

الفصل الحادي عشر

البحث العلمي

« ولكن هل كل شيء يؤكـــده
العلم « موضوعيا » شيء حقيقي ؟
وبصورة قاطعة ؟ » ٠

(غرامشي في المادية التاريخية
وفلسفة بنديتو كروتشه) ٠

الاشارات الى التكنولوجيا والى العلم ، او الى البحث العلمي اقرب الى الندرة عند غرامشي ٠ وربما لا يكون هذا دليـلا معقولا على خلفيته المثاليـة ٠ فالتلميحات التي يمكن احيانا التقاطها هنا وهناك ، في بعض مقالاته الصحافية او في صفحات قليلة من دفاتر السجن (باستثناء بعض الاجزاء العضوية من المادية التاريخية وفلسفة بنديتو كروتشه) هــي تلميحات جزئية ، تفتقر الى الاستمرارية ، ومن الناحيـة الموضوعية ليست واضحة للغاية ٠ ومع ذلك فهناك بعض مناقشات جديرة بالذكر في هذا الموضوع ٠ واخـر هــذه المجادلات ـ التي ترجع اهميتها الى اختصاص المداخلات ـ

جرى على صفحات مجلة ريناسيتا ، وكان منشؤها رسالة من الفيلسوف الفرنسي لويز آلتوسر ★ الى رينو داساسو الذي كان قد عرض كتابا لالتوسر هو **قراءة رأس المال** • وقد رد على التوسر كل من نيكولا بادالوني ، جالفانو ديللا فولبي ، ليوستيانو غروبي ، ودال ساسو نفسه ، واخيرا لومشيو لومباردو راديسي ، وذلك من جوانب مختلفة • وقد ذهب التوسر في رسالته الى ان معالجة مشكلة العلاقة بين الفلسفة والعلم منعدمة لدى غرامشي ، وان لديه تصورا غير كاف ــ كي لا نقول تصورا زائفا ــ عن العلوم •

وكتب غرامشي ــ يوم ٦ يونيو (حزيران) عام ١٩١٨ في بداية عموده اليومي بين **شقي الرحى** « ان شخصا احمق قد اعلن هزيمة العلم لتاسع مرة • وقد فعل ذلك لان الحرب قد اظهرت كيف يمكن ان يصبح العلم سلاحا مروعا للتدمير في ايدي الحكام • وبالطريقة نفسها فان فأسا يمكن ان تصلح لشق جمجمة انسان ، ولكن احدا لا يمكن ان يحلم

★ Louis Althusser ابرز فيلسوف ماركسي بين اعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي ، ويعد المنظر الرئيسي للحزب ويمثل الجناح « الصلب » في مقابل الذي كان يمثله روجيه غارودي في الحزب قبل اقصائه عام ١٩٧٠ • وكتابه **قراءة في راس المال** يمثل سلسلة محاضرات ، شارك فيها غيره ــ في حلقة دراسية في معهد المعلمين العالي في باريس عام ١٩٦٥ • « المترجم » •

بالمطالبة بالغاء الزراعة لهذا السبب » • ان للعلم مهمة غير متحيزة هي ايجاد علاقات حديدة بين انواع مختلفة من القوى والاشياء • وهو لا يفشل « الا حينما يصبح تدجيلا »• ان الاستعمال الذي يأخذ به الانسان الاكتشافات العلمية شيء غريب تماما عن الغايات التي يتعين على العلم ان يحددها لنفسه • فهذا الاستعمال يعتمد بوضوح على بنية المجتمع ، وعلى الغايات التي يحددها المجتمع فيما يتعلق بتنظيمه الخاص • « يتبع الاكتشاف العلمي المصير المشترك لكل المنتجات الانسانية في حكم رأسمالي ، انه يصبح سلعة موضوع تبادل ، ومن ثم فانه يتحول نحو غايات يحددها الحكم بهيمنته ، مسببا الفوضى والدمار » • تتحول الاكتشافات العلمية حتما في مجتمع رأسمالي الى سلع للتبادل •

لقد كانت الافكار المبتسرة عن العلم اكثر انتشارا في ايطاليا منها في بلدان اخرى بسبب النشاط الثقافي لكروتشه نفسه ، وهو الذي كان يذهب الى ان الفلسفة وحدها هي التي تستحق اسم العلم الحقيقي ، « بينما العلوم الفيزيقية والدقيقة « تجريبية » ومجردة ، لان الطبيعة بالنسبة للمثالية تجريد اصلاحي » • وكل سوء الفهم الذي نشأ حول مفهوم العلم و « العلمي » نشأ عن حقيقة ان هذين الاصطلاحين قد استمدا معناهما ، فوق كل شيء ، من العلوم الطبيعية والفيزيقية • فهذه كانت قد اصبحت هي العلوم على الحقيقة

ومن ثم فان كل شيء يتوحد مع منهجهما في البحث يعد « علميا » • وكان من الضروري ـ بدلا من ذلك ـ توضيح انه لا يوجد علم او مجموعة علوم **على الحقيقة** ، وانه ليس هناك « علمي » في ذاته • ولكل علم منهجه في البحث ، حتى وان كان اوسع مناهج البحث انتشارا هو ما يمكن تحديده بأنه رياضي ـ منطقي (وهو منهج ربما ترجع سيطرته ايضا الى التأييد المباشر وغير المباشر الذي يلقاه من الفلسفة ومن الثقافة بوجه عام) • وعلى المرء ان يتذكر ايضا ان المصطلح « علمي » قد اتخذ معاني متباينة ، بل متناقضة ، في اوقات مختلفة ولدى مفكرين مختلفين • فقد اعتبره انجلز نقيضا لـ « طوباوي » • اما عند توراتي ونشرته **النقد الاجتماعي** فكان « العلمي » قريبا من المعنى التقليدي لما « ينتمي الى العلوم الفيزيقية والطبيعية » • وقد ذكر غرامشي اننا نشهد في النثر المعاصر سوء استخدام حقيقي للكلمة • اذ يبدو ان هذه الصفة تضاف الى اي اسم تقريبا •

« في الواقع ان « العلمي » يعني العقلاني ، وبصورة ادق « العقلاني وفقا للغاية » التي يراد بلوغها ، اي انتاج الحد الاقصى بالحد الادنى من الجهد للحصول على الحد الاقصى من الكفاية الاقتصادية الخ ، واختيار وتحديد ـ عقلاني ـ لجميع العمليات والافعال التي تفضي الى الغاية • واليوم تستخدم الصفة « علمي » على نطاق واسع ، ولكن معناها يمكن دائما ان يرد الى معنى « وفقا للغاية » بقدر ما تكون « وفقا » هذه مرعية عقلانيا ، اي منهجيا ، بعد تحليل دقيق لكل العوامل البنائية ـ والبنائية بالضرورة ـ نزولا الى اعمق

الاعماق ـ اي بازالة العوامل الانفعالية الماثلة في الحساب »·

هل يستطيع العلم توفير يقين « موضوعي » بوجود واقع خارجي ؟ ان الحس المشترك لا يطرح على نفسه هذا السؤال اصلا ، ويبدو متيقنا من قدرته على تقديم اجابة عليه على اي حال · الحس المشترك لا تساوره شكوك في هذا الصدد · « ولكن من اين ينبع يقين الحس المشترك ؟ جوهريا من الدين (على الاقل من المسيحية في الغرب)، ولكن الدين هو ببساطة ايديولوجية اكثر تعمقا في الجذور واوسع انتشارا ، وليس دليلا او برهانا » · فهل يستطيع العلم ان يعطي جوابا ؟ هناك جانبان اساسيان للعمل العلمي : « واحد يحسن بلا انقطاع وسائل المعرفة ، ويصحح ويعزز الحدس ، ويطور مبادىء جديدة ومركبة في الاستقراء والاستنباط ، اي يهذب ادوات التجربة نفسها والسيطرة عليها ، والاخر ، الذي يفسر هـذا التركيب الاداتي (من الادوات المادية والذهنية) ليميز فـي الاحساسات بين ما هو ضروري وما هو تعسفي ، فردي ، انتقالي » · والحقيقة ان لكلمة « موضوعي » هذا المعنى على وجه الدقة : انها تشير الى شيء له نفس القيمة لجميع البشر قيمة يتفق عليها الكل ، وهي مستقلة عن وجهة النظر الخاصة لانسان واحد ، او لمجموعة معينة · فحتى هذه الاجابة غير شافية : « على كل ، حتى هذا تصور خاص للعالم ، هـو ايديولوجيا » · هذا صحيح ، ولكن فيلسوفا ماركسيا يمكن ان يقبل هذه النتيجة بينما يرفض اخـرى مبنية على الحس المشترك ، حتى وان « توصل الى النتيجة نفسها جوهريا » ·

فالحس المشترك يرتبط ـ في الحقيقة ـ بتصور لاهوتي للواقع ويعترف بوجود عالم خارجي فقط بالقدر الذي به يعترف بوجود اله خلقه ، وهو عاجز ـ تقيده كما لا يزال الحال رؤية « بطلمية » الى الكون ـ عن ادراك الروابط الاساسية بين العلة والمعلول ، غير قادر على الايمان برؤية ذاتية للواقع او فهم ماذا يمكن ان يعنيه كل هذا ٠

« ولكن هل كل شيء يؤكده العلم « موضوعيا » شيء حقيقي ؟ وبصورة قاطعة ؟ لو كانت الحقائق العلمية نهائية ، لتوقف العلم عن الوجود بصفته هذه ، اي كبحث » ولاصبح مجرد نشر لما تم اكتشافه بالفعل ٠ الحقائق العلمية ليست أبدية ٠ ولكن لهذه القضية نتيجة هي حقيقة ان العلم لا بد ايضا ان يعتبر مقولة تاريخية ، مقولة في تطور مستمر ٠ ومع ذلك فان القيمة الكبرى للعلم في أية حقبة تاريخية تبقى انه لا يتحدث ابدا عن « ما لا يمكن معرفته » ، معطيا معنى ميتافيزيقيا للمصطلح ، انما يتحدث العلم فقط عن اشياء معروفة وعن اشياء لم تعرف بعد (ويمكن ان تعرف غدا ، مع تقدم الادوات التقنية وتطور « الذكاء التاريخي للعلماء الافراد ») ٠ ومن الناحية الاخرى اذا كان العلم لا يستطيع بلوغ نتائج نهائية ، فان هذا يمكن ان يعني أن موضوع معرفته ليس هو الواقع الخارجي ، وانما الانسان « اي الثقافة اي تصور العالم ، العلاقة بين الانسان والواقع من خلال وساطة التكنولوجيا » ٠ ولا معنى للبحث عن واقع خارج الانسان ، والتفكير في عالم يعيش بدون الانسان ، او التفكير

في ان الانسان لا يوجد ، لانه لن توجد في الوقت نفسه لغة ، او فكر ، او حتى « موضوعية » ٠

« بالنسبة لفلسفة العمل ★ ، لا يمكن فصل الوجود عن الفكر ، الانسان عن الطبيعة ، النشاط عن المادة ، الذات عن الموضوع : فاذا تم هذا الفصل سقط المرء في واحد من الاشكال الكثيرة للدين او التجريد الاجوف » ٠

العلم بناء فوقي ، ايديولوجيا ٠ ولا يمكن طرح العلم على انه اساس للحياة، ليصبح تصور العالم بالنسبة لماركسي لان هذا يعني « الخضوع من جديد لفكرة ان فلسفة العمل تحتاج الى تدعيمات فلسفية من خارج ذاتها » ٠ ومن ناحية اخرى فانه لا يمكن انكار ان العلم ـ على الرغم من انه بناء فوقي ـ يحتل ، ولا يملك الا ان يحتل ، مكانة مميزة ٠ ولكن ينبغي الا يكون ثمة شك في طابعه الفوقي ٠ وتثبيت هذا ايضا حقيقة انه في حقب تاريخية معينة نسيته او تجاوزته ابنية فوقية اخرى ، كالدين مثلا ٠ وهو لا يقدم نظرة « موضوعية » الى العالم ، وانما نظرة ـ وان تكن موضوعية ـ ترتبط بسلسلة بأسرها من الافكار او الفروض ذات طبيعة ذاتية ، على الرغم من ان له امتياز كونه منفصلا عنها ٠ ان العلوم

★ استخدم غرامشي عبارة فلسفة العمل كبديل للفلسفة الماركسية في كل كتاباته داخل السجن ٠ « المترجم »

غالبا ما يتم تجاهلها ـ فعليا ومنهجيا ـ وان كان الناس يظهرون « افتتانا » حقيقيا نحوها · وبالاضافة الى هذا فان ذلك الافتتان يمكن ان يبرهن على انه بالغ الخطورة ، ويمكن ان يصبح « نوعا جديدا من الافيون » ، كما يحدث حينما يؤدي الاعتقاد بقوى « صنع العجائب » لدى الانسان الى احتقار لهذه القوى نفسها او اصابتها بالعقم ، الى ازالة اي اهتمام بالعمل المحسوس ، اي الى استسلام كسول لاحلام اليقظة · ويمكن شن الحرب على هذا « الافتتان » ـ مثلا ـ عن طريق نشر المعلومات العلمية ، لا بواسطة الصحافيين او الهواة ، وانما بواسطة علماء جادين ومدربين بفضل معرفتهم بأكثر الافكار العلمية اهمية · « في الواقع، لاننا نتوقع الكثير جدا من العلم ، اننا نتصوره كشكل فائق من السحر ، ومن ثم لا يكون المرء قادرا على ان يقيم على نحو واقعي ما يقدمه العلم بصورة محسوسة » ·

وفي هذا الصدد يقدم بعض الكتب « الماركسية » مجالا للاحظات ومجادلات عديدة · وقد قال غرامشي ان كتاب بوخارين **المادية التاريخية : مذهب في علم الاجتماع** ـ على سبيل المثال ـ يمكن غالبا انتقاده · فقد استمد بوخارين ـ متأثرا بالمذهب الوضعي ـ مفهوم العلم من مجال العلوم الفيزيقية والطبيعية وحدها · وحتى بالنسبة لفلسفة العمل فان ما يسمى بالعلوم الدقيقة او الفيزيقية ـ بسبب خطأ فاحش ـ قد اكتسبت قيمة « تقديسية » ، في الحقيقة على انها « الفلسفة الحقة الوحيدة او الوعي الحق الوحيد

بالعالم » • وكان من الضروري ـ عوضا عن ذلك ـ التساؤل عما اذا كان ينبغي علينا الا نفهم بالعلم النشاط النظري او العملي للبحث التجريبي : « لقد قدم العلم التجريبي ـ حتى الآن ـ المجال الذي فيه بلغت وحدة ثقافية معينة اعلى تطور لها • فقد كان هو عامل المعرفة الذي اسهم بأكبر نصيب في توحيد « الروح » ، في جعلها تصبح اكثر شمولية ، انـه الذاتية وقد جعلتموضوعية تماما وكلية بصورة محسوسة »• وكان تأكيد المنهج التجريبي ثورة تاريخية ، وكان علامة على بداية انفصال حقبتين ، علامة على « عملية تحلل اللاهوت والميتافيزيقيا » • ليس هذا فحسب ، بل ان الثورة التي احدثها المنهج التجريبي في ميدان العلوم كانت علامة على بداية الفكر الحديث « الذي تكمن ذروته في فلسفة العمل » • ان الانسان ـ بنشاطه التجريبي ـ يقيم « العملية التوحيدية التـي تنمط الواقع » ، يقيم نموذج «التوسط الجدلي» بينه وبين الطبيعة • يعرف الانسان الطبيعة ويسيطر عليها ، واضعا نفسه فـي علاقة معها من خلال التكنولوجيا :

« التجربة العلمية هي الخلية الاولى في طريقة الانتاج الجديدة، في الشكل الجديد من الوحدة الايجابية بين الانسان والطبيعة • والعالم المجرب هو ايضا عامل ، وليس مفكـرا خالصا ، وتفكيره تختبره الممارسة باستمرار ، والعـكس بالعكس ، حتى تنصهر الوحدة التامة من النظرية والممارسة»•

فهرس

الصفحة